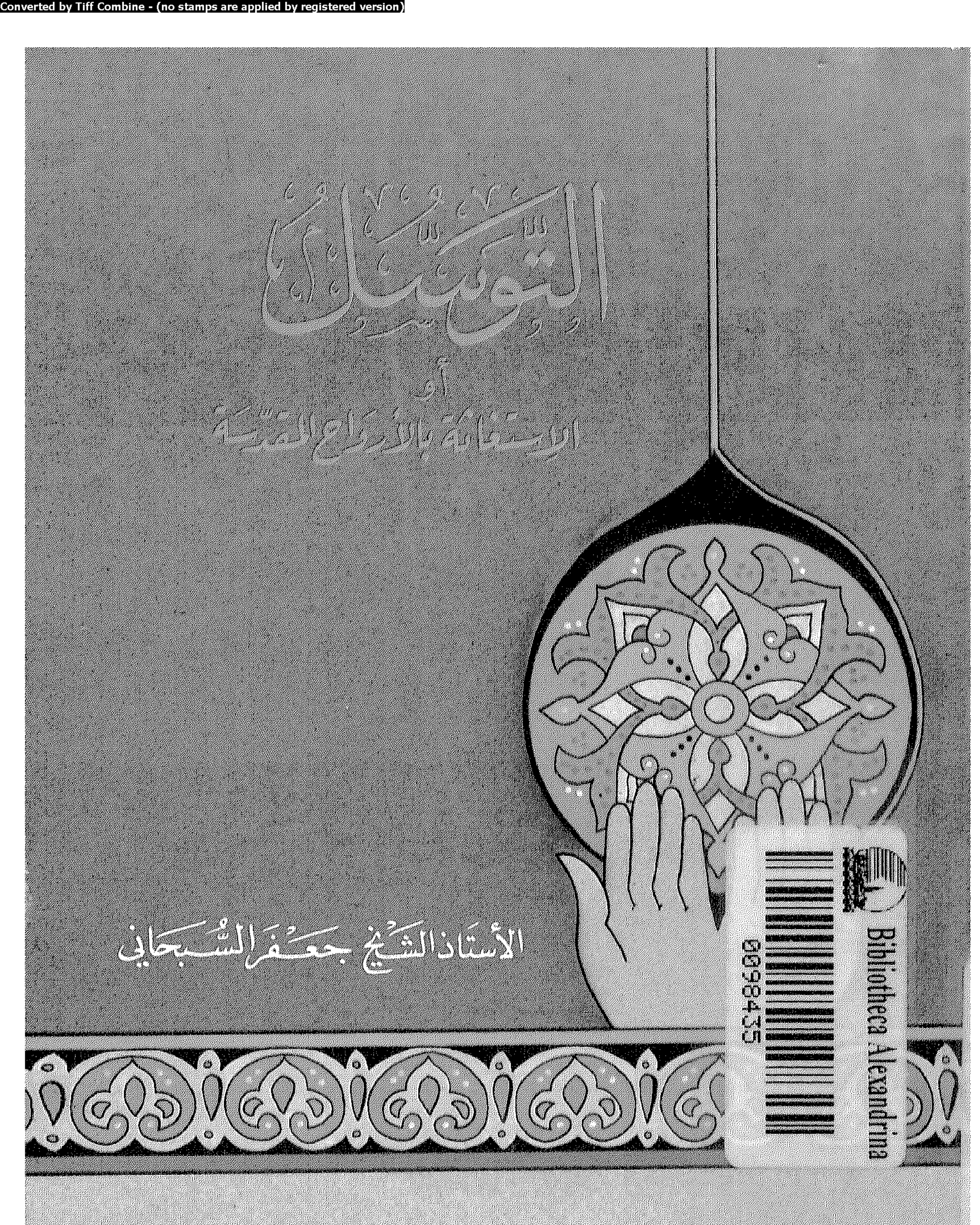


الدار الإسلامية
بيروت - لبنان



التوسل

أو

الاستغاثة بالأرواح المقدسة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني

التوسّل

أو

الاستغاثة بالأرواح المقدّسة

الدار الإسلاميّة

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



كورنيش المزرعة - بناية الحسن سنتر - طابق ثاني - هاتف : ٨١٦٦٢٧ ٨١٦٦٢٧
ص. ب : ٥٦٨٠/١٤ - تلكس : ٢٣٢١٢ غدير
فرع ثاني : حارة حريك - شارع دكاش - هاتف : ٨٣٥٦٧٠ - ص. ب : ٢٥/٢٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدمة

إنّ للتوحيد والوحدانية من خلال الوجهة العقـائديـة والعملية ، مراتب ودرجات ، وقد قام علمـاء « علم الكلام » بتقـديم الدراسـات والأبحاث حولها ، وتشكل مسـألة « التـوحيد في العبـادة » واحدة من مواضيعها ، حيث أن الهدف من بعثة الأنبياء كان الدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى ، وحده ومكافحة الشرك .

ويعتبـر القرآن الكـريم ، التوحيـد في العبادة القـاسم المشترك والهدف المتحد لكل المبعوثين السماويين ، ويقول في كتابه الكريم :

﴿ ولَقَـدْ بَعْثنـا في كُـلِّ أُمَّـةٍ رَسُـولاً أَنِ اعبـدوا الله واجتَنِبُـوا الطّاغوتَ ﴾[1] .

واعتبر القرآن الكـريم ، الوحـدانية : الأصـل المشترك وقـاعدة لجميع الشرائع السماوية . كما يقول :

﴿ قُلْ يا أَهلَ الكِتابِ تَعالَوا إلى كَلمةٍ سَواءٍ بينَنا وبَينَكُم ألاّ نَعْبُدَ

---

(١) سورة النحل : الآية ٣٦ .

إلّا الله ولا نُشرِكَ به شَيئاً ﴾[1] .

إنَّ الوحدانية وتحريم عبادة أي مخلوق غير الله عزَّ وجَل ، مسألة قبلنها جميع الفرق الإسلامية ، وليس لأحد ما يعارض ذلك، حتى أنه إذا عارض أي شخص هذا المبدأ ، فإنه يخرج عن نطاق الحركة الإسلامية ، ولا يعد في عداد المسلمين .

إنّ ما يدور في هذه الدراسة هو الإجابة على التساؤلات التي تثيرها اليوم فئة ، تروم من وراء ذلك تشويه الأذهان والعقول ، وإن هذه التساؤلات الخمسة عبارة عن :

١ ـ كيف تتم الإستغاثة بغير الله تعالى والإستمداد والطلب منه ؟

٢ ـ هل يجوز طلب الشفاعة من الرسل والأنبياء المعصومين ، أم لا ؟

٣ ـ ما هي الوسيلة التي يتخذها الأولياء لمسألة حاجة من الله سبحانه ، مثلاً عندما نقول « اللّهم إني أتوسل بنهيك إليك » وأية أحكام لمثيلاتها ؟

٤ ـ كيف يتم الحلف على الله بحق الأولياء ، لدى طلب الحاجة من الله تبارك وتعالى ؟

٥ ـ ما هو الحلف بغير الله ، كالقسم على القرآن والنبي والإمام ، من خلال وجهة النظر الشرعية ؟

---

(١) سورة آل عمران : الاية ٦٣ .

إن هذه المواضيع الخمسة يمكن دراستها وتحليلها استناداً إلى وجهتي نظر اثنتين :

١ ـ فهل إن الإستمدادات هذه ، ومسألة الشفاعات ، والتوسل إلى الأولياء الآلهيين ، والحلف على الله بحق هؤلاء هو عبادة غير الله ؟ وهل هو مناقض لمبدأ « الوحدانية » وعدم عبادة غيره ، أم لا ؟

وبالأحرى ، لو قال امرىء : يا أيها النبي الجليل ، لبِ طلبنا واشفِ مريضنا ، واشفع بحقي ، و . . . . إلخ ، فهل أنه بطلبه وحديثه هذا قد عبد النبي الأكرم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أم لا ؟ مثلما يعبد جميعنا . أو أن مواضيع كهذه لا تعتبر أساساً لعبادة غير الله تعالى . وهل هي مفيدة للإيمان أم لا ؟ وهل هي جائزة أم غير جائزة ؟ وهل هي أمور مستقلة بذاتها ؟

إننا لم نتطرق في بحثنا هذا إلى رأي كهذا ، لأن السبر في هذا المضمار يستوجب أن نستشف مفهوم « العبادة » من القرآن والحديث واللغة ، ومن ثم نقيس هذه الأفعال بالقياس الذي نحصل عليه من خلال هذه الأسانيد ، لكي يتجلى بذلك أنه هل تعتبر هذه الأنواع من الإستنجادات والطلبات عبادة أم لا ؟ وهل تحتسب من أقسام عبادة غير الله أم لا ؟

لقد تناولنا هذا الموضوع بإسهاب في كتاب « أسس التوحيد حسب وجهة نظر القرآن » ، لهذا فلا داع لأن نتطرق إليه ثانية . ويستطيع الراغبون بغية الإستفاضة ، العودة إلى الكتاب الآنف الذكر[1] .

---

(١) أسس التوحيد حسب وجهة نظر القرآن ، ص : ٣٨٠ ـ ٤٩٠ .

ونستطيع أن نقول باختصار ، إن ما تم إثباته بجلاء ، هو كون أن هذه الأعمال ليست من مصداقيات العبادة ، حيث أن عبادتها هو نوع من الخضوع اللغوي ، وفعل إزاء شخص نؤمن بألوهيته وربوبيته[٢] ، وبالأحرى أن نعتبر طرف السؤال إلهاً سواء كان واقعياً أم خيالياً ، ومن ثم نمتثل أمامه ، وأن نعتبره دوماً عبداً لله والأحوج إليه ، وألّا نتصوره منفصلاً في العمل والفعل .

ففي هذه الحالة لا يعتبر أي نوع من الخضوع سواء كان لفظياً أو عملياً ، عبادة . وإن لم يعتبر عبادة ، فهل هو مفيد أم لا ؟ جائز أم حرام . . . وهذا موضوع آخر سوف نتطرق إليه خلال هذه الدراسة .

٢ ـ وإن ثبت كون إن هذا النوع من الأعمال ليس من أقسام عبادة غير الله ، حينها يبقى متسعاً للحديث ، ويتوجب تقصي حقيقة ، هل أن هذه الأعمال جائزة في الشرع (رغم أنها ليست عبادة غير الله) أم لا ؟

فقد يحتمل أن لا يعتبر عبادة غير الله ، بيد أنه يحرم كبدعة ، وذلك لأسباب وعوامل معينة .

إن ما نتطرق إليه في هذه الدراسة يتعلق بتحليل المواضيع الخمسة ، انطلاقاً من خلال وجهة النظر الثانية ، وهل أن القيام بأعمال كهذه مشروع وجائز أم لا ؟ ولو افترضنا أنه مشروع ، فهل هو محدود ومفيد أم لا ؟!

قارئي العزيز ، إنك سوف تتلمس في هذا الكتاب الذي يستريح

---

(١) العبادة هو الخضوع لشيء على أنه إله أو رب .

بين أناملك ، مشروعية هذه الأمور وفي فصول خمسة ، وإن نصوص القرآن الكريم والسّنة النبوية الشريفة ، سوف تجليان كون أن الإسلام اعتبر ذلك أمراً مفيداً ونافعاً . ومن الله التوفيق .

جعفر السبحاني

٢٠ جمادي الآخر ١٤٠٣



القسم الأول

الإستعانة بأولياء الله تعالى
أو طلب الدعاء والحاجة

إنّ مسألة طلب شيء ما من « أولياء الله تعالى » تتم بأشكال مختلفة ، نشير إليها فيما يلي :

١ ـ أن نسأل الإنسان الحي بأن يعيننا في تشييد دار ، أو أن يسقينا من إناء الماء الذي في متناول يديه .

٢ ـ أن نسأل الإنسان الحي بأن يدعو الله تبارك وتعالى ، ويستغفره لنا .

إن هاتين الصورتين تشتركان معاً ، في أن المطلوب هو أمر طبيعي ، والمطلوب منه قادر على تحقيقه ، بيد أن الإختلاف بينهما يكمن في أن الطلب الأول يتعلق بأمور الدنيا ، والثاني يتعلق بالأمور الدينية بالآخرة .

٣ ـ أن نسأل الإنسان الحي بأن يقوم بعملٍ ، بدون الإستعانة بالوسائل المادّية ، له ، كأن نطلب منه ، مثلاً ، أنْ يشفي مريضاً بدون دواء ، أو أن يسترد الشيء المفقود بدون البحث عنه ، أو أداء الدَّين بدون العمل على تحصيل المال .

وبالأحرى ، أن نطلب منه القيام بهذه الأعمال عبر المعجزة أو الكرامة ، من دون أن يستعين بالأسباب المادّية والطبيعية .

٤ ـ أن نسأل الإنسان الميت بأن يدعو الله سبحانه لنا ، ويتأتى الطلب من كون هذا الإنسان ـ برأينا ـ حيٌّ يرزق في عالم الآخرة .

٥ ـ أن نسأل الإنسان بأن يستعين بقدرة الله تعالى ، التي منحه إيّاها ، على شفاء مريضنا أو إعادة مفقودنا ، أو غير ذلك .

وهاتان الصورتان هما كالصورة الثانية والثالثة ، بيد إن الإختلاف بينهما يكمن في أن الطلب هناك كان من الإنسان الحي في عالم المادَّة والطبيعة ، وهنا من الإنسان الميّت في الظاهر ، والحيّ في واقع الحال .

وعلى هذا ، فلا يمكن أن نطلب من الميّت بأن يعيننا في الشؤون المادية ، من خلال الوسائل والعوامل المادية ، وذلك لأن المفروض هو انقطاع الميّت عن عالَم الماديّات، وذلك بارتحاله من هذه الدنيا .

وبناءً على هذا ، فإن المحصلة هي خمسة أقسام من الإستعانة ، ثلاثة منها تختص بالإنسان الحي في عالم الماديات ، وتتعلق في صورتين أخريين ، بالإنسان الحي في العالم الآخر .

وإليك ، عزيزي القارىء ، دراسة الأقسام الخمسة :

الصورة الأولى :

تشكل الإستعانة بالأحياء في الأمور العادية ، التي تخطى

بالوسائل الطبيعية والعادية ، الحجر الأساسي للتمدن البشري ، حيث أن حياة الإنسان في هذا العالم المترامي الأطراف ، مبنية على أساس التعاون ، وإن العقلاء جميعاً في هذا العالم يتعاونون لأمورهم الحيوية .

إن حكم هذه الصورة واضح جداً ، لدرجة أنه لم يلتبس فيه أحد أبداً ، ولم يعترض عليه أي إنسان . وبما أنّ بحثنا قائم على ضوء القرآن الكريم والأحاديث ، فإننا نعالج هذه المسألة من الزاوية القرآنية ، ونكتفي بآية واحدة .

فعندما أراد « ذو القرنين » أن يبني سَدّاً يحول دون هجوم « يأجوج » و« مأجوج » ، إلتفت إلى سكان المنطقة وقال :

﴿ فأعينوني بقُوَّةٍ أجعَل بينَكُم وبينهم رَدماً ﴾[1] .

الصورة الثانية :

طلب الدعاء بالخير ، أو طلب المغفرة من الأحياء في عالم المادة :

تعتبر الإستعانة بالإنسان الحي ، للدعاء إلى الله تبارك وتعالى بالخير والإستغفار منه ، من الضرورات الواضحة التي لا يختلف فيها إثنان ، ويؤكد القرآن الكريم على ذلك في موارد عدة ، وإن الرجوع إلى الآيات البينات يثبت لنا ، أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كانوا يدعون

---

(١) سورة الكهف : الآية ٩٥ .

لأممهم بالخير والهداية والإرشاد ، أو أن الأمم نفسها كانت تطلب من أنبيائها الدعاء لها بالمغفرة والخير .

والآيات كثيرة ، ارتأينا لتسهيل الموضوع ترقيمها ومن ثم طرحها ، كالتالي :

١ ـ يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم تارة ، أن يستغفر لأمته ، فيقول :

﴿ فَاعفُ عنهُم واسْتَغفِرْ لَهُمْ وشاوِرهُم في الأمْرِ ﴾[1] .

﴿ فَبايِعهُنَّ واستَغْفِر لَهُنَّ الله إنَّ الله غَفُورٌ رَحيمٌ ﴾[2] .

﴿ خُذْ مِنْ أموالِهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكيهِمْ بها ، وَصَلِّ عَلَيهِم ، إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَالله سَميعٌ عَليمٌ ﴾[3] .

ويأمر الله تعالى في هذه الآية الأخيرة ، نبيّه محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالدعاء لهم ، ويبعث دعاءه السكينة والطمأنينة في قرارة أنفسهم .

٢ ـ وكان الأنبياء تارة يعدون المذنبين بالإستغفار لهم في الظروف الخاصة المناسبة ، فمثلاً يقول تعالى :

﴿ إلاّ قَوْلَ إبراهيمَ لأبيهِ لاستَغفِرَنَّ لَكَ ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٨ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية ١٢ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١٠٣ .

(٤) سورة الممتحنة : الآية ٤ .

﴿ سَأستغفِرُ لَكَ رَبّي إنَّهُ كان بي حَفِيّاً ﴾[1] .

﴿ وَما كـانَ استغفـارُ إبـراهيمَ لأبيـهِ إلاّ عَن مَـوعِـدَة وَعَـدَهـا إيَّاهُ ﴾[2] .

إن هـذه الآيات الشـريفة تحكي عن أن الأنبيـاء كانـوا يبشّرون المـذنبين بالإستغفـار ، حتى أن النبيّ إبراهيم ـ عليـه السـلام ـ وَعَـدَ « آزر » بالإستغفار له ، بيد أنه حينما رآه مصراً على عبادة الأوثان عَدَلَ عن وعده ، لأنَ من شروط استجابة الدعاء أن يكون المدعوّ له مؤمنـاً بالله تبارك وتعالى .

٣ ـ وقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين المذنبين بالإمتثـال أمام رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وطلب الإستغفار لهم منه ، لأن الله يغفـر لهم ببركـة استغفار النبيّ لهم ، يقـول سبحـانـه في كتـابـه الكريم :

﴿ وَلَو أنَّهم إذ ظَلَموا أنفُسَهُمْ جاؤُكَ فاستَغفروا الله واستَغفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله توّاباً رَحيماً ﴾[3] .

فأيَّةُ آيةٍ أوضح من هذه الآية الشريفة التي يأمر الله سبحانه فيها المذنبين من هذه الأمة ، بالإمتثال أمام الرسول الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ومسألة الإستغفار منه لهم ؟

---

(١) سورة مريم : الآية ٤٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ٦٤ .

إن المجيء إلى رسـول الله وطلب الإستغفار منـه له فـائـدتـان اثنتان :

أ ـ إن طلب المغفرة من الرسول الأكرم (ص) يبعث في الإنسان روح الطاعة والإنقياد لرسـول الله ـ صلى الله عليه وآلـه وسلّم ـ وذلك بالإنتباه والتوجه إلى عظمة النبي ووجاهته عنـد الله تعالى ، بحيث أن استغفاره له يوجب مغفرة الله له .

وبشكـل عام ، فـإن الحضور عنـد النبي وطلب الإستغفار منـه يوجب الخضوع له ، ويُهيّىء الإنسان ذاتياً لأن يعمل وفق قوله تعالى :

﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرَّسُولَ ﴾[1] .

ب ـ إن هذا العمل يجسد في الأذهان منزلة الرسول ـ صلى الله عليـه وآله وسلم ـ ومكـانته بشكـل جيـد لـدى الأمّـة ، ويبيّن لهم أن الأفياض المادية كما أنها متوقفة على أسباب وعوامل طبيعية ، وكذلك فإن الأفياض المعنوية ، والتي هي مغفرة الله لعباده ، تأتي عبر عوامل معينـة ، مثل دعـاء النبي وابتهـال أحبـاء العتبـة الإلهيـة المقـدسـة ، للإنسان .

وإذا كانت الشمس منبعاً للإضاءة والطاقة والحـرارة ، وإن هذه الخيـرات تصل عبـاد الله بسببها ، فـإن الأفيـاض الإلهيـة والخيـرات الـربانيـة تنزل على عبـاد الله بسبب شمس النبوّة السـاطعـة وتشملهم بالخير والرحمة .

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

إن عالم الوجود هو عالم الأسباب والمسبّبات ، وإن الخيرات المادية والمعنوية تأتي عبر الأسباب المناسبة لها .

٤ ـ يستنتج من خلال طائفة عن الآيات الكريمة ، أن المسلمين كانوا يزورون رسول الله (ص) دوماً ويسألونه الدعاء والإستغفار لهم ، ولمّا اقترح المسلمون على المنافقين بالحضور عند النبي الكريم وطلب الدعاء والإستغفار منه ، أبوا عن ذلك ، كما يقول سبحانه :

﴿ وإذا قيلَ لَهُم تعالوا يستغفِر لكُم رسُولُ الله لوَّوا رُؤُسَهُم ورأيتَهُم يَصُدُّونَ وَهُم مُستكبِرُونَ ﴾[1] .

٥ ـ وتصرح بعض الآيات الكريمة ، أن الناس المستلهمين من الفطرة الطاهرة كانوا يدركون بأنّ لدعاء النبي تأثيراً خاصاً لهم ، وأن الله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءهم بلا تردد ، ولهذا كانوا يسألونه الدعاء والإستغفار لهم من الله تبارك وتعالى .

إنّ الناس كانوا يستلهمون من فطرتهم السليمة أن الفيض الإلهي والرحمة الربانية تدّر عبر دعاء الأنبياء ، كما أن هداية الناس وإرشادهم يتمّ عبرهم ، ولهذا كانوا يقصدونهم ويسألون منهم الإستغفار ، كما جاء في القرآن الكريم ـ في قصة إخوة يوسف بعد أن وقفوا على خطأهم وسوء تصرّفهم بالنسبة إلى أخيهم يوسف ـ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قالوا يا أبانا استَغفِر لنا ذنوبنا إنّا كنا خاطئين ، قالَ سوفَ أستغفِرُ لَكُم رَبّي إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحيمُ ﴾[2] .

---

(١) سورة المنافقون : الآية ٥ .

(٢) سورة يوسف : الأيتان ٩٧ و ٩٨ .

يلاحظ تارة ، أن فئة لا تتمتع في البحوث المتعلقة بولاية الرسل والائمة المعصومين ، بخطوات راسخة وسديدة ، تستهويها في بعض الأحيان ما يكتبه « الوهابيون » فتقول :

« إن أولاد يعقوب قاموا دون ريب بإيذائه وإعناته ، وعذَّبوا باله بسبب يوسف وأخاه بنيامين . والآن يرومون أن يغفر عنهم والدهم ، ومن ثم يتضرع إلى الله ليغفر لهم . . . » .

ثم يشير الكاتب المذكور إلى الآيات ٦٤ من « سورة النساء » و« سورة المنافقون » ويستنتج ما مفاده :

« يُستنتج من هذه الآية وأمثالها من الآيات ، إن كل من يرتكب إثماً لا مناص عليه من الإمتثال أمام الرسول وأن يعترف بإثمه ، وأن يتضرع إلى الله بأدمة الرسول أن يغفره ، بل أن هذه الآيات في مواقع أخرى تبيِّن أن المذنبين أنفسهم قد أجحفوا بحق الرسول ، ويطلبون منه أن يغض النظر عن خطيئتهم ، ومن ثم أن يطلب من الله المغفرة لهم »[1] .

فليس لهذا الكلام أساس من الصحة ، لأن :

أولاً : إن موضوع البحث في الآية هو حق الله وليس حق الرسول ومصطلح « حق الله » هو المطروح وليس « حق الناس » . صحيح أن أبناء يعقوب كانوا قد ظلموا أباهم ، والمنافقون كانوا قد ظلموا النبي ، بيد أن ظلم الأبناء ليعقوب ، أو المنافقون للنبي (ص) ، ليس وارداً في هذه الآية أبداً .

(١) التفسير لآيات القرآن الصعبة ، الصفحة ١٩٦ .

ورغم أن لظلم هؤلاء بحق يعقوب والنبي صحة ، بيد أن الآية لا تشير إلى أمر كهذا ، ولا يجوز لدى تحليل الآية إلحاق أي واقع كان بالآية ، حتى ولو لم تكن له أدنى صلة بها .

فأعطوا الآيات موضع البحث ، متضلع بالعربية ملم بالقرآن الكريم ، فسترون بأم أعينكم أنه يقول : « استغفر » أن يكون للنبي تأثيراً في كسب مغفرة الله ، وعلى هذا الأساس يأمر القرآن بالإمتثال أمام النبي من أجل الحصول على مغفرة الله ، وطلب المغفرة منه . والمدهش هو أن الكاتب ذاته يقول :

« أن الإستغفار في الآية ٩٧ من سورة يوسف (وتلك الآية من سورة النساء والمنافقون) هو وقف على حق الناس » .

فيجب الإستفسار من هذا الكاتب ، إنه إذا كانت هذه الآية متعلقة بـ « حق الناس » ، فلماذا استخدم عبارة « الإستغفار » يا ترى ؟ يعني ، لو كان المقصود هو أن يغض الرسول النظر عن حقه ويغفر لهؤلاء ، فلماذا يقولون إذن : « إستغفر لنا » ؟ في الوقت الذي يجب أن يقولوا في « سورة المنافقون » : « إغفر لنا » و « واعف عنا » وبدلاً من عبارة « يستغفر لكم رسول الله » يجب قول : « يغفر لكم » ، وكذلك الأمر في « سورة النساء » فبدلاً من عبارة « واستغفر لهم الرسول » يجب قول « وغَفَرَ لهم الرسولُ » . ناهيك عن ذلك ، فلقد قالوا منذ القدم أنه ليس في الأمر شيئاً خاصاً . لنفترض أن الآيات المذكورة وردت في حالة أن « حق الناس » موجود كذلك إلى جانب « حق الله » ، ويكون دعاء النبي أساساً لمغفرة هؤلاء من كلا الحقين . ولنفترض الآن حالة يكون فيها « حق الله » فقط مطروحاً ، وليس مقروناً

بـ « حق الناس » ، فهل يعتقد أحد أن دعاء النبي في هذه الحالة ليس مؤثراً ، وألّا يجب على المسلمين بعد أن يطلبوا من الرسول في هـذا الصدد المغفرة ؟ كلا . لا يفهم ذلك التجديد أبداً ، بل يجب بسبب خفة الإثم أن يكون دعاءه مؤثراً بالدرجة الأولى .

إن الكاتب ومن أجل إضعاف المعنى المشهور الـذي لا يتلاءم مـع ذوقـه ، أضـاف عبـارة ، وهي « أن يمتثلوا أمـام النبي ويعتـرفـوا بخطاياهم » . إن الهدف من إضافـة هذه العبـارة هو أنـه يروم تشبيـه فحوى الآية المعروف كمثل مغفرة البابوات ، في الوقت الذي لم يقل أحـد أنـه يجب على المسلم أن يعتـرف أمـام الـرسـول بخـطايـاه ، وخصائله ، بل يكفيـه أن يقول : أيهـا النبي إطلب لي المغفرة ، ولا صلة لطلب كهذا بمغفـرة جهاز « الكـاثوليـك » ، وقد تحـدثنا انتقـاداً لنـظريـة الكـاتب في كتـاب « التفسيـر الصحيـح لآيـات القـرآن الصعبة »[1] .

يستنتج من الآيات الكريمة التي تصرح بأن الناس كانوا يمتثلون أمـام رسول الله ـ صلّى الله عليـه وآلـه وسلم ـ وكـانـوا يـطلبـون منـه المغفرة ، بدافع الفطرة الزكية ، كما يقول تعالى في كتابه الكريم :

﴿ سيقول لك المخلفـون من الأعراب شغلتنـا أموالنـا وأهلونا فاستغفر لنا ﴾[2] .

فلم يطرح في هذه الآية الشريفة غير « الحق الإلهي » وحتى أننا

---

(١) التفسير الصحيح لآيات القرآن الصعبة ، ص : ٥٠ ـ ٦٠ .

(٢) سورة الفتح : الآية ١١ .

لا نملك دليــلاً على أن فئــة ابن الجهــاد قــد اجحفت بحق النبي الأكرم (ص) ، لكي يقال : إن المقصود هو أن يغض النبي النظر عن خطايا هؤلاء .

٦ ـ هناك آيات كريمة يُحذّر الله تعالى نبيَّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من الـدعاء والإستغفـار للمنافقين الـذين لا زالـوا على عبـادة الأوثـان ، وذلك لأن عبـادتهم لغير الله تعـالي يحـول دون مغفـرة الله لهم ، حتى لو استغفر لهم النبي الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ممّـا يدلّ عـلى أن استغفـار النبي نـافـذ ومؤثـر إلاّ لمن يعكف عـلى عبـادة الأصنام ، لأن عبادة الأصنام مانعة من الإستجابة ، فَمثَل استغفار النبيّ لهم كمثل الماء الـزلال الذي يهـطل على الأرض الصلبة المـانعة من نفوذ الماء فيها ، يقول تعالى :

﴿ إن تَستَغفِر لَهُم سَبعينَ مرَّةً فَلَن يَغفِر الله لَهُمْ ﴾[1] .

﴿ سَواءٌ عَلَيهِم أستغفَرتَ لَهُم أم لَمْ تَستَغفِر لَهُم ، لَن يَغفِرَ الله لَهُم ﴾[2] .

﴿ وَلمّا وَقَعَ عَلَيهِم الرِجزُ قالُوا يا مُوسى ادعُ لَنـا ربَّكَ بِما عَهِـدَ عِنْـدَك ، لَئِن كَشَفتَ عَنّـا الـرِجـزَ لنُؤمنَنَّ لَـكَ ولنُـرسِلَنَّ مَعَـكَ بَني إسرائيلَ ﴾[3] .

إن المذنبين سألـوا النبي موسى ـ عليـه السلام ـ الـدعاء لهم ،

---

(١) سورة التوبة : الآية ٨٠ .

(٢) سورة المنافقون : الآية ٦ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٣٤ .

وتدلُّ جملة ﴿ بما عَهِدَ عندكَ ﴾ على أنهم كانوا يعلمون بأن الله تبارك وتعالى عهداً مع موسى .

أمّا قوله تعالى : ﴿ ادعُ لنا ربَّك ﴾ ففيه احتمالان :

الأول : أن يكون طلب الدعاء لكشف العذاب عنهم عن طريق المعجزة ، وذلك بإيمانهم بقدرة النبيّ موسى ـ عليه السلام ـ على ذلك ، بالإستعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ومع صحة هذا الإحتمال ، فإن هذه الآية تدخل في البحث عن الصورة الثالثة ، وهي الإستعانة بالإنسان الحي للقيام بعمل إعجازي خارق للعوامل المادية .

الثاني : أن يكون طلب مجرَّد الدعاء لكشف العذاب ، لا المعجزة وخرق العادة .

والظاهر هو الإحتمال الثاني ، لأن المفهوم من جملة ﴿ ادعُ لنا ربَّك ﴾ هو مجرَّد الدعاء لكشف العذاب .

نعم ، ليس في الآية أية إشارة إلى أن الله سبحانه لا يستجيب دعاء موسى في حق المشركين ، وإنما الإشارة سبقت في آيات أخرى .

٧ ـ يستنتج من بعض الآيات القرآنية بأن بعض المؤمنين كانوا يستغفرون للبعض الآخر ، كما جاء في قوله تبارك وتعالى :

﴿ والَّذينَ جاءُوا مِن بَعدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنا اغفِر لَنا ولإخوانِنا الَّذينَ سَبَقُونا بالإيمانِ ﴾[١] .

---

(١) سورة الحشر : الآية ١٠ .

إن هؤلاء لا يـدعون للمؤمنين فقط ، بـل إلى أولئـك المؤمنين المستغفرين فإن حَمَلة العرش يستغفرون للمؤمنين أيضاً ، كما في قوله تعالى :

﴿ الَّـذينَ يَحمِلُونَ العَرشَ وَمَن حَـولَـهُ يُسَبِّحُـونَ بحَمـدِ رَبِّهِم ويُؤمِنونَ بِهِ ويَستَغفِرُونَ للَّذينَ آمَنُوا ، رَبَّنـا وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رحمـةً وعِلمـاً ، فَـاغفِـرْ للَّذينَ تـابُـوا واتَّبعُـوا سَبيلَكَ وَقِهِـمْ عَـذَابَ الجحيم ﴾[1] .

واستناداً على هذا ، فما أروع أن نحذوا نحن أيضاً حذو هؤلاء في هذه السيرة المرضيّة لله تعالى ، ونستغفر الله للمذنبين .

إلى هنا تمّ البحث عن الصورة الأولى والثانية من الصور الخمسة في طلب الحاجة من غير الله سبحانـه وتعالى . . . وإليـك ـ عزيـزي القارىء ـ البحث الذي يتجسد في :

الصورة الثالثة :

وهي أن نـطلب الإستعـانـة من الإنسـان الحيّ ، القـادر على المعجـزة وخـرق العـادة ، من أجـل تنفيـذ عمـلٍ مـا ، عن طـريق الإعجاز ، دون اللجوء إلى الوسائل المادية ، كشفاء المريض وتفجير الماء من عين يابسة ، وما شابه ذلك .

تعزي مجموعة من الكتّاب الإسلاميين الأفاضل ، هذه الصورة ـ من الإستعانة ـ داخلة في الصورة الثانية ، وتقول : إن المقصود من

---

(١) سورة المؤمن : الآية ٧ .

المعجزة هو أن يسأل الإنسان ربّه بأن يشفي مريضه أو يُسدِّد ديونه وغير ذلك ، لأن هذه الأفعال خاصّة بالله تعالى ، وما دعاء النبيّ والإمام إلّا وسيلة إلى الله تعالى ، ولهذا فإن نسبة هذه الأفعال إلى النبي والإمام هو من باب المجاز لا الحقيقة[1] .

بيد أنه ، هناك في القرآن الكريم آيات تدّل بوضوح على أن طلب هذه الحوائج من الأنبياء والأولياء أمرٌ صحيحٌ وليس مجازاً ، فإننا إذ نطلب من المعصوم نفسه ، القادر على المعجزة ، بأن يشفي المريض ، الذي تعذر علاجه ، فإن ذلك يتحقق بحول الله وقوّته .

صحيح أن القرآن الكريم يعزي الشفاء إلى الله سبحانه وتعالى ، ويعتبره من اختصاصه ، حيث يقول :

﴿ وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشفينِ ﴾[2] .

بيد أن آيات أخرى من القرآن الكريم ، تعزي الشفاء إلى القرآن والعسل أيضاً ، فتقول :

﴿ يَخرُجُ من بُطُونِها شَرابٌ مختلِفُ ألوانُهُ ، فيه شِفاءٌ لِلنّاس ﴾[3] .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحمَةٌ للمؤمنينَ ﴾[4] .

---

(١) كشف الإرتياب : الصفحة ٢٧٤ . إن هذا الكلام مطروح في قسم « طلب الحاجة من الأرواح المقدسة » وستكون له بالطبع ، نفس وجهة النظر حول الأحياء أيضاً .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٨٠ .

(٣) سورة النحل : الآية ٦٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٨٢ .

﴿ قد جاءَتكُم مَوعِظةٌ مِن رَبِّكُم وشِفاءٌ لِما في الصُدُورِ ﴾[1] .

إن الأرضية المشتركة بين هاتين الطائفتين من الآيات الكريمة ، التي تجعل الشفاء من اختصاص الله تعالى ، وتثبته للقرآن والعسل والمواعظ الإلّهية ، هو أن الله سبحانه مؤثر في الأشياء بالإستقلال ، ومعتمدٌ على ذاته المقدسة في الأمور كُلِّها ، بينما العسل والقرآن والمواعظ الإلّهية تترك تأثيرها في الأشياء بإذن الله وإرادته سبحانه .

إن النظرة الإسلامية إلى الكون والحياة ، تعتبر جميع العوامل والمؤثرات تابعة لإرادة الله وقادرة على التأثير بإذنه سبحانه ، وأن العلل والأسباب لا تملك أدنى إستقلال لها أبداً من دون فرق بين الأسباب الطبيعية والروحية .

وعلى هذا الأساس فلا مانع ـ على ضوء القرآن والعقل ـ أن يمنح الله سبحانه وتعالى ـ الذي جعل الشفاء في العسل والعقاقير الطبية والكيميائية ، مِراساً للشفاء والسلامة ، أن يمنح نفس تلك القدرة للأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ .

أنظر إلى المرتاضين ، فكيف يتمكنون من القيام ببعض الأعمال الغريبة ؟ وما المانع من أن يتفضّل الله تعالى على الأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ بقدرة الإشفاء ، ويجعلهم قادرين على القيام بأعمال محيِّرة للعقول وخارقة للأسباب المادية والطبيعية ؟!...

إن قدرة الأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ على شفاء المريض

---

(١) سورة يونس : الآية ٥٧ .

والقيام بأعمال خارقة للعادة لا تنافي أن يكون الله جلّ جلاله هو السبب الحقيقي والعلة الأساسية لها ، وذلك بأن مَنَحَهم القدرة على الإستحواذ على الكون ـ بإذنه تعالى ـ عندما تقتضي الحاجة والمصلحة .

والجدير بالذكر أن في القرآن الكريم آيات تصرّح بأن الناس كانوا يراجعون الأنبياء ـ وغير الأنبياء أيضاً ـ كي يقوموا بأعمال خارقة للعادة وغير طبيعية[1] .

وإليك نماذج من هذه الآيات :

﴿ وَأوحَينا إلى مُوسى إذ استسقاهُ قَومُهُ أن اضرِب بعَصاكَ الحَجَر ﴾[2] .

يدلّ ظاهر هذه الآية على أن بني إسرائيل طلبوا من النبي موسى ـ عليه السلام ـ في وقت الجفاف وشحة الماء ، أن يهيىء لهم الماء بالطرق الغيبية والمعجزة ، لا بالأسباب المادية الطبيعية .

وترى واضحاً في الآية ، أن بني إسرائيل لم يطلبوا من النبي موسى ، أن يدعو الله ويسأله توفر الماء ، بل طلبوا منه أن يوفّر لهم الماء فجأة ومن دون سبب مادّي ، ولهذا فقد أمره بأن يضرب بعصاه الحجر كي ينفجر منه الماء بطريقة إعجازيّة .

---

(١) للإستزادة في توضيح هذا القسم ، والإستفادة من الآيات القرآنية ، يفضل الرجوع إلى كتاب المؤلف « قدرة الأنبياء المعنوية » . فقد عرضت فيه أسناد من القرآن الكريم عن قدرة هؤلاء الروحية .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٦٠ .

والأوضح من هذه الآية ، هي الآية التي تحكي قصّة النبيّ سليمان ـ عليه السلام ـ عندما طلب من الحاضرين عنده بإحضار عرش بلقيس ، على الرغم من العراقيل والعقبات التي كانت تعترض طريقه . يقول تعالى :

﴿ أيُّكُم يأتيني بِعَرشِها قَبلَ أن يأتوني مُسلِمينَ ﴾[1] .

لقد كان هدف سليمان ـ عليه السلام ـ هو إحضار عرش بلقيس بطريقة غير اعتيادية ، ولقد تحقق ذلك فعلاً عبر فرق الطبيعة ، كما قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

﴿ قالَ الذي عِندَه عِلمٌ من الكتابِ أنا آتيكَ به قبل أن يرتدَّ إليك طَرفُكَ ، فَلَّما رآهُ مُستَقِراً عِندَهُ ﴾[2] .

إن روح الموضوع وبيت القصيد هو تصور البعض بأن الأعمال العادية هي من صلاحيات الإنسان ، وأن الأعمال الإستثنائية ـ التي يعجز الناس منها عادة ـ خاصة بالله سبحانه وتعالى ، وهذا هو الخطأ ، لأن المقياس في تمييز أفعال الله عن غيره هو الإستقلال وعدم الإستقلال فيها .

إن الأعمال الإلّهية هي التي ينفذها الفاعل ـ وهو الله ـ دون تدخّل الغير فيها ودون الإستعانة بقدرة الآخرين .

وبعبارة أخرى ، فإن الأعمال الإلّهية هي التي يكون الفاعل مستقلاً تماماً في تنفيذها ، ولا يحتاج إلى الغير في إنجازها أبداً .

---

(١) سورة النمل : الآية ٣٨ .

(٢) سورة النمل : الآية ٤٠ .

أما الأعمال غير الإلهية ـ سواء كانت بسيطة وعادية أو صعبة وغير عادية ـ فهي التي لا يكون الفاعل مستقلاً في تنفيذها ، بل يتمّ التنفيذ تحت ظل قدرة مستقلة وبالإستمداد منها ، وهي قدرة الله تعالى .

بناءً على هذا فليس هناك أي مانع من أن يتفضل الله على أوليائه بالقدرة على إنجاز الأعمال الخارقة للعادة والطبيعة ، والتي يعجز الإنسان عادة عن القيام بها .

يقول الله تعالى في كتابه الكريم ، للنبي عيسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ تُبرِىءُ الأكمَهَ والأبرَصَ بإذني ، وإذ تُخرِجُ المَوتى بإذني ﴾[1] .

فما أصرح هذه الآية في الدلالة على الموضوع !

إن هذه الطائفة من الآيات تدل على أن أولياء الله كانوا يتمتعون بهذه القدرة ، وإنّ طلب الناس منهم القيام بالأعمال الإستثنائية والإعجازية كان أمراً متداولاً ومعروفاً .

لقد تحدثنا ـ أيها القارىء العزيز ـ إلى الآن عن الصور الثلاث للإستعانة بأولياء الله في حياتهم ، على ضوء القرآن الكريم ، وقد عرفتَ بأن القرآن يُصرّح بصحة تلك الصوَر ويؤكد عليها في آيات متعدّدة .

أما التحدث عن الصورتين الأخيرتين اللّتين تتعلقان بالإستعانة

---

(١) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

بالأرواح المقدسة ، فسيأتيك من خلال الصورتين الرابعة والخامسة .

الصورة الرابعة والخامسة :

إن مسألة الإستعانة بأولياء الله ـ بعد وفاتهم وغيابهم عن هذه الحياة المادية ـ هي أهم مسألة في بحث الإستعانة بأولياء الله ، ولا فرق بين أن تكون الإستعانة بصورة الدعاء أو طلب المعجزة .

أما السبب في أهمية هذه المسألة ، عن التي سبقتها ، فهو لأن المسلمين اليوم ليسوا في محضر نبي أو إمام كي يستعينوا به بصورة مباشرة ، ولهذا فهم يستعينون بأرواحهم المقدّسة .

من هنا كان هذا البحث أكثر أهمية من الذي سبقه .

إن البحث في هذا الموضوع يتوقف على التحدث عن أربعة أمور ، ومن خلال التحدث عنها والإطلاع عليها تعرف جيداً صحة الإستعانة والإستغاثة بالأرواح المقدسة ، وتشتمل هذه الأمور الأربعة على :

١ ـ موت الإنسان لا يعني فناءه .

٢ ـ القرآن الكريم وجواز الإتصال بعالم الأرواح .

٣ ـ حقيقة الإنسان هي روحه .

٤ ـ الإحاديث الصحيحة التي رواها المحدِّثون ، وهي تنادي بصحة الإستعانة بأولياء الله ، وأن سيرة المسلمين كانت تجري على هذه الشاكلة .

وإليك عزيزي القارىء شرحاً لهذه الأمور الأربعة :

موت الإنسان لا يعني فناءه :

تصرح الآيات القرانية بوضوح على أن الموت ليس هو نهاية الحياة ، بل هو نافذة لحياة جديدة ، وإن الإنسان باجتيازه هذا المعبر ، فإنه يخطو صوب حياة جديدة وعالم حديث تماماً ، أسمى من عالم المادة والطبيعة .

إنّ كلّ من يعتقد بأن الموت فناء وعَدَم ، وإن الإنسان يفقد كل شيء بالموت ولا يبقى منه أثر ، سوى جسد لا روح فيه ثم يتحول ذلك الجسد ، بعد فترة من الزمن ، إلى التراب والعناصر الأخرى . إن كل من يعتقد هذا الإعتقاد فهو ، في الحقيقة ، يُقلّد الفلسفة المادية ، القائمة على إنكار ما وراء المادة ، تقليداً لا شعورياً .

إن أصحاب هذه النظرية لا يعتبرون الحياة إلاّ نتيجة مادية لسلسلة تفاعلات كيميائية وعمليات فيزياوية تحصل في المخ والأعصاب ، وعندما يفقد الجسم حرارته وتتوقف الخلايا عن الحركة والإنتاج ، تتوقف حياة الإنسان أيضاً ويتحوّل إلى جسد جامد هامد لا حراك فيه .

وتذهب هذه النظرية إلى أن الروح ليس إلاّ انعكاساً للمادة وآثارها وخواصها ، ومع فقدان هذه الآثار والخواص تبطل الروح وتفنى تبعاً للمادة .

ولهذا ، فإن هؤلاء لا يعتقدون بوجود عالم آخر بإسم عالم الأرواح .

إن نظرية كهذه تستلهم أفكارها من « الفلسفة المادية » التي تعتبر الإنسان ماكنة مركبة من قِطَع وأجزاء مختلفة ، وإن تأثير هذه

الأجزاء على بعضها يولّد قـدرة التفكير والإستيعـاب في المخ ، فـإذا تعثرت هذه الأجزاء انعدمت آثار التفكير وتفنى الحياة فناءً كاملاً .

إنّ كبـار الفلاسفـة والعلماء الإلهيين يُفنـدّون تمـامـاً نـظريـات الماديين حول الـروح ويقولـون بأن لـلإنسان ، بـالإضافـة إلى النظام المادي الحاكم في جسمه ، والتفاعلات المتبادلة وسلسلة الأعصاب ، جوهراً أصيلاً اسمه « الروح » ، وهذا الجـوهر يـلازم البدن فتـرة من الزمن ثم ينفصل عنه ويُحلّق في عالم آخـر اسمه « البـرزخ » ليلتحق بجسم لطيف هناك .

إن التحدث عن بقاء الروح بعد الموت يستدعي كتـابـاً مستقـلاً حـوله ، ولا يمكن البحث عنـه ، بـالتفصيـل ، في هـذه الصفحـات المعـدودات ، وذلك لأن الآيـات القرآنيـة والأدلة الفلسفيـة وتجـارب الـروحيين الثابتـة قد بـرهنت اليوم على بقـاء الـروح الإنسـانيـة بعـد الموت .

لقد ورد موضوع خلود الأرواح بعد الموت في الفلسفة الإسلامية وبصورة مسألة ثابتـة [لا جدال فيهـا] ، ولكل من الفـلاسفة الأفـذاذ أمثال الرئيس والشيخ الأشراق وصدر المتألهين ، دراســات عميقة في هذا المجال ، وقد وضع هؤلاء الحجر الأساس لمـوضوع خلود روح الإنسان بعد الموت[١] .

إحتدمت في نهضات الغرب الأخيرة الحمّى المادية ، ووضعت

---

(١) لقد وردتْ أدلة انفصال الروح والنفس الإنسـانية في كتـاب « النظرة الإسـلامية إلى الكون » بشكل مكثف .

مسائل ما وراء الطبيعة مثل الله ، والملائكة ، والروح المجردة ، وعوالم غيبية أخرى موضع الظن والشك ، بيد أن الصفحة انقلبت تماماً منذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر ، وبظهور علم « إحضار الأرواح » [spiritism] والإتصال بالأرواح بصورة مختلفة ، خفّ التبجح المادي تماماً ، وظهرت في مستهل القرن العشرين مسألة خلود الأرواح وعلاقتها بذلك بشكل مسألة حسية ، وأعدّ النفسيون بتجاربهم الواسعة وأمام مجاميع من الشخصيات العلمية الكبيرة في ذلك الزمن ، مسألة أصالة الروح في عداد الحقائق ، وتخلت مجاميع كبيرة عن آرائها القديمة والتحقت بصفوف النفسيين . ومن حسن الحظ أنه حررت في هذا المجال كتباً كثيرة ، ويتمكن الراغبون الرجوع إلى الكتب المتعلقة بـ« علم إحضار الأرواح »[spiritism] .

وإننا في هذا الفصل نكتفي بذكر الأدلة القرآنية ، ونتجنب عرض الأدلة الفلسفية .

١ ـ الآيات القرآنية تصرح على بقاء الأرواح

إن الآيات القرانية تصرح بجلاء على بقاء الأرواح بعد انفصالها عن الجسد ، ونورد للتذكير نصوص بعض الآيات الشريفة :

أ ـ ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتٌ ، بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون ﴾[1] .

ب ـ ﴿ ولا تحسبنَّ الَّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٤ .

ربّهم يرزقون ﴾[1] .

﴿ فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم . . . ﴾[2] .

﴿ يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ . . . ﴾[3] .

ج - ﴿ إنّي أمنت بربكم فاسمعون ، قيل ادخل الجنّة ، قال يا ليت قومي يعلمونَ ، بما غفر لي رَبِّي وجعلني من المكرمين . . . ﴾[4] .

إن المقصود من الجنة التي أمر أن يدخل فيها هي الجنة البرزخية لا الجنة الأخروية ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ . إن تمني علماً كهذا لا يجاري عالم الآخرة حيث تزاح الحُجب والسُتر من أمام نظر الإنسان ، ولا تبقى حالة الأناس الآخرين مبهمة على أحد ، وإنما يتلاءم لا علم كهذا مع العالم الدنيوي حيث يجهل أناس هذه « النشأة » عن أحوال أناس « النشأة » الأخرى ، وتصرح الآيات القرآنية بهذا الصدد .

ناهيك عن ذلك ، تتضح من الآيات اللاحقة ، أنه بعد موته

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٧٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٧١ .

(٤) سورة يس : الآيات ٢٥ - ٢٧ .

وغفرانه ودخوله الجنة ، فقد أخمد بـ « صيحة سماوية » واحدة نبراس حياة قومه ، وهنا حيث يقول :

د ـ ﴿ ما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كنا منزلين إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾[1] .

يستنتج من هاتين الآيتين أنه بعد الدخول في الجنة ، كان قومه يعيشون في هذا العالم ، وفجأة داهمهم الموت ، وجنة كهذه لا يمكن أن تكون أكثر من جنة البرزخ .

والفرعونيون تداهمهم النار :

هـ ـ ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ، ادخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ﴾[2] .

استناداً إلى فحوى الايتين ، يتضح بقاء هؤلاء وحياتهم في عالم البرزخ ، لأن : قبل القيامة ، يعرضون للنار غدواً وعشياً ، وبعد أن تقوم القيامة يُدخلون إلى أشد العذاب .

فلو لم يكن ختام الآية ـ ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ ـ لكان غامضاً فحوى الجملة الأولى ، ولكن استناداً إلى ذيل الآية يتضح أن المقصود هو نفس فترة البرزخ ، وإلاّ فلن يكون مقارنة الجملتين صحيحاً .

فضلاً عن هذا ، فإن موضوع الصبح والعصر أيضاً يشهد على أن المقصود ليس عالم القيامة ، لأن في ذلك العالم لا وجود للصبح والعصر .

---

(١) سورة يس : الآيتان ٢٨ و ٢٩ .

(٢) سورة المؤمن : الآية ٤٦ .

و : « دخلت « أمة نوح » بعد الغرق النار » :

﴿ مِمّا خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾[1] .

من الممكن تصور أن دخول هؤلاء النار لكونه كان مؤكداً ، فلهذا أورد بلفظة الماضي ـ « فادخلوا ناراً » ـ ولكن تأويلاً كهذا بدون دليل ليس صحيحاً ويناقض ما هي عليه الآية .

فلو كان هذا مفاد الآية ، لوجب أن يقال « ثم ادخلوا » بدلاً من « فادخِلوا » ، لأن وعلى ضوء هذا يحتمل أن تكون المسافة بين الغرق ودخول النار سنوات متمادية .

وبسبب هذا التأويل ، مجبرون مرة أخرى أن نـأول عبارة « فلم يجدوا » أيضاً والتي تبين الماضي ، وأن نفسر عبر « محقق الوقوع » ، وليس كل هذا التأويل بدون دليل صحيحاً .

٢ ـ القرآن الكريم وجواز الصلة بالأرواح

إن إثبات خلود الروح المجردة من المادة ليس كافياً لتجويز الإستغاثة وكونها مفيدة ، بل لا بدّ بالإضافة إلى خلودها ، جواز أن يثبت وجود العلاقة من وجهة النظر العلمية والقرآنية ، حيث أننا تحدثنا حول ذلك بالتفصيل في كتاب « أصالة الروح » .

والآن نشير هنا بصورة عامة ، على تصريح آيات عدة بأن صلة الإنسان بالقدامى هي باقية ، ولم تنقطع هذه العلاقة لحد الآن .

---

(١) سورة نوح : الآية ٢٥ .

أ ـ النبي صالح (ع) تحدَّث إلى أرواح قومه :

يقول تعالى :

﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربّهم وقالـوا يا صـالح ائتنـا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾[1] .

﴿ فأخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين ﴾[2] .

﴿ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾[3] .

تأمل في فحوى الآيات الثلاثة :

. تتحدث الآية الأولى عن أنهم يوم كانوا أحياء طلبـوا منه عـذاباً إلهياً (العذاب الإلهي الموعود) .

تحكي الآيـة الثـانيـة أن العـذاب الإلهي أخــذهم ، وأبـادهم جميعاً .

تشير الآية الثالثة إلى ما قالـه النبي صالـح ـ عليه السـلام ـ بعد مـوتهم وفنائهم ، حيث تـأسف على المصيـر الأسـود الـذي اختـاروه لأنفسهم ، وقال مخاطباً إياهم :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٧٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٧٨ (في بعض الآيات القرآنية يعزى بسبب فناء هؤلاء صيحة سماوية « سورة هود ، الآيـة ٦ » والبعض الآخر تعـزى ذلك إلى الصـاعقة « سـورة فصلت ، الآية ١٧ » ، وفي هاتين الآيتين أعزيت إلى الزلزلة . بيد أن الآيات تجمع على أن ذلك كان نتيجة صيحة سماوية قوية مرافقة بالصاعقة والهزة الأرضية) .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٧٩ .

لقــد أبلغتكم رســالــة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبــون الناصحين .

إن الوثيقة الدامغة التي تدلّ على أنه هكـذا تحدث معهم بعـد الهلاك ، تشتمل على دليلين اثنين ، هما :

١ ـ تنظيم وتنسيق الآيات بالشكل الذي سبقت الإشارة إليه .

٢ ـ إن حـرف (الفـاء) في كلمــة (فتـولى) التي تــدلّ على الترتيب ، يعني فتولى عنهم بعد هلاكهم ، وقال لهم :

إن عبارة (ولكن لا تحبون الناصحين) تدلّ على أنهم كانوا قد غرقوا في العناد والشقاوة إلى حد أنهم كانوا بعد الموت أيضاً يحملون هذه النفسية الخبيثة ، ولا يحبون أيضاً الناصحين والمرشدين .

أن صراحة القرآن الكريم هي أنه يتحدث مع أرواح أمته وبجد ، ويعتبر هؤلاء طرف الحديث ، وينبىء عن عنادهم الدائم والذي سوف يـرافقهم بعد المـوت أيضــاً ، ويقـول : والآن أيضــاً أنكم لا تحبـون الناصحين .

ب ـ تحـدث النبي شعيب ـ عليه السـلام ـ إلى أرواح قومـه القدامى :

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾[1] .

﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا

(١) سورة الأعراف : الآية ٩١ .

هم الخاسِرِينَ ﴾[1] .

﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربّي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾[2] .

إن طريقة الإستدلال في هذه الآية ، وفي الآيات المتعلقة بصالح هي واحدة .

ج ـ يتحدّث رسول الإسلام (ص) مع أرواح الأنبياء :

﴿ وَسئلَ من أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلنَا أجَعَلْنا من دُونِ الرَّحْمٰن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[3] .

إن مفهوم الآية الشريفة هو أن النبي الأكرم (ص) يستطيع من خلال النشأة الطبيعية نفسها أن يتصل بالأنبياء (ع) الذين يقضون في نشأة أخرى ، لكي يتضح أن أمر الله لكل الأنبياء في جُلّ القرون والعصور كان ألّا يعبدوا غير الله أحداً .

د ـ سلام القرآن الكريم على الأنبياء :

لقد بعث القرآن الكريم للأنبياء في حالات معينة السلام والتحايا . ولم يكن هذا السلام وهذه التحايا أبداً تحايا جافة ومجاملات لا معنى لها أو رسمية .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٩٢ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٩٣ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٤٥ .

إن الزهو ليس من الإنصاف كأن نروم التطبيق السطحي لمعاني القرآن العزيز السامية ليصطبغ بصبغة الإبتذال . صحيح أن ماديي العالم الذين لا يولون الأصالة للروح ، يقدمون التحايا تجليلاً لقادة ومؤسسي المدرسة المادية ويبعثون لهم السلام ، ولكن هل من الصحيح أن نطبق مفاهيم القرآن السامية والتي تبين حقيقة واحدة وواقعاً واحداً ، أن نطبقها بهذا المستوى ، ونقول أن جميع هذه التحايا التي بعثها القرآن للأنبياء ، ونحن المسلمون نتلوها أيضاً صباح مساء ، هي حفنة من مجاملات جافة خالية من المعنى . وهنا حيث يقول :

١ ـ ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾[١] .

٢ ـ ﴿ سلام على إبراهيم ﴾[٢] .

٣ ـ ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾[٣] .

٤ ـ ﴿ سلام على آل ياسين ﴾[٤] .

٥ ـ ﴿ سلام على المرسلين ﴾[٥] .

هـ ـ تحية للنبي الأكرم (ص) في تشهده :

إن جميع المسلمين في العالم ، رغم الفوارق الموجودة في فروعهم الفقهية يخاطبون النبي الجليل (ص) صباحاً ومساءاً ، ويقولون :

(١، ٢، ٣، ٤، ٥) سورة الصافات : الآيات ٧٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠، ١٨١ .

« السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » .

أما الواقع فهو أنَّ الشافعيين والبعض الآخر يعتبرون التشهد ضرورة وواجب ، ويستحبذ ذلك أنصار المذاهب الأخرى . بيد أن الجميع يجمعون على أن النبي الأكرم (ص) هكذا علم المسلمين ، وأن سنة النبي (ص) لا تزال باقية في حياته وبعد مماته .

فإن كانت علاقتنا وصلتنا مقطوعة ومقطومة حقاً مع النبي ، فما معنى تحية كهذه ، وبشكل المخاطبة ؟

في الختام نعيد إلى الأذهان ، أن الإستدلال بالتحية في التشهد اتخذ موضع الدراسة لكونه جاء مبرماً في الآيات[1] .

٣ـ واقع الإنسان هو نفس روحه :

إن الإنسان في النظرة الأولى ، هو مركب من الجسم والروح . بيد أن واقع الإنسان هو نفس الروح المقرون بالجسد .

إننا لا نبحث هذه المسألة من وجهة النظر الفلسفية ، ولا تهمنا في الحقيقة وجهات نظر فلاسفة اليونان والإسلام ، بل إننا نطرح هذا الموضوع حسب رؤية القرآن الكريم .

نستشف من خلال تحليل الآيات الواردة في القرآن بصدد

---

(١) العودة إلى كتاب « تذكرة الفقهاء » ج ١ ، وكتاب « الخلاف » ج ١ ص ٤٧ . لقد نقل التشهد في كتاب « الخلاف » عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن المسعود بعدة أشكال ، بيد أن للجميع حُلنًم سلاماً كهذا . واختارت كل من المذاهب الأربعة شكلاً من أشكال التشهد وافتوا [من الفتوى] على ذلك .

الإنسان ، الحقيقة التـالية وبشكـل جيد : أن واقـع الإنسان هـو عين روحه ونفسه . والآن انظروا ملياً إلى فحوى هذه الآية الكريمة :

﴿ قُـل يتوفـاكم ملك الموت الـذي وكـل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ﴾[١] .

إن كلمة « توفى » على النقيض مما هو معروف ، فهي لا تعني الإماتة ، بـل هي معنى الأخذ والإلتقـاط[٢] . وعلى هذا فـإن فحوى عبارة « يتوفاكم » هو أن : « يأخذكم أنتم » . فكلما كان واقع الإنسان هو عين روحه ونفسـه ، يكون تعبيـر الآية صحيحـاً ، ولكن إذا كانت الـروح والنفس جزء من شخصيـة الإنسان ، وأن يكـون نصفه الآخـر هيكله الخارجي . ففي هذه الحالة لا يكون تعبير كهـذا جائـزاً ، لأن ملاك الموت لا يأخذ أبـداً جسدنـا ومادتنـا الخارجيـة ، بل إنـه يبقى الجسد على حالته ، ويأخذ روحنا فقط .

إن الآيات التي تجلي مكانة الروح والنفس نسبة إلى الإنسان ، ليست وقفاً على هذه الآية ، ونكتفي نحن كنموذج بآية واحدة .

إن هذه الحقيقة كون « أن واقع الإنسان ومركز كمالاته الروحية والمعنوية هو الروح نفسه ، والجسد هو الثوب الذي غلفوه به » تتجلى تماماً آخذين بنظر الإعتبار خلود الروح بعـد الموت والتي هي إحـدى معـارف القرآن . إن القـرآن يعتبر المـوت فناء الإنسـانية وخـاتم حياة

---

(١) سورة السجدة : الآية ١١ .

(٢) للمرحوم « العلامة بلاغي » في مقدمة « تفسير آلاء الرحمان » بحث قيم حـول لفظة « توفي » ، الصفحة ٣٤ .

البشر ، بل إنه يؤمن أن « للشهداء والتقات » و « الجناة » حياة قبل حلول يوم القيامة . « حياة » يرافقها « السعد والسرور » يتخللها « التبشير والبشارة » ، والأخرى يرافقها « العذاب المؤلم » و . . .

فعندما يكون واقع الإنسان هو نفس جسده المتركب من العناصر ، لا شك في أن الجسد يتلاشى بعد بضعة أيام ويتحول إلى عناصر مختلفة ، ففي هذه الصورة سيكون بقاء الإنسان ، أو حياة البرزخ شيئاً لا مفهوماً .

إن نتيجة الآية حيث « الإنسان في الماضي » يمتلك جُلَّ كمالاته وروحياته في ظل خلود الروح ، وبتصديق القرآن يتناول كفافه اليومي ، ويفرَح ويسعد ، ويعطي الأخبار السارة والبشارة ، ويتذكر أقوامه وأصدقائه ، يشعر بالألم والوجع و . . . غيرها[١] .

ومن جهة أخرى لا تتصدع ، بمقتضى الآيات السالفة ، وَصِلتنا وعلاقتنا بهم ، ويمكن التحدث معهم كما لو كان عالم المادة . ففي هذه الحالة ، لماذا يتعذر علينا طلب الدعاء (الصورة الرابعة) من « الإنسان في القِدم » أو ابتغاء الحاجة منه (الصورة الخامسة) ؟ .

إن الفئة التي تقول ، أن أي نوع من الإبتغاء سواء كان دعاءاً أو غيره من الأرواح المقدسة ليس صحيحاً ، لا بد أن تعتمد على إحدى العلل التالية :

أ ـ إن مسألة الدعاء وغير الدعاء من شخص في القديم هو

(١) الآيات المتعلقة بهذه المضامين منقولة في قسم « الإرتباط بالأرواح » . الرجوع إلى كتاب « أصالة الروح » .

شرك ، حيث تجلى لحسن الحظ أن لا أساس لها وذلك بتحديد حقيقة الشرك ، وإن محور البحث في هذه الأطروحة ، هو جهة أخرى غير الشرك .

ب ـ لا حياة بعد الموت ، ولنفرض أنها حسية فَصِلتنا بهم مقطوعة .

إن هذين الإفتراضين أيضاً بمقتضى الآيات القديمة باطلة ولا أساس لها .

ج ـ إن القدرات المعنوية والكمالات الروحية وتكريم واحترام الأنبياء ، هي محصورة بحياة هؤلاء المادية والجسمية ، وبغير هذا فهي فاقدة لكل نوع من الكمال المعنوي والقرب الإلهي .

وهذه الفكرة أيضاً ليس لها أي أساس أو أرضية ، لأنه وبمقتضى نظرة القرآن إلى الكون والبراهين الفلسفية ، فإن روح الإنسان كانت مركز القدرة ومنبع جُلّ الكمالات ، وإن واقع الإنسان هو عين روحه ونفسه ، والجسد هو كالثوب كُسي به هيكله بمقتضى الضرورة ، ومن أجل نمو وتكامل الروح. وإن انفصال الروح عن الجسد ، خاصة روح الأولياء الإلهيين ، هي برهان على تكامل الروح وعدم حاجة الروح إلى الجسد المتركب من العناصر ، وليس أن انفصال الروح عن الجسد ، أساس لإزالة وفناء كمالات هؤلاء الروحية وقواهم المعنوية .

استناداً إلى هذه المقدمات ، فإن ابتغاء الحاجة ومسألة الدعاء وغير الدعاء من الأرواح المقدسة بنفس الشكل الذي يُتخذ في عالم المادة وفي الحياة المتركبة من العناصر ، سوف يكون صحيحاً .

وهابيّ بثوب تجويز التوسل

لا مناص لنا هنا من ذكر هذه النقطة :

نشر « محمد نسيب الرفاعي » مؤسس « الدعوة السلفية » كتاباً تحت عنوان « التوصل إلى حقيقة التوسل » في ٣٥٠ صفحة . هو من أحد مقلدين وعملاء « ابن تيمية الدمشقي » و« محمد بن عبد الوهاب النجدي » الأشدّاء ، ويستفاد من كل قسم من أحاديثهم ، وخاصة أحاديث ابن تيمية ، بيد أنه رام في الظاهر أن يكتب حول مسألة التوسل كتاباً محايداً تماماً ، وأن يحكم من خلال الكتاب والسّنة بين فئتين ، ولكن مع الأسف لم يهدف الكتاب سوى أحياء مدرسة ابن تيمية ، وذلك بشكل تكهني ، لا غير . فرغم أنه يحاول أن يتعامل مع الأمور بهدوء خاطر ، ولكنه بيّن في عدة بحوث روحيته الوهابية ، والتي هي شتائمه ذاتها للمسلمين ، وفرّغ سمومه من خلال سِلاّية قلمه .

لقد قسم التوسل في هذا الكتاب إلى نوعين من التقسيم ، واطلق عليها عنواني : « المشروع » و« الممنوع » . فالتوسلات المشروعة برأيه ، هي عبارة عن :

١ ـ التوسل إلى الله وأسمائه وصفاته .

٢ ـ توسط أي إنسان بأعماله الصالحة التي قام بها طوال حياته .

٣ ـ التوسل بدعاء الأخ المؤمن في حالة الحياة .

فقد استدل هو من أجل جواز التوسل بهذه الموارد الثلاثة من الكتاب والسّنة . ونحن لا تهمنا في الحقيقة توسلاته الممنوعة ، لأننا

سوف نحلل أحاديثه في قسم التوسل . والآن نشير إلى نقطتين من توسلاته المشروعة :

أولاً : لم يشك أي شخص من شعوب العالم أي كان دينه ومذهبه ، ولم يتردد في التوسل بالله وأسمائه وصفاته ، حيث أنه خصص فصلاً لكل من هذه الموارد ، واستدل على جوازها من القرآن والسّنة . إن الوازع الديني واهتمام الإنسان بعالم ما وراء الطبيعة هي مسألة فطرية ، والإنسان من حيث لا يشعر يميل إلى عالم آخر في حالات التعاسة والشقاء ، ولا تحتاج أمور كهذه استدلال بالقرآن والحديث . بعبارة أخرى : إن البحث عن الله وحب الله مجبولة بفطرة الإنسان ، ولا يستطيع أي شخص أن يتخلى عن شعور كهذا وحتى إذا أنكر ذلك قولاً ، فإنه يقبله قلباً .

ثانياً : فالحالة الوحيدة من التوسل المشروع ، تستطيع حسب نظرته أن تكون موضع الإهتمام ، هي نفس توسل الإنسان بدعاء الأخ المؤمن حيث أنه من أجل مشروعية ذلك استدلال على الآيات السالفة[1] ، ولكنه في الحال ومن أجل أن لا يتخلف عن مدرسة « ابن تيمية » قيد شعرة ، يقول أن هذه الآيات متعلقة بطلب السؤال من الأحياء ، ولا يمكن أبداً أن يكون دليلاً على ذلك ، أنه يمكن طلب الدعاء من الأرواح أيضاً[2] .

---

(١) سورة النساء : الآية ٦٦ ؛ وسورة يوسف : الآيتان ٩٧، ٩٨ ؛ وسورة المنافقون : الآية ٥ ؛ وسورة الفتح : الآية ١١ .

(٢) « التوصل إلى حقيقة التوسل » الصفحة ١٣٦ ـ نص عبارته هي هكذا :

كل هذا إنما كان ولا شك في حياته (ص) ولا يجوز لأحد بعد وفاته ، أن يأتي قبره =

ونحن بدورنا نسأله :

فلو كنا في الحقيقة محددين ومقيدين في تفسير وتوضيح فحوى الآيات ، وأن لا نستطيع توسيع حكم الآية من الحياة المادية إلى حياة النبي البرزخية ، فإذن لا بد أن نقول : أن الآيات موضع الدراسة متعلقة بسؤال من النبي (ص) ودعاء منه ، ولا من الإمام أو الأولياء الإلهيين أو الأخ المؤمن ، لأن الآيات هي موضع نظره حول « النبي يعقوب » - عليه السلام - و« نبي الإسلام » - صلّى الله عليه وآله وسلم - . فكيف تستخلصون أنتم من هذه الآيات حكماً كلياً ، وتقولون أن أحد التوسلات المشروعة هو التوسل بدعاء الأخ المؤمن ؟! .

فلو تمكنا في الواقع أن نفهم من الآية الحكم المطلق للسؤال والدعاء من الأخ المؤمن ، واعتبار النبي نموذجاً سامياً للأخ المؤمن ، وأن تكون لنا نظرة شاملة في حالات الأنبياء أيضاً ، وخاصة الأخذ بنظر الإعتبار التمهيدات السابقة وهذا المقصود بالتوسل بدعاء الإنسان الكامل ، حيث أن دعائه هو سكينة وهدوء للبال ، إن كان هذا الإنسان في عالم المادة أو في عالم آخر .

= ويسأله أن يستغفر الله له ، لأن استغفاره قد انقطع بوفاته ، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى - بأبي هو وأمي - ولم يعد يستطيع الدعاء والإستغفار لأنقطاع عمله بالوفاة .

وبناءً على ذلك ، فإن كل سؤال منه بالإستغفار بعد وفاته محرمٌ وليس لأحد أن يحتج بالآية على فعل ذلك ، فالآية خاصة بحياته ، لأن الله تعالى يحكي عن المنافقين الذين يصدون عن الحق وعن اتباعه .

إذاً هذه الحكاية عن واقع حال أيام الرسول ، يذكرها الله في القرآن ويرويها لنا لنتعظم بما فيها ونعمل بما نفهم منها . . . ويبين لناصحة ما إذا أردنا أن نتوسل بدعاء أحد لنا .

فإذا كان في الحقيقة سبب التوسل بدعاء النبي هو نفس نفوذ دعائه ، حيث أن القرآن ضمَّن استجابته بشكل صريح ، وأن نفوذ دعائه بسبب روحه الطاهرة ونفسه الزكية من أدران الخطيئة بسبب مجموعة من الملكات النفسانية والصفات الملكوتية لـ « النبي الأعظم » ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ ، وأن هذه المناحي محفوظة وثابتة سواء في فترة حياته ، أو في فترة مماته . وإن كان لجسده المتركب من عناصر وقور ، ولبيت الرسول ومنزله الصغير وقور متميز بمقتضى القرآن الكريم ، ولو أن القرآن يشير إلى عينيه وصدره وقلبه ، هذه وغيرها بسبب وصلتها بروحه المقدسة ، التي هي مركز الألطاف الغيبية والمعنوية ، وقد عبَّر عنها القرآن بعبارة : ﴿ وكأن فضلُ الله عليك عظيماً ﴾ .

وحتى عندما صاحت وصرخت عائشة بجوار قبر « الرسول الأكرم » ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ وحالت دون دفن « الإمام المجتبى » ـ عليه السلام ـ بجوار النبي ، ولم تعر اهتماماً لحرمة النبي ، جعلها « الحسين بن علي » ـ عليه السلام ـ أن تسكت، بقراءته الآية الشريفة أدناه . ثم أضاف :

﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي إن الله حَرَّمَ من المؤمنين أمواتاً ما حَرَّم منهم أحياءً ﴾[1] .

---

(١) « تفسير نور الثقلين » : المجلد ٥ ، الصفحة ٨٠ و ٨١ ، الحديث ٧ . والسمهودي (علي نور الدين) في « وفاء الوفا بأخبار المصطفى » المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٦٠ يكتب :

« والعلماء فهموا من الآية العموم لحالتي الموت والحياة واستحبوا لِمن أتى القبر أن يتلوها ويستغفر الله تعالى وحكاية الإعرابي في ذلك نقلها جماعة من الأئمة . . . » .

وبسبب نفس هذه الرؤية الشمولية فإنهم صنعوا لوحة عليها الآية المذكورة وذلك في مسجد النبي ، ولأن يحولوا دون الأصوات المرتفعة نصبوها بمواجهة قبر « النبي الأكرم » (ص) . إن الفئة التي تروم أن تعزي هذه الأمور لحالة خاصة في حياة النبي ، لا مناص عليها أن توقف الكثير من أحكام القرآن ، أو أن تعتبرها مجموعة أحكام إنصرم وقتها ، ولا يتوجب أن تؤدي الصلوات ، ولا يجب أن تتحدث بهدوء بجوار قبره . يورد « السمهودي » مفكر المدينة الفذ ، المتوفي سنة ٩٩١ في كتابه القيِّم ، « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » الموضوع التالي :

« دخل المنصور العباسي في فترة ولاية عهده بمحاورة مع المالك ، مفتي المدينة ، في مسجد النبي ، فعندما رفع المنصور صوته ، قال المالك :

« إنَّ الله تعالى أدَّب قوماً فقال ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ ومدح قوماً فقال ﴿ **إنَّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله** ﴾ وذمَّ قوماً فقال ﴿ **إنَّ الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ وإنَّ حرمته ميتاً كحرمته حياً فاستكان لها أبو جعفر »[1] .

إن المنصور بسماعه هذا الموضوع امتثل وهدأ واستكان .

إن للسمهودي في « وفاء الوفا » حديث في آداب زيارة النبي (ص) يحكي على أن الآية المتعلقة باستغفار النبي حول المذنبين ، لا ترجع إلى فترة حياته ، حيث يقول :

---

(١) « وفاء الوفا » ، المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٧٦ ، طبع مصر ، تصحيح « محمد محيي الدين عبد الحميد » .

« ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره ويقول في دعائه اللهمَّ إنك قلت في كتابك لنبيك عليه السلام ﴿ **ولو أنَّهم إذْ ظلموا أنفسهم جاؤوك** ﴾ وأني قد أتيت نبيك مستغفراً فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته »[1] .

فهل بهذا التصريح ، يبقى لنا مجالاً أن نشك ونتردد بعمومية وشمولية الآيات المتعلقة بالأنبياء ، وأن نقول أن هذه الآيات متعلقة فقط بفترة حياة هؤلاء ؟!

نحن نعتقد أن تكون هذه الدراسة الشاملة كافية في إثبات صحة المدعى ، بيد أننا سوف نتحدث ـ بغية تكملة الدراسة ـ حول الموضوع الرابع الذي يبين عمل المسلمين في العصور السالفة . في هذا القسم سوف نورد انموذجاً عن استغاثة المسلمين من النبي (ص) ، وسيطول بنا الحديث لو نقلنا جميعها . نحن لا يهمنا في الحقيقة إلى أي مدى صحيحة محتويات ما سوف ننقله ، والذين يدّعون أن الرسول الأكرم (ص) أجاب على طلبهم فهل أن جوابه متين وثابت أم لا ، فلأنه يتحدث عن نوع من المديح ، يتعذر تقبلها بهذه السرعة . بيد أن جوهر الحديث يكمن هنا في أنه إذا كان طلب حاجة من « الرسول الأكرم » ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من الأمور الممنوعة ، فإنهم لم يصبحوا أبداً أشخاص يدعون وقائع وأحداث كهذه ، وبكلام آخر ، إذا كانت إجابة النبي صحيحة ، ففي هذه الحالة يتحقق قصدنا ، وإذا كانت عارية عن الحقيقة ، فإنه يعني أن طلباً كهذا كان عملاً صحيحاً لدى الرأي العام للمسلمين ، أن يتسلل

---

(١) المصدر السابق .

أشخاص ولو حتى من أجل الثناء على أنفسهم عن هذا الطريق .

٤ ـ المسلمون وابتغاء الحاجة من الأرواح المقدسة :

أن ابن تيمية وأنصاره وبحكم مسبق خاص ينكرون أن تكون صحابة الرسول والمجاميع التي تلت الصحابة قد ابتغت حاجة من الرسول ، وبهذا الصدد يقولون :

« ولم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين يتخيرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم ولا يستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم »[1] .

يحتمل أن يتصور شخص غير مضطلع بتاريخ الصحابة والتابعين أن يكون لهذا الإفتراء حقيقة ، ولكن لدى الرجوع إلى التاريخ يثبت ما يناقض ذلك . أننا كنموذج نورد عدة حالات :

١ ـ « أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب فجاء رجلٌ إلى قبر النبي فقال يا رسول الله استسق الله لأمّتك فإنهم قد هلكوا فأتاه رسول الله (ص) في المنام فقال : إءت عمر ، فأمَرئه السلام ، وأخبره أنهم مسقون »[2] .

ثم يقول السمهودي :

« ومحلُّ الإستشهاد طلب الإستسقاء منه (ص) وهو في البرزخ

---

(١) الرجوع إلى « رسالة الهديّة السنّية » ، الصفحة ١٦٢ ، مطبعة المنار ـ مصر ، وكذلك إلى « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٢٦٧ .

(٢) « وفاء الوفا » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٩٣٧٤ طبع في مصر .

ودعاؤه لرَّبه في هذه الحالة غير ممتنع وعِلمه بسؤال من يسأله قد ورد فلا مانع من سؤالِ الإستسقاء وغيره منه كما كان في الدنيا » .

٢ ـ يروي « السمهودي » عن « الحافظ أبي عبد الله محمد بن موسى بن النعمان » بسَندٍ يعود إلى « علي بن أبي طالب » ـ عليه السلام ـ :

« إن إعرابياً جاء إلى المدينة بعد ثلاثة أيام من دفن النبي (ص) فرمى بنفسه على قبر النبي ووضع من ترابه على رأسه وقال : « يا رسول الله قلتَ فسمعنا قولك ، ووعيتَ عن الله سبحانه ما وعينا عنك ، وكان فيما أنزل عليك : ﴿ **ولو إنهم إذ ظَلَموا أنفسهم جاؤوك فَاسْتَغْفَرُوا الله واسْتَغْفرَ لَهُم الرسُولُ لَوَجدُوا الله تَوَّاباً رحيماً** ﴾ وقد ظلمتُ نفسي وجئتك تستغفر لي . . . »[1] .

إن الكاتب المذكور ينقل في ذيل الباب الثامن ، وقائع كثيرة ، حيث تحكي جُلها عن أن الإستغاثة وطلب الحاجة من الرسول ، كانت « السيرة المستمرة » للمسلمين ، حتى أنه يقول : أن « الإمام محمد بن موسى بن النعمان » كتب حول هذا الموضوع كتابا تحت عنوان : « مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام » .

برغم أن الوقائع التي كتبها في هذا الحقل لم تثبت صحتها ، ولكنها على أية حال تحكي عن أن ابتغاء الحاجة من النبي كان أسلوباً جماعياً للمسلمين ، ولو لم تكن قد ثبتت سيرة كهذه ، لم يكن ينقلها لا السمهودي ، ولا كان الأشخاص ينسبون إلى أنفسهم عملٌ كهذا ،

---

(١) « وفاء الوفا » ، المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٦١ ـ سورة النساء : الآية ٦٤ .

حتى أن السمهودي ينقل لنفسه حدثين اثنين يحكيان عن شيوع الإستغاثة من « النبي الأكرم » ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ في تلك العصور ، والآن نذكر نماذج أخرى :

٣ ـ يقول « محمد بن المنكدر » :

« أودَع رجلٌ أبي ثمانين ديناراً ، وخرج للجهاد وقال لأبي : إن احتجتَ أنفِقها إلى أن أعود ، وأصاب الناسَ جُهدٌ من الغلاء ، فأنفق أبي الدنانير ، فقدم الرجل وطلب مالَه ، فقال له أبي : عُد إليَّ غداً ، وبات في المسجد يلوذ بقبر النبيّ ـ صلى الله عليه [وآله] وسلّم ـ مرّة وبمنبره مرّة ، حتى كاد أن يُصبح ، يستغيث بقبر النبي ، فبينما هو كذلك وإذا بشخصٍ ـ في الظلام ـ يقول : دونكها يا أبا محمد ، فمدَّ أبي يده فإذا هو بصُرةٍ فيها ثمانون ديناراً ، فلما أصبح جاء الرجل فدفعها إليه »[1] .

٤ ـ يقول أبو بكر المقري :

« كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ في حرم رسول الله (ص) وكنّا على حالة وأثرَّ فينا الجوع ، وواصلنا ذلك اليوم ، فلمّا كان وقت العشاء حضرتُ قبر النبيّ (ص) فقلت : يا رسول الله : الجوع : . .

فحضر بالباب عَلويٌّ فدقَّ ففتحنا له ، فإذا معه غلامان مع كلّ واحدٍ زنبيل فيه شيء كثير ، فجلسنا ، وأكلنا ، وظننّا أن الباقي يأخذه الغلام ، فولّى وترك عندنا الباقي ، فلما فرغنا من الطعام قال العَلوي : يا قوم أشكوتم إلى رسول الله ؟ فإني رأيت رسول الله في المنام فأمرني أن أحمل بشيء إليكم »[2] .

(١، ٢) « وفاء الوفا » المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٨٠ ـ ١٣٨٥ (طبعة مصر) .

٥ ـ يقول ابن جلّاد :

« دخلتُ مدينة النبي (ص) وبي فاقة ، فتقدمت إلى القبر وقلت : ضيفك . فغفوتُ فرأيت النبي فأعطاني رغيفاً ، فأكلتُ نصفه ، فانتبهتُ وبيدي النصف الآخر »[١] .

أننا في الحقيقة لا تهمنا صحة وصواب هذه الأحداث والوقائع . إن كلامنا هو أن هذه الوقائع صحيحة كانت أم كاذبة تصرح على أن عملاً كهذا كان شائعاً ، وإن كانت هذه الأعمال بدعة وحرام ، أو شرك وكفر ، فلم يكن مختلقين والواضعين المتمرسين لينقلوا مواضيع كهذه أبداً ، لكي يشوهوا سمعة هؤلاء لدى الناس .

لقد نقلنا في كتاب « أصالة الروح » قسم « الإرتباط بالأرواح » روايات وأحاديث تحكي جميعها عن صحة مسألة الدعاء من الأرواح المقدسة . قال « أمير المؤمنين » ـ عليه السلام ـ بعد تغسيل «النبي الأكرم » ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ هذا :

« بأبي أنت وأمّي . . . أذكرنا عند ربك »[٢] .

أن مؤلف « وفاء الوفا » ضمن قصيدة يتوسل فيها بخاتم الأنبياء ويقول :

« فانجز لي رسول الله نصري لتهنأ لي بذا الحرم الإقامة
فقد أملتُ جاهك يا ملاذي لذا ولكلّ هول في القيامة »[٣]

---

(١) « وفاء الوفا » المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٨٠ .

(٢) « نهج البلاغة » ، المجلد ٨ ، الصفحة ٢٥٥ ، الخطبة ٢٣٠ .

(٣) « وفاء الوفا» ، المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٨٦ و ١٣٨٧ .

يكتب أبو محمد الأشبيلي في كتابه « في فضل الحج » :

« مرض رجل من أهل غرناطة مرضاً شديداً بحيث عجز أطباء ذلك الوقت عن مداواته . في هذه الأثناء كتب (أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال) من جانبه خطاباً إلى رسول الله طلب فيه شفاؤه وتحسنه ، وكتب بهذا الصدد أشعاراً عدة ، مفاد القسم منها كما يلي :

عتيقك ، عبد الله ناداك ضارعاً
وقد أخلص النّجوى وأيقن بالعطف
وإنّي لأرجو أن تعود سَويَّةٍ
بقدرة منٍ يحيي العِظَام ومن يشفي
فأنت الذي نرجوه حياً وميتاً
لصدفِ خطوبٍ لا تريم إلى صرفِ[1]

إن هذه الدراسة تثبت بجلاء صحة وثبات ابتغاء الدعاء والحاجة من الأرواح . وفي الختام نتناول النقطة الأخيرة بالتحليل :

من المحتمل أن يقال : « ما فائدة طلبات كهذه ؟ » .

إن جواب ذلك واضح . بنفس الوجهة التي نبتغي فيها حاجة من الأحياء ، خاصة مسألة الدعاء ، أو ابتغاء أمور خارقة العادة ، بنفس الوجهة أيضاً نستمد من الأرواح المقدسة : لأن المفترض هو أن وضع هؤلاء لم ينقلب ، وشروط استجابة الدعاء أو قدرة هؤلاء لم تتكدر .

---

(١) « وفاء الوفا » ، المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٨٦ و ١٣٨٧ .

القسـم الثـاني

التشفع بالأولياء الإلّهيين

ليس التشفع بالشافعين التقات من حيث النظرة الواقعية ، دراسة مستقلة ومنفكـة ، بل هي فرع من دراسة قديمة ، لأن « التشفع » ، هو مسألة الدعاء من « الأرواح المقدسة » ذاته ، أو هو ابتغـاء الإستحواذ على روح ونفس الإنسـان في يوم القيـامة ، لكي تـظهر في ظـل هذا التصرف تكريراً في روح ونفس الإنسان ، ليستـطيع أن يكـون ضمن حركة الأطهار ، وأن يتحول في المصير مثلهم .

إذا أجازت الأدلة الثابتة في القسم السابق كلا نوعي الإبتغاء من الأولياء الإلّهيين ، فلا حاجة لتخصيص قسم مستقـل للتشفع . ولكن لكون هذه الـدراسة قـد أثيرت في كتب الـوهابيين وبصـور مستقلة ، فنحن أيضاً نغض النظر عن دمـج الدراستين الـواحدة في الأخـرى ، ونتابع هذه الدراسـة بشكل مقتضب . وبتصـريح نصـوص التاريـخ ، وسيرة المسلمين ونهجهم منذ عهـد « النبي الأكرم » ـ صلى الله عليـه وآله وسلم ـ والعهود التي تلت ، فإن التشفع بالشافعين الصالحين كان موجوداً ، وكانوا دوماً يسألونهم الشفاعة في حالـة حياتهم ومـماتهم ، ولـم يعتبر أي مفكر إسلامي مثل هذا الطلب مناقضاً لمبادىء الإسلام .

إلى حد أن « ابن تيمية » عارض في القرن الثامن الإسلامي هذه المسألة ، وبعده رفع « محمد بن عبد الوهاب النجدي » راية المعارضة .

إن إحدى نقاط الإختلاف بين الوهابيين والفرق الإسلامية الأخرى ، يكمن هنا . فإنهم كبقية المسلمين قد قبلوا الشفاعة باعتبارها مبدءاً إسلامياً ، ويقولون أن الشافعين سوف يشفعون مذنبوا الأمة يوم القيامة ، وللرسول الأكرم (ص) في هذا الحقل الحصة الأوفر . ويقولون في نفس الوقت :

« لا يحق لنا أبداً أن نبتغي منهم الشفاعة في هذا العالم » .

وغالوا في هذا الموضوع إلى درجة أن عفة الكلام هي حائل دون نقل أحاديثهم ، وملخص حديث هؤلاء هو أن :

لرسول الإسلام (ص) وبقية « الأنبياء » و « الملائكة » و « الأولياء » لهم « حق الشفاعة » في يوم القيامة ، ولكن يجب ابتغاء الشفاعة من « مالك الشفاعة » و « المخوّل بها » حيث هو « الله » ، وقول : « إلهي ، اجعل الرسول وسائر عبادك الصالحين شفعاء لنا في يوم القيامة » ، بيد أنه لا يحق لنا أن نقول : « يا رسول الله ، نريد منك أن تشفع بحقي »، لأن الشفاعة هي شيء لا يقدر عليها شخص غير الله تعالى .

لقد حرّم الوهابيون بالأدلة الخمسة ، التشفع بالشافعين الصالحين . فنحن قبل أن نبحث أدلة هؤلاء ، نتناول المسألة نفسها من وجهة نظر الكتاب والسنة والعقل بالدراسة ، ونبتهل إلى الله جلّ جلاله أن يردعنا في هذه الدراسة من الأفكار اللاصحيحة .

الأدلة على جواز التشفع بأولياء الله تعالى :

عندما نعتبر حقيقة الشفاعة نفس دعاء الشفيع بحق المـذنبين ، فيكون ابتغاء الدعاء من الأخ المؤمن ، وكيف الحال وصولاً إلى الأنبياء والأولياء الإلّهيين ، أمراً محبذاً ، وتكون الـدراسة السـابقة قـد فرغت جيداً من عبء هذا العمل .

فإن كان الوهابي يعتبر الدعاء من الأخ المؤمن ممكناً ، لا مناص أن يحسب التشفـع بالشفيـع الحي أيضاً بـدون مانـع وممكناً، وإن كـان هو يعتبر ابتغاء الشفاعة من الحي غير ممكناً ، يضـطر أن يعتقد للشفـاعة معنىً غير الدعاء .

هناك في الأحاديث الإسلامية وسيرة الصحابة حالات جلية تثبت طلب الشفاعة من « النبي الأكرم » ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ بصورة ملية ، نشير إلى البعض منها :

١ ـ يقول أنس بن مالك :

« سـألت النبي أن يشفع لي يـوم القيامـة فقـال : أنـا فـاعـلٌ . فقلت : فأين أطلبك ؟ فقال : على الصّراط »[١] .

يطلب أنس بن مالك بلطافة سجيّة من « النبي الأكرم » ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الشفاعة ، ويسـأل عن مكانـه ، فيجيب النبي ، قائلاً :

على الصّراط ، ويخطر بباله أبداً أن هذا العمل يناقض مبادىء

---

(١) سنن الترمذي ، ج ٤ ص ٤٢ ، باب « ما جاء في شأن الصّراط » .

التوحيد وغيرها ، ويتقبل النبي ذلك أيضاً ويعطيه البشارة .

٢ ـ يطلب « سواد بن قارب » الذي هو من أنصار « النبي الأكرم » ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ عبر أشعار ابتغاء الشفاعة ، ويقول :

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة بمغنٍ فتيلاً عن سوادِ بن قارب[1]

من الممكن أن يقول وهابي : أن جُلَّ هذه الطلبات هي متعلقة بزمن حياة الشفيع ، وأن صواب طلب كهذا لا يشهد على إمكانية طلب الشفاعة في حالة الممات . بيد أن الإجابة على هذا التساؤل واضحة أيضاً ، لأنه ناهيك عن أن الوهابي يعتبر الشفاعة حرام تماماً ، فالموت والحياة ليسا مِلاك التحريم ، ويصبح مِلاكاً للعبث واللاعبث .

ويستخلص من الأحاديث الإسلامية ، أن أصحاب النبي (ص) كانوا بعد وفاته يطلبون منه الشفاعة دائماً .

٣ ـ عندما فرغ « أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » ـ عليه السلام ـ من تجهيز « النبي الأكرم » ـ صلوات الله عليه ـ ، أمال الغطاء عن وجه النبي ، وقال : « بأبي أنت وأُمي (طبت حياً وطبت ميتاً) . . اذكرنا عند ربك »[2] .

إننا نعتقد أن البحث والنقاش في هذا القسم ـ استناداً إلى

---

(١) « قاموس الرجال » ، حاشية موضوع « السواد » .

(٢) « نهج البلاغة » ، ج ٢ الصفحة ٢٥٥ ، محمد عبده ، الخطبة ٢٣ و « المجالس للمفيد » ، باختلاف طفيف .

البحث السابق ـ سوف يطيل بنا الحديث ، والأفضل أن ندرس أدلة المخالفين بشكل مقتضب :

فهؤلاء يستدلون وبأدلة مختلفة على تحريم طلب الشفاعة ، حيث نشير أدناه إلى جميعها :

أ : التشفع شِركٌ

ليس للأنبياء وأولياء الله في هذا العالم حق الشفاعة ، بل أن لهم هذا الحق فقط في الآخرة ، فلو توَّسط أي شخص عبداً من عباد الله بينه وبين الله تعالى ، ويطلب منه أن يشفع له في الحق ، فإنه يتعرض للشرك . ويجب علينا أن نقول :

« أللّهمَّ اجعلنا مِمَّن تناله شفاعةُ مُحمدٍ » .

ولا يحق لنا أبداً أن نقول :

« يا محمدُ اشفع لنا عند الله » .

صحيح أن الله عز وجل منح النبي الأكرم (ص) حق الشفاعة ، ولكنه منعنا من مطالبة ذلك منه ، بل يتوجب علينا أن نطلب الشفاعة من الله ، حيث أن الشفاعة وهبت له .

الإجابة :

إن التوحيد في العبادة حيال الشرك في العبادة هو أحد أركان التوحيد الذي حظي بالأهمية في القرآن ، بيد أن جوهر الكلام يكمن هنا ، هل أن أي نوع كان من أنواع الدعوة ، ودعوة المقابل وطلب

شيء منه هو عبادة ، أو أن لهذه العبادة معنى خاص ، وتلك هي دعوة وطلب وإظهار المذلة والخضوع لشخص ما ، وأن نعتبره « المتصرف بلا منازع » في أمور الدنيا والآخرة ، وبتعبير آخر أن نعتبر الله : الله الكبير والله الصغير ، أو الله الحقيقي والله الخيالي . ويطلقون كلمة الله على كائن يكون خالق العالم ، أو أن يكون مالكاً لشأن من شؤونه ومخولة إليه ، كما لو كان مالك مقام « الرازقية » أو « المغفرة » ، وأو « الشفاعة » . ولكن حينما يطلب شخص من شخص شيء بهذا الشكل ، يقولون أنه قد عبده ، وليس طلب الشفاعة من الشافعين التقات بهذه الصورة أبداً ، وإنما هو من وجهة نظر أن هؤلاء هم العباد المقربين لساحة الله القدسية ، وأن دعاء هؤلاء في محضر الله يحظى بالإستجابة ، وبكلمة أخرى أن الله سمح لهؤلاء أن يشفعوا في ظروف معينة .

أن توضيح هذا كون الآيات القرآنية تصرح بجلاء على أن الأشخاص الذين يصرحون بالحق والحقيقة ، سوف يشفعون يوم القيامة ، وهنا حيث يقول :

﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلاّ من شهد بالحق وهم يعلمونَ ﴾[1] .

أن لفظة « إلاّ » التي هي من حروف الإستثناء تصريح جلي على عمل تلك الصفوة للشفاعة، التي تصرح بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٦ .

والآن يطرح هذا السؤال : والآن حيث أن الله قد وهب جماعة من أوليائه حقاً كهذا ، وسمح لهم بأن يشفعوا ، فما المانع أن يطلب الشفاعة من أمثال هؤلاء ؟ في هذه الحالة ، حينما يكون المطلوب منه مستوفياً لشروط الشفاعة ، وفي عداد الأشخاص الذين سمح لهم الله لأن يقوموا بالشفاعة لهؤلاء ، فإن طلبه يُقبل ، وبغير هذه الحالة ، فهو مرفوض .

مضحك أن يقول رئيس فرقة الوهابيون :

« إن الله وهب لأوليائه حق الشفاعة ، ولكنه منعنا عن المطالبة بذلك »[1] .

أولاً : في أي آية منعنا الله من طلب الشفاعة من الشافعين الصالحين ؟ فإن كان هذا المنع بسبب أن طلباً كهذا هو شرك ، فليس طلباً كهذا عبادة المقابل أبداً ، وإن كان من مناحي أخرى ، فسوف يوضع موضع الدراسة بعدئذٍ .

ثانياً : أن هذا العمل هو نوع من تناقض في القول ، فإذا أعطى الله حقاً كهذا لأوليائه ، فهو من أجل أن ينتفع الآخرين من ذلك الحق . فهل صحيح أن يقال للأشخاص الذين من أجل أن ينتفعوا ، وهب الحق لأولياء الله : لا يحق لكم أن تطلبوا الإستفادة من هؤلاء ؟!

ب ـ كان شرك المشركين لتشفعهم بالأوثان

كان شرك المشركين بسبب أنَّهم طلبوا الشفاعة من الأوثان ،

---

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٢٤١ ـ نقلاً عن كتاب « كشف الشبهات » ، تأليف محمد بن عبد الوهاب ، الصفحة ٦٢ .

حيث إن الآية التالية تصرح على ذلك :

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾[1] .

بناءاً على هذا فإن أي نوع من طلب الشفاعة من غير الله هو شرك ، وسيكون عبادة للشفيع .

الإجابة :

أولاً : بمقتضى « واو العطف » في عبارة « ويقولون » ، إن عبادة هؤلاء كانت غير طلب شفاعتهم . فإن كان طلب شفاعة عبادة هؤلاء ، فإن لفظة « الواو » سوف تكون إضافية .

ثانياً : أن هؤلاء كانوا يعتبرون الأوثان آلهة صغار ومتصرفون بدون منازع في أمور الدنيا والآخرة . فلهذا فإن أي نوع من الطلب المشفوع بهذه العقيدة ، سيكون عبادة الشفيع ، في حالة أن المسلمين يعتبرون الشافعون التقات ، عباد الله المقربين ، حيث أنهم بدون سماحه لا يقومون بعمل ، ففي هذه الحالة كيف يمكن استنتاج الحكم موضع الدراسة من خلال الآية ؟!

ج ـ طلب الحاجة من غير الله حرام

أن دليل هؤلاء الثالث ، هو أن طلب الحاجة من غير الله هو حرام ، فالقرآن الكريم يقول :

---

(١) سورة يونس : الآية ١٨ .

﴿ فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾[1] .

﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾[2] .

الإجابــة :

لقد اتضح مفاد الآيات من الأبحاث الآنفة الـذكر ، فـالمقصود من الدعوة في هذه الآيات ليس طلب الحاجة سواء الدعـاء أو غيره ، وإنما المقصود هو عبادة غير الله ، وأن لفظة « مع الله » في الآية الأولى وذيل الآية هو في الآية الثانية ، لأن ذيل الآية الثانية هو كما يلي :

﴿ إنَّ الَّذين يستكبرون عن عبادتي ﴾[3] .

وليس للآيات غير هذا الهـدف ، إنكم غير الله تعبـدون . وإن كان لها مفهوماً واسعاً ، بحيث أنها تشمل الطلبات أيضاً ، المقصود هو ذلك القسم من الدعوات أن الإنسان يعتبر المقابل الله ، ومن ثم يطلب الحاجة منه .

د ـ الشفاعة هي حق خاص بالله تعالى

يستنتج من آيات القـرآن ، إنّ الشفاعـة هي حق خاص بـالله ، وهنا حيث يقول :

﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً

---

(١) سورة الجن : الآية ١٨ .

(٢) سورة غافر : الآية ٦٠ .

(٣) سورة غافر : الآية ٦٠ .

ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾[1] .

الإجابــة :

لدى أخذ عبارات الآية بنظر الإعتبار ، يتضح أن هدف الآية هو نفي الشفاعة من الأوثـان الخشبية والحجـرية والمعـدنية ، وليس نفي الشفاعة من الشافعين الصالحين ، حيث صرحت بشفاعتهم في الآيات الأخرى ، لأن :

أولاً : يُفهم من عبارات « لا يملكون » و « لا يعقلون » أن حق الشفاعة هو من الشخص الذي يكون مالكاً لحق الشفاعة ، وأن يكون كذلك واعياً بعلمه ، وأن الأوثان موضع نظر هؤلاء تفتقد لكلا هـذين الشرطين ، فليسوا واعين بعملهم ، ولا يملكون الشفاعة نفسها ، ففي هـذه الحالـة ، يكون مفـاد جملة ﴿ قل لله الشفـاعة جميعـاً ﴾ هو أن الشفاعة ملك الله ، وليس ملك الأوثان الخشبية أو المعـدنية . وكـأنه يقول :

« لله الشفاعة جميعاً لا للأوثان والأصنام » .

ثانياً : وإن حق الشفاعة بشكل « المالكية » و « المملوكية » هو مـن عـنــد الله فـقط ، ولـيس « الأولـيـاء الإلّهيين » ، « مــالـكـــي» الشفاعة ، وإنما « مأذنون » بذلك . وعلى هذا فلا مانع أن يكون الله « مالك الشفاعة » ، وأن يشفع الآخر « بسماح منه » .

---

(١) سورة الزمر : الآيات ٤٣ و ٤٤ .

الخلاصة :

ليس المقصود من الجملة المذكورة أن الله هو الشفيع الوحيد ، ولا غيره ، لأنه لا مجال للشك أن الله لا يعمل ، الشفاعة بحق شخص أبداً ، وإنما المقصود هو أن الله مالك أصل الشفاعة ، وإن تواجد شفيع آخر أيضاً ، فهو بإذن وسماح منه . وإن لله هذا الحق « أصالة » ولغير الله « نيابة » . ففي هذه الحالة لا علاقة للآية بالمدعي المقابل .

هـ ـ بطلان التشفع بالميت

إن الإجابة على هذا الإحتجاج اتضحت من خلال الأبحاث السابقة ، وليس طلب الشفاعة من الروح المجردة ، ومعرفة أن الله يصفهُ بجملة « بالمؤمنين رؤوف رحيمٌ » باطل ، وقد قلنا في الماضي أن علماء الإسلام قد عمموا مفاد الآية « ولو أنهم إذ ظلموا . . . » ، والذي يشتمل على كلتا الحالتين .

و ـ يعتبر الله تعالى أن الأموات غير قابلين للتفهيم

أنهم في هذا الإستدلال ، يستدلون بالآيات التالية :

﴿ وما يستوي الأعمى وَالبَصيرُ ولا الظلمات ولا النور ولا الظِلُّ ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمعٍ مَن في القبور إن أنت إلاّ نذيرٌ ﴾[1] .

﴿ إنَّكَ لا تسمع الموتى ولا تسمعُ الصُمَّ الدعاءَ إذا ولّوا

(١) سورة فاطر : الآيات ١٩ ـ ٢٣ .

مدبرين ، وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾[1] .

الإجابــة :

لقد أوضحنا هدف ومفاد الآية في كتاب « أصـالة الـروح » في بحث الإرتباط بالأرواح المقدسة ، ولن نكرر ذلك مرة أخرى[2] .

ونذكر بشكل مقتضب : أن هذه الفئة تدخل في تخطئـة الفرق الإسلامية الأخرى ، من باب الشرك ، وتظهر من أجل تكفير الأخرين بمظهر مناصري التـوحيد ، ولكنهم قلبـوا باستـدلالهم هذا قلبـوا وجه الحديث ، ووضعوا أمامهم موضوع الغاء الإهتمام بالأوليـاء . ولكنهم غفلوا تماماً أن :

أن الأوليـاء الإلّهيين أحياء بمعـونة الأدلـة العقلية والنقليـة[3] . وليس هدف هذه الآيات سوى أن الأجساد الهامدة في التراب غير قابلة للتفهيم ، وأن كـل جسـد انفصلت عنـه الـروح يخـرج عن إطـار الإستيعاب والفهم ، ويتحول إلى جماد .

بيـد أنه يجب الإلتفـات إلى أن طرف الخـطاب ليسوا أجسـاداً مخفية في القبور ، وإنّما نتحدث نحن بذلك الأرواح النزيهة والحيـة التي تقضي مع أجساد البرزخ في عالم البرزخ ، وبتصريح القرآن هي

---

(١) سورة النمل : الآيات ٨٠ و ٨١ .

(٢) العودة إلى الكتاب المذكور ، الصفحات ٢٠٧ ، ٢١٨ .

(٣) الأدلة القرآنية بشكل الماضي .

حية ، ونطلب منها الشفاعة ، وليس بالجسد المخفي في الأرض .

وإن كانت الأموات والأجساد المخفية في قلب الأرض بعيدة ومنعزلة عن أطر التفهيم ، فليس دليلاً على أن أرواحهم ونفوسهم الطيبة والطاهرة ، والتي حسب نصوص القرآن حية ترزق في العالم الآخر ، غير قابلة للتفهيم .

وإذ إننا نحيي ، أو نطلب الشفاعة ، أو نتحدث ، فإن مقصدنا هو مع الأرواح الزكية والحية ، وليس بالأجساد المخفية في قلب الأرض . فإن نذهب لزيارة قبرهم وبيتهم ومنزلهم الصغير ، فإن ذلك يعود إلى أننا نروم من خلال هذا الطريق أن نخلق الإستعداد في أنفسنا لكي نخلق معهم علاقة روحية ، وحتى لو عرفنا أن أجسادهم تحولت إلى تراب (رغم أن الروايات الإسلامية تصرح على الضد من ذلك) ، فإننا نوجد أيضاً هذا النوع من المشاهد ، لكي نحصل من خلال هذا الطريق الإستعداد للعلاقة مع الأرواح الطاهرة .

فضلاً عن هذا ، فإن لزيارة قبور هؤلاء علامات إيجابية وبناءة ، سنوضحها حينما يسنح الوقت لذلك .

إلى هنا تيسر لنا أن نشرح قسمين اثنين من مجموع الأبحاث الخمسة ، وقد حان الوقت الآن لشرح بحث « التوسل » والذي يشكّل البحث الثالث .



القسم الثالث

التوسل بالأنبياء والصالحين

لقد اكتمل البحث حول طلب الحاجة والشفاعة من الأولياء الإلهيين ، بشكل ما واتضح أن طلب شيء من الأنبياء والصالحين ، في حالة الحياة كان أم في حالة الممات ، ليس شركاً ولا حراماً . وقد حان الوقت الآن ، لأن نبحث ونتحدث حول التوسل بالأولياء حيث أن فئة الوهابيين تخالف ذلك بشدة .

إن « التوسل » بـ « أحباء الساحة الإلهية » يتم من خلال الصورتين التاليتين :

١ ـ أن نهتم بـ « الأولياء الإلهيين » ، وأن نتخذهم « واسطة » بين أنفسنا وخالقنا ، ونتوسل إلى ذات هؤلاء ، ونقول :

« اللهُمَّ إنّي أتوسَّل إليك بنبيك مُحمَّدٍ (ص) أن تقضي حاجتي » .

٢ ـ أن نأخذ بنظر الإعتبار مقام هؤلاء ومكانتهم واحترامهم عند خالق العالم ، ونجعل ذلك وسيلة ، ونقول :

« اللّهمَّ إنّي أتوسَّلُ إليك بجاه محمدٍ وآل محمد وحرمتهم وحقهم عليك أن تقضي حاجتي » .

وإذا حلفنا بالله تعالى في مقام التشفع لمقام ومكانة الصالحين ، فلو أن هـذا هو أيضـاً نوع من التـوسل بـالأولياء الإلّهيين ، ولكن لأن الوهابيين وضعوا ذلك مـوضع البحث بـأشكال منفصلة ، فنحن أيضـاً سنضع ذلك موضع البحث بأشكال مستقلة أيضاً .

والآن يتلخص بحثنا في صورتين اثنتين :

١ ـ التوسل بذات الأولياء الإلّهيين .

٢ ـ التوسل بمكانة وحرمة هؤلاء .

وأن كلتا الصورتين من وجهة نظر الوهابيين هي حرام ، وأننا قبل أن نـطرح الأدلـة على صحـة تـوسـل كهـذا من القـرآن والحـديث ، يتوجب قبل ذلك أن نبين أدلة المخالفين ، ليتجلى بأي دليل أو أدلة !! حرَّمَ هؤلاء ذلك ؟!

لقد أشار« محمد نسيب الرفـاعي » مؤلف كتاب « التـوصل إلى حقيقة التوسل » في قسم « التوسل حرام وممنوع » إلى أوجهٍ لتحـريم ذلك ، حيث أننا سوف نضعها جميعاً موضع البحث والتحليل[1] .

الدليل الأول :

« لو كان مشروعاً » حقيقـة ، لذكـره الشارع في زمـرة ما ذكـره وحضّ الناس عليه وليس معقولاً أن يهمله الله تعالى ولا يبلغه رسولـه ولا يعمل به الصحابة والقرون الخيرة ، إذن فعدم وجوده لا في كتاب ولا سُنَّةٍ دليلٌ على عدم مشروعيته .

(١) العودة إلى الصفحات ١٧٨ ـ ١٨٧ من الكتاب المذكور .

الإجابــة :

إن ملخص الإستدلال هو لكون أن التوسل بالأوليـاء لم يرِد في الشريعة المقدسة ، فإن القيام بذلك تحت عنـوان « البدعـة » سيكون حراماً .

لقد عرَّف العلماء ، البدعة بالشكل التالي :

« إدخالُ ما ليس من الدّين في الدّينِ » .

والبعض منع ذلك مفهوماً أشمل ، ويقول :

« إدخالُ ما لم يُعلم مِن الدّينِ في الدّينِ » .

على أية حال ، فالبدعة هي الشيء الذي ندخله الدين بمعـرفة أنه ليس جزءاً من الدين ، أو الشك في أنـه جزء الـدين أو ليس جزء منه . ولنرى الآن ، هل أن هذا التعريف يشمل حال التوسلِ أم لا ؟

أولاً : تستدل جماعة بالإعتمـاد على الأنبياء والأوليـاء والآيات والأحاديث المنقولة عن « الرسـول الأكرم » وأهـل الرسـالة ، وبعمـل صحابة الرسول الـذي يحكي عن دخول ذلـك في الشريعـة ، تستدل على مشـروعية هـذا العمل ، ويخـرج موضـوع البحث وبوجـود أدلة كهذه ، عن تعريف البدعة ، وسيكون ضمن أمور ، حيث « علم أنَّـه من الـدّينِ » ولكي لا تأخـذ الأدلة المجـوزة على « التوسـل » موضـع الدراسة . فلا يمكن أبداً اصطباغ ذلك بصبغة البدعة . المؤسف هـو أن الكاتب قبل أن يبحث عن أدلة المقابل ، دخل بهـرواة الخدعـة ، المعركة مع المقابل ، في الوقت الذي يجب أن يستفاد من هذه الحربة بعد انتقاد أدلة المقابل .

ثانياً : إنّ أسلوب الشرائع السماوية ، وخاصة شريعة الإسـلام المقدسة ، هي أن يطرح الأحكام الإلّهية بصورة الأمور الكلية ، لكي يميز علماء الشريعة اعتماداً على دساتير الإسلام الكلية ، المشروع عن اللامشروع ، وعلى هذا فلا منـاص علينا أن نـأخذ محصلة القـوانين الإلّهية في القرآن والسنة بنظر الإعتبار ، ليتجلى إنّ التوسل بالأولياء هو ضمن أي من الدساتيـر الإلّهية . وليس صحيحـاً أبداً أن نقـول : أن حكم « التوسل » في الشريعة الإسلامية لم يبين ، بل أبداً تبين حكم ذلك في الجواز أو عدم الجواز ، ومن واجبنا أن نستنبط حكم ذلك من خلال القوانين الكلية .

بعبـارة أخرى ، فـإن وظيفة المحقق ليس أن يتمسـك متـوسـلاً بـ « الإحتياط » بدلاً عن مطالعة كتاب أو سنّة أو تطبيق القوانين الإلّهية الكليـة ، وأن يقول لكـون أن مشروعيـة التوسـل لم تـرد في الكتـاب والسّنـة ، فإذن هي حـرام ، وإنمـا بمقتضى أن جُـلّ وظـائف العبّـاد ومتـطلباتهم وأحكـامهم وأعمالهم وردت في الكتـاب والسّنة إلى يـوم القيامة ، بل يجب بالمحـاولة والتنقيب بصـدد الإستفادة في استنبـاط حكم التوسل من القرآن والسّنة ، ليتضح كيف إنّ الكتاب والسّنـة بيّنا حكم ذلك .

أن ضمير كل شخص يصرح على أن « التوسل بالأوليـاء » مثل « السرقة » ليس حرام في الذات ، بل إن كان حراماً ، فهو بسبب أنه يعتبر من إحدى مصاديق وجزئيات الشرك .

وعلى هذا لا مناص بدلاً من الإلتزام بالحذر ، والذي لم يرد في شريعة الإسلام المقدسة ، أن نتابع هذا الموضوع عبر تحري خاص ،

وهل أن التوسل بالأولياء الإلّهيين موافق لمعايير التوحيد والوحدانيـة ، أم مخالف لها ؟ وبعبارة أخرى فإنه يعد من مصاديق الشرك ، أو أن لا علاقة له بالشرك ؟ وهل جعل بواسطة الأنبياء والأوليـاء واسطةً لعبـاد الأوثان ، أو أن بين هذين العملين توجد فراسخ من الفواصل ؟

وباقتضاب ، فإن ملخص البحث يكمن في هل أن عمـلاً كهذا ينسجم مع التوحيد ، أو أنه يعتبر فرعاً من عبادة الأوثان ؟ فالمؤسف أن الكاتب بدلاً من التحقيق في هذا القسم ، فقد أثار موضوع الإحتياط ، واتخـذ من الشيء الذي لم يـذكر في الشـريعة ، وثيقـة على تحـريم ذلك .

ثالثاً : لا بدعة في أن المتـوسل بتـوسله لا يستنجد بـأحد غيـر الله ، ولا يطلب الحاجة من أحد غيره ، وأن عمله يشتمل آيات تدعوا الإنسان إلى العناية بالله تعالى[1] ، والواقع هو أنه بشأن طلب الحاجة منه ، وسَّط أحد مقـربي ساحتـه القدسيـة ، ويروم من خـلال هذا أن يحصل على لطف الله سبحانه . والآن إذا كـان عمل كهـذا حرامـاً ، لكان يتوجب أن يذكر في الكتاب والسّنة .

وبعبـارة أخرى : أن الإنسـان في حياة هـذا العالم وسَّط دائمـاً لنفسه شخصاً أو جمـاعة بشـأن الحصول على اهتمـام وعطف مكـانة أسمى ، ومن خلال هذا الـطريق يحصل على عـطف ولطف المقـام الأسمى ، ويستفـاد لهـذا العمـل من « نـداء الفـطرة » ، و « بـدافـع الطبيعة » :

---

(١) أن مشروعية هذه العبادات الذاتية والفطرية لا تحتاج إلى الدليل القرآني والحديث ، وأن تفصيل هذا القسم تقرأونه في نفس القسم .

فهو على هذا الأساس يتوغل ـ من حيث لا يشعر ـ في الأمور الدينية ، وفي الحصول على الألطاف الإلّهية أيضاً ، ويتخذ من مقربي ساحته القدسية ، واسطة لنفسه ، فحينما يكون عملاً كهذا حراماً وغير مشروعاً ، يجب أن يعتنى به في الكتاب والسّنة ، وإن لم يكن في القرآن والحديث دليل على تحريم ذلك ، يجب اعتبار ذلك تصريحاً على مشروعية هذا العمل .

إن الكاتب يتخذ من دليله نتيجة مقلوبة تماماً ، لأنه إذا كان عدم وجود حكم التوسل في الكتاب والسّنة دليلاً على جواز ومشروعية ذلك ، فسوف يكون تصريحاً على تحريم ذلك ، خاصة أن هذا العمل يتخذ بدافع الفطرة وقيادة الطبيعة ومقارنة الأمور المعنوية بالأمور المادية ، كونها مسألة مقبولة لنوع البشر ، فلو كان هذا العمل عملاً غير مشروعاً ، فإن اللطف الإلّهي يستوجب ، من أجل خلاص العباد من مخالب العمل الحرام ، أن يوجه هؤلاء إلى مشروعية ذلك ،وألاّ يقوم بالعمل بصمت .

وبسبب هذه المناحي في مواضيع مشابهة لبحثنا ، يضع القرآن الكريم وسّنة النبي ، الأصبع على « الحرامات » ولا « الحلالات » ، يبين الحرامات وليس الحلالات ، لأن غرائز الإنسان تدعو إلى الأعمال التي تتوافق معها ، وحري في هذا الوسط أن يتبين ما هو حرام وأحوج إلى ضابطة الغرائز ، وليس ما هو حلال ، لأن الحلالات لا يعوزها البيان ، وأن االغرائز نفسها في توجيه الإنسان صوب ذلك هي كافية .

بالرجوع إلى آيات القرآن والأحاديث الإسلامية يتجلى أنه كانت

في الأغلب (بالطبع في الأغلب) حملة الأنبياء الدعائية تكمن في بيان الحرامات والممنوعات، وليس في بيان المجوزات والمشروعات ، لأن الحالات اللامشروعة نسبة إلى المشروعة كانت أقل ، وبمعرفة الحالات الممنوعة ، فإن حالات مشروعيتها تتجلى لنفسها :

يقول القرآن الكريم :

﴿ إنّما حرَّمَ عليكم الميتة والدَّم ولحم الخنزير وما أهِل به لغير الله . . . ﴾[1] .

﴿ وما لكم ألّا تأكلوا مِمّا ذكر اسم الله عليه وقد فصَّل لكم ما حرَّم عليكم . . . ﴾[2]

﴿ قُلْ تَعَالُوا أتلُ ما حَرّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُم ألّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيئاً . . . ﴾[3] .

﴿ قُل مَن حرَّم زينةَ الله التي أخرجَ لعباده والطيبات من الرّزقِ ﴾[4] .

يتضح من خلال العودة إلى الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية وأخذ نهج الأنبياء بنظر الإعتبار ، أن هدف هؤلاء هو بيان الحرامات والممنوعات ، وإذا كان ما ينقاد إليه الإنسان بدافع الفطرة حراماً ، فإنه يبادر إلى تبيان ذلك ، وليس أن يبينها الحرامات من رأسها إلى أخمص قدميها وبلا انقطاع .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١١٩ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥١ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٣٢ .

العبادات هي أمور توفيقية

يمكن أن يقال : أن موضوع « العبادة » هـو على عكس الكلام السابق . إن عبادة الله بأي كيفية كانت ، يعوزها سماح الشارع ، وإلى أن لا تمنح العبادة بمزاياها الكمية والكيفية الرسمية من قبل الله سبحانه وتعالى ، لا يمكن بها التقرب إلى الله ، ولذا فإنه في العبادات الواجبة والمستحبة ، وإلى أن لم يدخل دليل ، لا يمكن الإتيان بذلك بهدف الدخول في المحـل ، أو عبـادة الله والتقـرب منـه من خـلال القيـام بذلك .

الدليل الأول :

واضح وجلي تماماً كونهم يقولون : أن « العبادات توفيقيـة » ، وهي بحاجة إلى سماح الشارع ، والمقصود هي العبادات والمـراسيم الخاصة ، كـالصلاة ، والصيـام ، والحج بشكـل خاص ومخصـوص بنفسه ، حيث أنه لا يمكن القيـام به بـدون سماح الله سبحـانه ، ولا العبـادات الذاتيـة كالتـواضـع والسجـود أمـام الله تعـالى ، والتـذلـل والإستغاثة بمحضره القدسي ، حيث أنها تسمى في مصطلح العلمـاء بـ « العبادات الذاتية » وأن مشروعية هذا النوع من العبادات لا تحتاج إلى دليل مستقل ، وأن دافع الفطرة في هذه الحالات كاف ، وإذا كان نـوع من هذه الأعمـال أو كيفية منـهـا حرام في حـالة مـا ، يجب أن تتوضح من قبل الله عزَّ وجل .

أن الشخص المتوسل لا يقوم في دعائه ، بعمل سوى التواضع والتذلل بعتبة الله سبحانـه ، وهذه هي العبـادة الذاتيـة نفسها والتي لا تحتاج مشروعيتها إلى دليل ، وليس لهـذا الموضـوع علاقـة بتوفيقيـة

العبادات التي تتم بشكل مراسيم بكم ونوعية خاصتين . ولأن دعاء الله تعالى ، من خلال التوسل بأعزاء وفضلاء عتبته المقدسة ، طبقاً لدافع الفطرة هو أمر شائع في أوساط أمم العالم ، وموضع ابتلاء جميع الناس ، فإن اتخاذ الصمت في مواضع كهذه يعني التوقيع على ذلك ، وحسب مصطلح « التقرير » هي وثيقة على كونه صحيحاً وثابتاً .

الدليل الثاني :

﴿ ألاَ لله الدين الخالص[1] والَّذينَ اتَّخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زُلفى ، إنَّ الله يحكُمُ بينهم في ما هم فيه يختلفون ﴾[2] .

فيقول هو وعلى حسب ما يستدل به بالآية :

« التزلف بذوات الأشخاص ردَّهُ الله سبحانه ولم يقبله وإنه تعالى قد عاب عليهم في هذه الآية أمرين اثنين : عاب عليهم عبادة الأولياء من دونه وعاب عليهم محاولتهم القُربى والزُّلفى إليه تعالى بالأشخاص

---

(١) « الدين » في اللغة العربية يعني « الطريقة » و « الشريعة » وبمصطلح القرآن هو « الشعب » ، بيد أنه في الآية المذكورة ، وقسم آخر من الآيات بالمناسبة ، يعني « الإطاعة » و « الإقتداء » للدين ، مثل :

﴿ أخلصوا دينَهم لله ﴾ (سورة النساء : الآية ١٤٦) .

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينِكُم ﴾ (سورة النساء : الآية ١٧١) .

﴿مُخلصينَ لهُ الدّين﴾ (سورة الأعراف : الآية ٢٩) .

(الرجوع إلى كتاب « مفردات الراغب » ، الصفحة ١٧٥) .

(٢) سورة الزمر : الآية ٣ .

والعبـادِ المخلوقين فكـلا الأمــرين في الآيـةِ عيبٌ وذنبٌ وكــلاهُمـا باطِلٌ »[1] .

الإجـابة :

إن الإستـدلال بهـذه الآيـة ، المقتضيـة على تحـريم التـوسـل بالأولياء الإلّهيين ، هو من الإستدلالات الغـريبة والعجيبـة جداً . إن الوجهة المشتركة الوحيدة بصـدد التوسـل بالأوليـاء الإلّهيين مع حـالة الآية ، هو أنه في كلتا الحالتين توجد واسطة ، وأن وجهة مشتركة كهذه ليست كافية في الإستدلال ، لأنه هناك اختلافات جوهـرية بين عمـل المشركين وعمل عباد الله المتوسلون بالأولياء ، والتي تميز كلا العملين عن بعضهما ، لأن :

إذا كانت العناية بالله عز وجل ممنوعة من خلال الواسطة وبصورة مـطلقة ، فيجب بـالضرورة أن يكـون طلب حاجـة من الله عن طريق ابتهال شخص مؤمن ، أيضاً حرام وممنوع ، في الـوقت الذي اعتبـره جميع المسلمين وحتى الوهابيون أنفسهم والسيـد الرفـاعي كذلـك ، مشروعاً واستدلوا على صحته وقوته بالقرآن الكريم والحديث .

فإذا كان اتخاذ الوساطة محرماً حقاً ، ولا يجب أبداً أن نجعـل من غير الله تعالى واسطة لنا ، ولا بد أن نطلب الحـاجة من الله جـل جلاله وبشكـل مباشـر ، فلماذا إذن يعتبـرون التوسـل بالله عبـر رجل الدين ، عملاً مشروعاً ؟!

وبعبارة أخرى ، إذا كان الإستدلال بالآية المقتضية على تحريم

---

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٧٠ .

التوسل بالأولياء الإلّهيين ، من خلال وجهة النظر هذه المتمثلة في أنه لا يجب أبداً إيجاد الوساطة لدى طلب الحاجة ، فلا بد إذن اعتبار جميع أنواع التوسل بأسماء وصفات الله سبحانه والتوسل بالأخ المؤمن وتوسل الإنسان بعمله الصالح ، اعتبارها غير مشروعة .

بيد أنه إذا كان أساس الإستدلال ، أنه لا يجب أبداً أن نتخذ من الذوات والأشخاص ومخلوقات الله تعالى واسطة (وليس دعاء الأفراد المتدينين) ، فالجواب هو أنه لا يستنتج من الآية معنىً شاملاً كهذا ، لأن توسل هؤلاء بالأوثان يختلف من عدة أوجه عن توسل عباده بأولياء العتبة الإلّهية المقدسة ، ولا يمكن استنتاج الحكم الثاني من الحكم الأول ، وأننا نشير هنا إلى البعض من هذه الإختلافات :

أ - إن أساس التباس الكاتب هو كونه اعتقد أنه قد جرى في الآية المذكورة الإنتقاد من شيئين ، يعني من عبادة غير الله ووساطة مخلوقه ، في الوقت الذي نهي في الآية من شيء واحد ، وهو محاولة التقرب إلى الله عبر عبادة أوثان المخلوق ، والآن نتناول توضيح ذلك .

أن عباد الأوثان ، حسب ما تصرح به الآية ، كانوا يعبدون الوساطات ، إلى حد أنهم كانوا قد وضعوا عبادة الله جانباً ، ولم يكونوا يعبدون غير الواسطة أحداً ، في الوقت الذي لا يعبد المتوسلين بأولياء العتبة الإلّهية أحداً سوى الله عزَّ وجلَّ ، وإنهم لا يعتبرون أولياء الله الصالحين سوى أن لهم مكانة لدى الساحة الإلّهية ومقربون إليها نتيجة عبوديتهم لها . ففي هذه الصورة أن هدف الآية هو تحريم التقرب من الله من خلال عبادة أشخاص الله ومخلوقاته ، وليس التقرب من الله عبر الصالحين أو مكانتهم ومنزلتهم .

ارجعوا مرة أخرى واتلوا الآية موضع الحديث ، وتفحصوا ملياً في مضمونها ، فإن نص الآية الشريفة هو :

﴿ ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زُلفى ﴾ .

تستوجب في موضوع التقربِ ثلاثة مواضيع ، هي :

١ ـ المتقرّب ،

٢ ـ المتقربِ إليه ،

٣ ـ المقَرِّب وأساس التقرب .

أن «المتقرّب»هو عابد الأوثان نفسه، و«المتقرب إليه»هو الله سبحانه وتعالى ، و« وسيله وأساس التقرب » هم عباد الله . وأن توسيطاً وتوسلاً يكون أساساً للتقرب في عبادة غير الله ، فهو حرام .

فما هي في هذه الحالة يا ترى علاقة مفاد الآية الشريفة بموضوع حديثنا المتمثل في أن المتوسل لا يعبد شخصاً غير الله ، وبدلاً من التقرب بالله عبر عبادة غير الله ، يبحث عبر طريق توسيط الصالحين وتوسيط مكانتهم ومنزلتهم عند الله جلَّ جلاله ، عن التقرب .

حينما نقول أن وسيلة وأساس تقرب المشركين ، كانت عبادة العباد فلا يناقض هذا أن تكون الأوثان أيضاً « مقربة » ، حيث يقول الله عز وجل في كتابه الكريم « ليقرِّبُونا » ، لأن المقرب الحقيقي من وجهة نظر مشرك ما ، هي العبادة نفسها ، وأن تقرب الأوثان يعني كونها شفيعة ، حيث أن نتيجة المقرب الأولى هي عبادة هؤلاء .

ومختصر القول أنه أعلن في الآية الشريفة كون أن التقرب من

الله عبر عبادة غير الله حرام وغير مشروع ، وليس التقرب من الله عبر وساطة الصالحين بدون أن يُتخذوا موضع العبادة ، ولم يتم النهي في الآية سوى عن شيء واحد ، وذلك هو التقرب من الله عبر عبادة أوثان وأصنام ومخلوقات الله ، ولا غير ، وليس من شيئين أحدهما عبادة المخلوق والآخر التوسل بالمخلوق .

ب ـ صحيح أن المشركين كانوا يقومون بعملين اثنين :

١ ـ إنّهم كانوا يعبدون غير الله سبحانه .

٢ ـ كانوا يتخذون من الأشخاص وسطاء لهم .

بيد أن الضغط الإنتقادي موجه على القسم الأول ، وهو أن عبادة الأوثان عمل خطأ وغير مشروع ، وأن الآية بالنسبة إلى القسم الثاني (توسيط أشخاص ما عدا عبادتهم) ، لا وجهة نظر لها ، سلباً أو إيجاباً . وإنما يجب في هذا الحقل مراجعة الأسانيد الأخرى من القرآن والسنة ، أو العقل والإدراك : فعندما تتحلى الواسطة بصلاحية أن الإنسان يبحث عن التقرب بوسيلتها ، بدون عبادته ، ففي هذه الحالة لن يكون لتوسل كهذا مانع ، وإذا كان خالياً من صلاحية كهذه ، فسوف يكون التقرب بوسيلته أمر سهو ولا جدوى له .

إن دليلنا على أن الضغط الإنتقادي هو على عبادة الأوثان ، ولا وساطة الأشخاص ، هو مستهل الآية نفسه ، حيث يقول :

﴿ إلا لله الدّينُ الخالِصُ ﴾ .

يعني سيتوجب على الناس ألا يعبدوا غير الله تعالى، وأن الذين اتخذوا لأنفسهم غيره هو ، أولياء ، ويعبدونهم ويطيعونهم ، لكي

يقربونهم عند الله ، فإن هؤلاء لفي ضلال عظيم ، لأن الإطاعة خاصة بالله عز وجل ، ولا يمكن أبداً القيام بذلك إزاء آخر .

وعلى هذا الأساس فإن منظور الآية هو الإنتقاد من عبادة الأوثان ، وليس محاولة التقرب بوسيلة مخلوقات الله رغم أنها ليست توأماً مع العبادة ، الواسطة نعم ، فقد انتقد في آية أخرى من كلا الموضوعين وبوضوح ، حيث يقول :

﴿ ويَعبدُون من دونِ الله ما لا يضُرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شُفَعاؤُنا عند الله قُل أتنبئونَ الله بما لا يعلَم في السَّمواتِ ولا في الأرض ﴾[1] .

فلو قارنا هاتين الآيتين معاً ، يتضح أنه تم الإنتقاد في الآية الثانية من شيئين لوجود « واو العطف » :

١ ـ **﴿ يعبدونَ من دونِ الله ﴾** .

٢ ـ **﴿ يقولونَ هؤلاءِ شفعاؤنا ﴾**[2] .

وإذ يقال في اختتام الآية الشريفة : **﴿ قُل أتنبئون الله بما لا يَعلمُ . . . ﴾** يريد أن ينتقد كلا الموضوعين الحاويين على « واو العطف » .

---

(١) سورة يونس : الآية ١٨ .

(٢) لا يستوجب الإعادة إلى الأذهان أنه لا يستنتج من هذه الآية أيضاً ، التحريم توسط الصالحين لأنه إذا تم الذم في حالة واحدة هي جعل الصنم شفيعاً ، فإن ذلك لا يدل على ذم جعل الصالحين شفعاء .

بيد أن المذموم في الآية موضوع البحث ، هو عابد غير الله نفسه ، ولو ورد موضوع التوسل في أحاديثهم بشكل تعليل وبيان الحافز لعبادة غير الله ، وأن هدف الآية هو انتقاد المعلول .

ج ـ أننا نغض النظر عن هذين الجوابين اللذين يشكلان أساس تحليل وتركيب الآية ، ونتخذ ما هو مسلم به وهو أن الآية انتقدت كلا العملين وبشكل مستقل ومنفصل ، وتسميهما بالمشروع ، بيد أنه لا بد من الأخذ بنظر الإعتبار ، هل أن الآية تنهي عن كل أنواع التوسل بغير الله . لكي يشتمل ذلك التوسل بالأولياء والأنبياء أيضاً ؟ أو أنها تنتقد « الأوثان » و « الأصنام » ؟ وفي هذه الحالة لن تكون الآية شهادة على تحريم التوسل بأولياء عتبة الله القدسية[1] .

لا ريب في أن الآية الشريفة موضوع البحث هي من الآيات المكية ، والمنظور من معبودات أهل مكة وضواحيها ، الخشبية والمعدنية والحجرية ، هو ذلك ، ولقد كان الدين الشائع والرائج بين أوساط الناس في شبه الجزيرة هو عبادة الأوثان الخشبية والمعدنية والحجرية نفسه ، وإذا كانت جماعة منهم تعبد الملائكة أو « عيسى المسيح » ـ عليه السلام ـ فهي الأقلية تماماً ، ففي هذه الحالة يمكن القول بشكل حاسم ويقين ، أن منظور الآية هو تحريم الأوثان وليس الأولياء الصالحين .

---

(١) لأنه ، أولاً : ليس للأوثان والأصنام أي نوع من الكفاءة والأهلية .

وثانياً : إنهم كانوا يعتبرون الأوثان ، مؤثرات مستقلة ، وحريات تامة في إدارة شؤون العالم ، والمتملكون لمقام الشفاعة ، وقد جاء القرآن الكريم من هذه الحقيقة بتعبير « أنداداً » ، وليس للشخص الموحد حيال الصالحين عقيدة كهذه أبداً .

ناهيك عن هذا ، فلم يثبت أبداً أن عبادة المسيحيين للمسيح هي وسيلة للتقرب إلى الله سبحانه ، لأنهم يعتبرون المسيح هو الله وجزء من الله ، وليس كائناً متميزاً عن الله ، لكي يطرح موضوع التقرب .

وأن الدليل الآخر على أن منظور الآية هو فقط عبادة الأوثان الخشبية والمعدنية ، هو أنه تطرح في الآية التي تليها عقيدة المسيحيين والبعض من عقائد عرب الجاهلية ، وبصورة مستقلة ، أنه كان يتراءى لهم ، أن لله ولد كالمسيح أو ملاكاً ، ومن ثم ينتقد ذلك ، أفلا يكون هذا دليلاً ، على أن منظور الآية موضوع البحث هو غير هذه المجاميع ؟ وإليكم الآية الشريفة التالية :

﴿ لو أراد الله أن يتَّخِذَ ولداً لاصطفى مِمّا يخلُقُ ما يَشاءُ . . . ﴾[1] .

يتضح لدى أخذ هذه الأجوبة الثلاث بنظر الإعتبار ، أن الإستدلال بالآية على تحريم التوسل بالأولياء هو في غاية الضعف وعدم المقدرة ، وليس إلاّ حكم الكاتب قبل أوانه ، والذي حتَّمَ عليه استدلال كهذا .

الدليل الثالث :

﴿ وما أموالُكُم ولا أولادُكُم بالّتي تقرّبكم عِندنا زُلفىٰ ، إلاّ مَن آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ، فأولئِكَ لَهُم جَزاء الضِّعفِ بما عَمِلُوا وَهُمْ في

---

(١) سورة الزمر : الآية ٤ .

الغُرُفاتِ آمِنُونَ ﴾[1] .

يقول « الرفاعي » مستدلاً بالآية ، ما يلي :

﴿ إنَّ الَّـذينَ يقرّبُـون عِنـدَ الله دَرَجـاتٍ والَّـدين تُضـاعَفُ لَهُمْ حَسَناتُمْ ، إنَّما تُضاعَفُ بأعمالِهم لا بالجاهاتِ وَالوِساطاتِ ﴾[2] .

الإجـابــة :

إننـا سنثبت بمشيئـة الله تعـالى من خـلال الآيـات والأحـاديث الإسلامية ، أن التوسل بالأنبياء والأولياء هو من « الأمور المشروعة » ، والذي دُعي إليه في الـدين الإسلامي الحنيف ، وبعبـارة أخرى فهـو عمل صالح يؤديه الشخص المتوسل ، وسيدخل « التوسل بـالأولياء » في هذه الحالة ، في عبارة « وعمل صالحاً » .

ناهيك عن هذا ، فإذا كان المقصود من « العمل الصالـح » هو العمل الوحيد الذي يكون الإنسان « مباشرة » ، فيجب إذن أن يحـرم التوسل بدعاء الأخ المؤمن أيضاً ، لأن توسلاً كهذا هو خارج محتـوى الآية .

إن الأدلة التي تستلفت اهتمام مؤلف كتاب «التوصل» هي نفس الآيتين الإثنتين اللتين تناولناهما بالتحليل والتوضيح ، بيد أنـه كجميع الكتّاب الوهابيين ، بالغ بحديثه جداً ، واستدل بحفنة مواضيع واهيـة وضعيفـة والتي هي قسم منها خـلاصـة أفكـار«ابن تيميـة»والقسم الآخـر

---

(١) سورة سبأ : الآية ٣٧ .

نقلت عن « محيي الـدين العربي » ، ونـورد كـأمثلة البعض من هـذه الإستدلالات :

نسج الأوهام بدلاً عن الواقعية

لقـد صنع « ابن تيميـة » نقلاً عن كتـاب « التوصـل إلى حقيقة التوسل » ، صنـع دليلاً واهيـاً من جانب أنصـار « التوسـل » بدلاً عن الواقعية ، ومن ثم طفق بانتقاده ، وفي الوقت الذي لم يتمسك أي من مفكري هذه المدرسة بدليل واهي كهذا ، لكي يباشر هو بصدد الإنتقاد منه . فهو يسيـر حسب المقولـة « تقتل بنفسـك ، وبنفسك تقـرأ عليه الفـاتحة » في عـالم للأوهـام ، ويفترض دليـلاً ويذهب لمقـارعتـه ، ويـطرح مؤلف كتاب « التـوصل » ذلـك أيضـاً بشكـل سؤال وجـواب حقيقي . ونـورد هنا ذلـك الدليـل الواهي الـذي طرح بصـورة سؤال وجواب .

حديث عن « ابن تيمية » :

سأل رجل ابن تيمية عن شخصين كانا يتحاوران ، قائلاً : يقول أحد المتحاورين :

« لا بدّ لَنا مِنْ واسطةٍ بيننا وبَينَ الله فإنّا لا نقـدر أن نَصِلَ بغيـر ذلك » .

إن مؤلف كتاب « التوصل » اعتقد على ضوء ما يكنه من تضاؤل خيال ابن تيمية ، أن شخصاً مؤدباً في الحقيقة طرح دليلاً كهذا ، في حين أنـه لم يتمكن شخص عليم بمبادىء تـوحيـد الإسـلام ومعـارف

القرآن ، أن يقول : لا مناص من أن توجد واسطة بيننا وبين الله ، في الوقت الذي يقول القرآن الكريم فيه :

﴿ ونَحْنُ أقرَبُ إلَيهِ مِن حَبلِ الوَرِيدِ ﴾[1] .

ويقول كذلك :

﴿ وإذا سألكَ عبادي عَنّي فَإنّي قريبٌ أجيبُ دَعوَةَ الدّاعِ إذا دَعانِ ﴾[2] .

إنّ ما يلفت النظر هي المواساة التي تلاها شيخ الإسلام الوهابي في هذا المضمار ، وبرر كلام المتحدث بشكلين ، حبّذ أحدهما ورفض الآخر :

« إن أرادَ بِذلكَ أنّه لا بُدَّ من واسطةٍ يبلغنا أمر الله فَهذا حقٌ وإن أراد بالواسطةِ أنَّهُ لا بُدَّ من واسطةٍ في جَلبِ المنافِعِ ودَفعِ المضَارِّ مِثلَ أن يكُون واسِطةً في رزقِ العبادِ فَهوَ مِن أعظَمِ الشّرِكِ » .

الإجابـــة :

لا بد أن تقول في الإجابة على شيخ الإسلام نفس العبارة التي قالها شخص ثالث حول اختلاف شخصان بصدد إعراب حرف الكاف في كلمة«كُدام»(*)الفارسية ، أحدهم كان يقول هي«كَدام» (بفتح الكاف) ، والثاني كان يقول ، هي « كِدام » (بكسر الكاف) ، وقال

---

(١) سورة قَ : الآية ١٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

(*) تعني بالعربية : أيّ .

الثالث ليس أيٌّ من « كُدام » (بالضم) ، وإننا نقول يا أيها السيد ابن تيمية ! ليست أي منهما . أن هذه الواسطة لا نريدها من أجل الدعاية للدين ، ولا لقضاء يوم ، وإنما إيلاء الأهمية للواسطة والتوسل إلى النبي ، هو عمل صالح بحد ذاته ، يؤدي إلى أن يستجاب دعاء الإنسان . وبعبارة أخرى ، أن توسيط هؤلاء له الأثر في استجابة الدعاء ، وأن سبب التوسل إلى الصالحين وأولياء الله ، خاصة الأنبياء والمعصومين ، هو كالإهتمام بالقرآن الكريم الذي يعتبره جميع المسلمين جائزاً ، وينقلون عن « الرسول العزيز » ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ حيث قال :

« مَن قَرَأ القُرآنَ فليسأل الله بِهِ » .

ونسأل الآن ، لماذا تجعلون القرآن الكريم واسطة ؟

فيقولون في إجابتهم : أن التوسل بالقرآن مرهون بتدبر آياته وتطبيقها على نظم الحياة ، وأن عودة ذلك هي أن الإنسان يعتبر حلال ذلك حراماً ، وحرام ذلك حلالاً ، ويسأل الله به حوائجه لتقضى . ونقل هنا كلمات « الرفاعي » في نفس هذا المجال :

« فإذا قَرأ المُسلِمُ القُرآنَ إنَّما يَقرأ ويَتلوا كلامَ الله تعالى وتبارك ليُذبِّرَ آياته ويُطبِّقها على نَفسِهِ ثُمَّ عَلى مَن يَعُولُ ويَجعَلَ القُرآن بما فيه من عقائدٍ وأحكامٍ وأخبارٍ ، مَرجعَهُ في كُلِّ شيءٍ ، فيُحِلُ حَلالَهُ ويُحرِمُ حَرامَهُ وليسألِ الله بِهِ حوائِجه لتقضى »[1] .

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ٤١ . فإذا كان توسيط القرآن المكتوب منه والمطبوع صحيحاً ، فلماذا ليس توسيط القرآن الناطق صحيحاً . إن الإنصاف شيء جيد أيضاً .

إن فحوى كلامه ، هو نفس ما قيل .

أننا سوف نوضح في المستقبل لذي الحديث عن صلة مكانة الأنبياء ومنزلتهم بالشخص المتوسل ، هذه الحقيقة أكثر في أن التوسل نفسه يكون أرضية لتكامل المتوسل ، ويضحى سبباً لأن يغتفر له بسبب هذه الجدارة .

يستنتج في الواقع من الأخبار والروايات ، أن التوسل بالناس المعصومين والأبرياء أدى إلى الحصول على الرحمة ، ويكون باعثاً لإستجابة الدعاء . وأن الطريق لتبرير ذلك هو أن هذا العمل نفسه نوع من الإعتناء بالله سبحانه وتعالى ، عبر عبّاده الجديرون . وإليكم نموذجاً في هذا المجال ، عما يقوله فقهاء الإسلام في كيفية صلاة « الإستسقاء » :

« الرّابِعُ صِياماً مُشاةً خلِقَةً مُتَذَلّلينَ متَواضِعينَ خاشِعينَ لله ومَعَهمُ الصّبيانُ والشُّيوخِ والعَجائِزُ والدَّوابُّ ويُبَعّدونَ الرّضّع عَن أُمَّتِهِم ليكثُروا الصّياحَ فيكُونُ ذلِكَ أدعى لِرَحمةِ الله »[1] .

ونسأل الآن لماذا يجب عليهم أن يجلبوا معهم الصبيان والشيوخ العجائز والدّواب ؟ فهل أن ذلك سوى بسبب أن يقولوا : يا إلّهنا نحن على معصية وخطيئة ، أما هؤلاء فهم معصومين وأبرياء ، فأرحم علينا من أجل هؤلاء . وأن هذا العمل بالحرف الواحد هو ترسيم رحمة الحق والإعتناء بالذات الربوبية ، ويكون أرضية لوقار الدعاء واستجابته .

---

(١) « الفقه على المذاهب الأربعة » ، المجلد الأول ، الصفحة ٢١٥٩ ـ ٢١٦٠ .

إن حقيقة كهذه في التوسل بالأرواح المقدسة ذات المكانة والشأن ، والذي كان وجوده أحياناً للناس على وجه البسيطة مأمناً[1] ، ووصفه القرآن الكريم بـ « رحمة للعالمين » هو متداول وسائد ، وأن مقارنة مكانتين اثنتين ببعضهما معاً ، ليس بالأمر الهين.

إن الإنسان بدافع الفطرة ، ودون أن يعتني بالنقاشات الوهابية ووساوس ابن تيمية ، فقد اتخذ من الناس المنزهين واسطة له ، وكان من خلال هذا يحصل على رحمة الحق تعالى . لقد نقل جميع المؤرخون وكتّاب السيرة عن أبي طالب ، أنه كان يمسك يد النبي الأكرم (ص) بغية هطول المطر ، وكان عن طريقه يطلب المطر .

ولقد نقلوا أيضاً عن أبي طالب القصيدة التالية :

وأبيض يَستَسقى الغمامُ بوَجهه ... ثِمالُ اليَتامى عِصمةٌ للأرامِلِ[2]

وإن الأوضح من جميعها هي الأحداث المتعددة التي وقعت في عهد حكومة « عمر بن الخطاب » حيث أنه كان في سنوات الجفاف يمسك يَد عمّ النبي ،ويذهب إلى المُصَلّى :

« إنَّ عمر بن الخَطّاب كانَ إذا قحطوا استسقى بالعبّاس بن عبد المطلب ، فقالَ اللّهُمَّ إنّا كُنّا نَتوسَّلُ إليك بنبيِّنَا فَتسقينا وإنّا نَتوسَّلُ إليكَ بِعَمّ نَبيِّنا فاسقِينا فَيُسقَونَ »[3] .

---

(1) ﴿ وما كان الله ليعذبُهم وأنتَ فيهم ﴾ (سورة الأنفال : الآية ٣٣) .

(2) « صحيح البخاري » ، باب صلاة الإستسقاء (طبع محمد علي صبيح) ، الصفحة ٣٢ .

(3) « صحيح البخاري » ، الجزء الثاني ، باب صلاة الإستسقاء (طبع محمد علي صبيح) ، الصفحة ٣٣ . سنتحدث حول هذه الوقائع في المستقبل .

إن هـذا الحديث الـذي هو أحـد الأدلة على التـوسل بـالأفـراد المقربين إلى الساحة الإلّهية ـ حيث وقع الوهابيون أزاء ذلك في حركة شديدة ـ يدل على أن التوسل بالأفراد المقربين لا مانع فيه ، بل يـدل على أن التوسل بـ « العباس » هو أيضاً بسبب علاقة القربى بينه وبين الـرسول العزيز (ص) ، ولهـذا قال عمـر بن الخـطاب : « بِعَمِّ نَبِيِّنـا فاسقِنـا » .

وبـاختصار ، ففي التـوسل بـالصالحين لا منـاص من اعتبار أن الإعتنـاء بالفـرد الصالـح نفسه وإظهـار الرغبـة إليه ، نـوع من العمل الصالح ونوع من الإهتمام بالله عز وجل .

الدليل الرابع أو حديث عن أبي حنيفة :

« لا يَنبَغي لأحَدٍ أن يَدعُو الله إلّا به والدُّعاءُ المأذُونُ فيه المأمورُ بِهِ ما استفيدَ من قَولِهِ تَعالى : ﴿ ولله الأسماءُ الحُسنى فادعُوهُ بِها وَذَروا الَّذين يُلحِدُونَ في أسمائِهِ سيجزونَ ما كانوا يَعملُونَ ﴾ »[1] .

الإجـابــة :

أن حديث الإمام الأعظم (!) أبو حنيفة هو مرفوض في الظاهر ، وافتراضاً على صحته ، فهو لا يدل على ما يدّعي به الوهابي ، لأن :

أولاً : أن ما يقولـه : « لا ينبغي لأحَدٍ أن يـدعَو الله إلّا بـهِ » . ليس صحيحاً ، لأنه ليس من الضرورة أبداً أن نسمي الله سبحانه بإسم

---

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٨٠ ـ سورة الأعراف : الآية ١٨٠ .

« الله » فقط ، حيث يمكن أن نسميه بجميع الأسماء ، وكأن جملة إمام العراق الأعظم ، قد حرّفت .

ثانياً : ليس مفاد الآية سوى أن نسمي الله عز وجل بأسمائه ، وألّا نقوم بـ«الإلحاد»في أسمائه . وأن معنى الإلحاد في الأسماء هو أن نسميه بالأسماء والصفات التي لا تناسب وقارته وشأنه ، ولهذا يقولون ، أن « أسماء الله توقيفية » ، يعني لا يمكن أن نسميه بإسم من لدننا ، وإنما يجب تسميته ووصفه بنفس الأسماء والصفات التي تلاها نفسه ووصفها .

والآن نسأل القارىء العزيز : ما علاقة هذه الآية بما يدّعيه الوهابي ؟ أيسمي المتوسل ، الله بغير أسمائه الواقعية ؟ ألم يقل : « اللَّهُمَّ إنّي أتَوَسَّلُ إليكَ بنبيّكَ » ؟ ألم يسمي عمر بن الخطاب لدى الإستسقاء ، عندما توسَّل بعمِّ النبي الأكرم ، ألم يسمي الله جلَّ جلاله بغير إسمه الصحيح ؟ أأنه قام بالإلحاد في اسم الله تعالى ؟

إن هذا الإستدلال يبين أن مواضيع المؤلف قد نفذت ، وكما يقال : فقد مسّت مطفحته (مِرغاته) قاع القِدْر ، فهو على ذلك يتخبط في النفايات .

لا بأس أن نعير انتباهنا أيضاً للكلام الذي ينقله عن « محيي الدين ابن العربي » :

« لا يَتَوسَّلُ إلى الله بغَيرهِ فإنَّ التَّوسُّل إنَّما هو طَلَبُ القُرب وَقَد أخبَرنا إنَّه قريبٌ وَخبَرهُ صِدقٌ »[1] .

---

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٨٠ .

إننا نعتقد أن السيد الرفاعي نفسه لا يطمئن لصحة قول ابن العربي ، بدليل أنهم أنفسهم يعتبرون الله تعالى قريباً ، ويتوسلون إلى دعاء النبي الأكرم (ص) في حالة الحياة ، وإلى دعاء الأخ المؤمن .

إنهم غافلون عن نقطة واحدة ، وهي أن التوسل نفسه كان من أسباب استجابة الدعاء ، ويكون باعثاً لإيجاد القرب ، كالأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان . سيأتيكم تفصيل هذا القسم في المستقبل .

الدليل الخامس

ما العلاقة بين المسألة ومكانة الصالحين ؟

أن دليلهم العلمي (!) الأخير ، والذي أعطوه أيضاً مسحة فلسفية ، هو أن كان للصالحين مكانة وشأن عند الله سبحانه ، فهي بسبب الأعمال الصالحة التي قاموا بها . وفي هذه الحالة لا صلة بيننا ومكانة وشأن هؤلاء الذي هو نتاج سعيهم وجهدهم في سبيل الله تعالى ، فكيف يمكن لشخص أن يحاول التقرب عبر نتاج عمل شخص آخر ؟

ويكتب الرفاعي بهذا الصدد :

« فما دُمتُم تَعلَمُون أنّ كُلَّ هذِهِ المكانة والحُرمة متأتيةٌ له مِن سعيهِ ومتأكدّون أنّ سعيهِ لَهُ ولَيس لَكُم فيه مِن حَقٍ ، فكيف إذاً متوسلون إلى الله بجاهٍ لا تملكونَهُ وحُرمةٍ ليس لَكُم أيَّةُ عَلاقةٍ ومكانةٍ اختصَّهُ الله بها وَلَيس لَكُم مِنها مِثقالُ ذَرَّةٍ »[1] .

---

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٨١ .

ثم ينقل ولإثبات قوله ، عبارة عن شارح « عقائد الطحاوية » [نسبة إلى أحمد بن محمد الأزدي ـ م .] ، حيث أن فحوى الإثنين واحدٌ . وإليكم عبارته :

« لا مُناسَبَةَ بَينَ ذلِكَ أي صَلاحُ المتَوسِلِ بِهَ وبَينَ استِجابَةِ الدُّعاءِ فَكَأنَّ المتوسِّل يقول : لِكَونِ فُلانٍ من عبادِكَ الصّالحينَ أجِب دُعائي » .

الإجابــة :

وإننا إذا نعتذر عن كوننا نقلنا دليل هؤلاء بشكل مسهب ، نبادر بالإجابة على ذلك . إن هـذا الإستدلال يبين أنـه لا معلومات كـافية لديهم حول ماهية عمل التوسل ، ولهذا فإنهم يرّدون أي نوع من الصلة والعلاقة بين استجابة الدعاء ومكانة وشأن « المتوسل به » ، ويعتقدون أن طلب الدعاء أو توسيط مكانة وشأن النبي الأكـرم (ص) ، هو كـأن يتنـاول أحدهم الكبـاب [اللحم المشوي] ، لكي يصبـح آخر قـوياً ومقتدراً ، أو يمارس ذلك الرياضة ، لكي يصبـح آخر سليمـاً . وفي الختام فإنهم يعتقدون ، أن موضع التوسل هو كالمثل الفـارسي الذي يقول : أنا ذاك إن رستم كان بطلاً(*) ، أو كالمثل العلمي المعـروف الذي يقول : أنا ذاك ، إن العلاّمة كتب الفين .

ومن المؤسف حقاً أن ينتقد مؤلف عملاً ، لا معرفة له بكنهه :

(*) رُستم : من أبطال الفرس . شخصية أسطورية . وقـام بـأعمـال خـارقـة . تغنّى الفردوسي في الشاهنامة بمغامراته ـ م .

يصرح القرآن الكريم بصراحة متناهية :

﴿ وَأن لَّيْسَ للإنسانِ إلاّ ما سَعىٰ ﴾[1] .

ففي هـذه الحالـة ، كيف يمكن استثمار العمـل الذي قـام بـه الآخرون ؟ ولا يمكن أن يكون شأنه ومكانته مفيدان لي أبداً ، ما دام لم تتحقق رابـطة بيني وعمله . ولنرى الآن مـا العلاقـة التي تربـطنـا بمكانته وشأنه ؟

ولا ريب في أن الفيض الإلّهي والألـطاف الإلّهيـة تـمتـعـان الإنسـان ، كُلٌ بمقـدار استحقاقـه ، وأن أي نـوع من تغييـر في روح ونفس الإنسـان يؤدي إلى تغيير في نـزول الفيض واللطف الإلّهيين ، وتشهد آيات القرآن البينات على ذلك :

﴿ قُل ما يَعبَؤا بِكُم رَبّي لَولا دعاءُكُم ﴾[2] .

﴿ إنَّ الله لا يُغيّرُ ما بِقوم ٍ حَتّى يُغيّرُوا ما بَأنفُسِهِم ﴾[3] .

فعلى هذا ، يتحتم على المتوسل أن يبذل جهـوده من أجل أن تهبط وتنـزل الألطاف الإلّهيـة ، وأن يحـدث في نفسـه تبـدلاً ، لكي يحدث تبدلاً أيضاً في البرنامج الإلّهي .

انـطلاقاً من هـذا ، لنرى مـا الـذي يفعله المتـوسـل بـالأنبيـاء والأولياء ، لأن يكون دعاءه مستجاباً ؟

---

(١) سورة النجم : الآية ٣٩ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٧٧ .

(٣) سورة الرعد : الآية ١١ .

أن توسله بأعزاء العتبة الإلٓهية هو من جملة أسباب نزول الرحمة ، وهبوط اللطف الإلٓهي ، ولو لم يكن هذا التوسل ، فإن العلة الناقصة (كإيمان الشخص ، وعمله) لم تكن كافية في نزول اللطف الإلٓهي . إن خلل هؤلاء إزاء موضوع التوسل ، هو كإستشكال الماديين إزاء صلاة المطر ، ومسألة المطر من الله سبحانه وتعالى . إنهم يقولون : إذا كانت الظروف الجوية ملائمة لهطول المطر ، وقد تبخرت مياه البحر بالحد الكافي ، ووصل البخار في الهواء حدَّ الإشباع ، فبالضرورة سيهطل المطر ، وبعكس هذه الحالة ، فلن يتساقط المطر ، سواءً قمتم بالدعاء أو لم تقوموا به .

لقد أجبنا على هذا الخلل وبإسهاب في كتاب « القضاء والقدر في العلم والفلسفة الإسلامية » وبرهنا أن الدعاء المؤثر ، من وجهة نظر الإلٓهيين هو ضمن أسباب هطول المطر ، وهناك ظواهر أخرى . ولو لم يكن هذا الدعاء ، فإن الأحوال الجوية لم تكن كافية في نزول الرحمة ، ولأننا لا نملك معرفة كاملة بصدد أسباب الظواهر ، ولأنه تهمنا فقط العلل المادية من بين العلل جميعها ، فلذا نتصور أن « الدعاء المؤثر » هو خارج « إطار » أسباب الظواهر .

وإننا نجيب بنفس الشيء على السادة الوهابيين . فهم يعتبرون التوسل بمكانة الأولياء أمر غير مُجدٍ ولا مؤثر ، ويتصورون أن المؤثر الوحيد من حيث أهل التوسل ، هو شأن الصالحين ومكانتهم ، فهم يقولون انطلاقاً من هذا : ما العلاقة بين التوسل بالأنفس المحترمة أو بالمكانة والشأن بموضوع استجابة الدعاء ؟! .

بل أن التوسل بالصالحين ، خاصة الأنبياء والأولياء ، هو تبيان

المودة لأعزاء الله تعالى والأنفس الفاضلة . حيث أن الله سبحانه أوجب علينا مودتهم ، وهنا حيث يقول :

﴿ قُل لا أسألكُم عَلَيهِ أجراً إلاّ المودَّةَ في القُربىٰ ﴾[1] .

إنَّ التوسل بأشخاص كهؤلاء يوجد تغيراً في روحنا ونفسنا ، ويؤدي إلى أن يحترم الإنسان كل ما يحترمه هؤلاء ، أن يعتبر حلال هؤلاء وحرامهم حلالاً وحراماً ، وأن يقوم في النهاية بعملٍ ليصبح شبيهاً لهم من جهة واحدة أو من جهات عدة .

ففي هذه الحالة حيث يكون التوسّل نفسه صانعاً للتكامل والتغيير ، أيبقى لنا الحق ثانية لنقول ، أن لا صلة بيننا ومكانة هؤلاء ؟!

وأن نقول بشكل أكثر صراحة : يعتقد الرفاعي وزملائه في الفكر ، أن المتوسل يسأل الله سبحانه أن يعطي من مكانة هؤلاء وشأنهم ، حصة له ، فإنهم يقولون على الفور : أن مكانة هؤلاء وشأنهم كانت ثمرة جهودهم ، ولا تكون نصيباً لغيرهم . في حين لا يسمح أي متوسل أن تتسرب إلى فكره ، فكرة باطلة كهذه . وإن دوي كلام أمير المؤمنين (ع) دائماً في مسامعه . وهنا حيث يقول :

« وإلّا فجناةُ أيديهم لا تكُنْ لِغيرِ أفواهِهِم »[2] .

ومن وجهة النظر الحقوقية ، فأن العمل والجهد يكونان بداية

---

(١) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

(٢) « نهج البلاغة » ، الخطبة ٢٣٠ - (نهج البلاغة ، فيض الإسلام ، الخطبة ٢٢٣) .

لسلسلة من الملكيات أو الحقوق والإختصاصات ، وبشكل لا جدال فيه ، فإن ملك أي شخص وحق أي فردهما ثمرة الشخص نفسه .

بيد أنه ، آخذين بنظر الإعتبار أن إبداء الرغبة بعزيز الله تعالى ، يكون بحد ذاته أساسا للإقتراب من التكامل النفسي واللياقة الروحية . وفي نفس الوقت ، فإن التوسل به يؤدي إلى التجانس الأخلاقي وعمل الأفراد فلهذا يكون دعاءه مستجاباً .

لقد أغضنا النظر نحن عن هذه الإجابة ، ففي النهاية كيف يجري التحكيم بصدد الشفاعات ووساطات عالم المادة الموجودة في أوساط عقلاء وفاهمي العالم ؟ وكيف أنه بتوسيط عزيز لدى الشخص المقتدر ، يغض النظر عن تقصير المذنب ؟ فكيف أن هؤلاء العقلاء في العالم جميعهم يتقبلون عملاً غير صحيحاً كهذا ، ويقبلونه عبر وساطة الأشخاص ؟

أن لا يجري التصور طبعاً ، إننا نعتبر مكانة التوسل بأعزاء العتبة الإلٓهية بمثابة توسيط عزيز أحد الزعماء ؛ بل الهدف هو أن عملاً كهذا هو عمل بعيد عن أن يقبله العقل ، ولن يقول أي إنسان ذو شأن أكبر : هو عزيز ، فما دخلك في الموضوع ؟ بل يعتبر التقرب منه تقرباً من نفسه ، وإن إبداء الرغبة حيال المحبوب ، يفهم منه أساساً لتغير المتوسل الروحي .

إلى هنا تمت دراسة أدلة مخالفي التوسل ، وانتزع سلاحهم تماماً . وقد حان الوقت الآن لأن نبحث أدلة التوسل بالأنبياء والأولياء حسب منظور الكتاب والسّنة .

الأدلة على جواز التوسل

لقد أثبت البحث السابق أن التوسل بالأنبياء والأولياء ليس ممنوعاً أو غير مشروعاً من وجهة نظر القرآن ، بيد أن ما هو واضح تماماً ولا يحتاج إلى توضيح ، هو أن عدم ممنوعية عمل ما ليس كافياً لأن يكون مفيداً ونافعاً . والآن سندرس موضوع التوسل كونه مفيداً ونافعاً ، وذلك من خلال دراسة آيات القرآن والأحاديث الإسلامية ، وسنوضح إنشاء الله تعالى أن شريعة الإسلام المقدسة دعت أنصارها إلى عمل كهذا ، وهو لدى المسلمين أمرٌ مفيد ونافع .

الإستدلال بآيات القرآن الكريم

أن الآية الشريفة التالية تدعونا من بين آيات القرآن ، وبوضوح إلى ابتغاء « الوسيلة » لعتبة الله المقدسة . حيث تقول :

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا اتَّقُوا الله وابتَغُوا إلَيهِ الوَسيلةَ وجاهِدوا في سَبيلِهِ لعلَّكُم تُفلِحونَ ﴾[1] .

إن معرفة فحوى الآية الشريفة ، مرهونة بدراسة موضوعين اثنين :

١ ـ ما هو مفهوم « الوسيلة » في اللغة العربية ؟

٢ ـ هل أن التوسل بالأنبياء والأولياء الإلٓهيين هو مصداقية التمسك بـ « الوسيلة » أم لا ؟

لقد جاءت « الوسيلة » في اللغة العربية بمعنى « ما يتوسَّل

(١) سورة المائدة : الآية ٣٥ .

بِهِ » . وعبّر اللغويون العرب عن هذه الحقيقة .

يقول الراغب الأصفهاني في كتاب « مفردات ألفاظ القرآن » ما يلي .

الوسيلةُ : « التوصُّل إلى الشَّيء برَغبةٍ . . . وحقيقةُ الوسيلةِ إلى الله تعالى مُراعاةُ سَبيلِهِ بالعِلمِ والعبادةِ وتحرِّي مَكارم الشَّريعةِ وهي كالقربة » .

ويكتب « ابن منظور » [محمد بن مُكرَّم] في « لسان العرب » :

« تَوسَّلَ إليه بوسيلةٍ إذا تقرَّبَ إليه وتوسَّلَ إليه بكذا : تقرَّبَ إليه . . . . وهيَ في الأصل ما يتوصَّلُ به إلى الشيء وتقرب به . . . . ويطلقُ على كُلِّ عَمَلٍ خالصٍ سُلِكَ به طريقُ التقرّبِ إلى الله بأداء الفرائض والنّوافِلِ وأنواع التطوُّعاتِ » .

ويقول « مرتضى الزبيدي » في « تاج العروس » ما يلي :

« الوسيلةُ . . . والجمع الوسائِلُ وقال الجوهريُّ الوسيلةَ ما يتقرَّب به إلى الغير » .

لقد وردت في المعاجم اللغوية عبارات كالتي نقلناها أو مشابهة لها تماماً ، كـ « نهاية » ، و «ابن الأثير » وغيرهم ، ونتجنب بدورنا تبيانها .

أن هذا الحشر من نصوص اللغويين أثبت أن المفهوم الحقيقي للوسيلة ، هو نفس البحث عن وسيلة الشيء ، إذا استعملت تارة

بمعنى « القرب » (وليس وسيلة القرب) ، فهو من باب الصدفة أو الإقتضاء ، حيث توجد في الغالب استعمالات مجازية ، ويحتمل أن يكون اقتضاء وسيلة التقرب سبباً للقرب والتقارب ، ويطلقون في اللغة العربية سبباً ، ومسبباً في أحيان أخرى . وقد أشير إلى هذا الموضوع في فن البلاغة .

وتمَّ إلى هنا تذليل العقبة الأولى ، ولكن إلى أن لم يتحقق الموضوع الثاني ، لن يكون القسم الأول وافياً ، لأن هذه الآية تدعونا إلى البحث عن الوسيلة ، ولا ريب في أن أداء الفرائض والمستحبات وتجنب المحرمات والمكروهات ، هي أعظم وسيلة للتقرب إلى مقام الربوبية .

يقول « أمير المؤمنين » ـ عليه السلام ـ في إحدى خطبه حول الوسيلة التي يتوجب على المؤمن التمسك بها ، ما يلي :

« إنَّ أفضلَ ما توسَّلَ به المتوسّلونَ إلى الله (سبحانه) الإيمانُ بهِ وبرسولهِ ، والجهادُ في سبيله ، فإنَّهُ ذروةُ الإسلام ، وكلمةُ الإخلاصِ فإنَّها الفِطرةُ وإقامُ الصَّلاةِ فإنّها المِلَّةُ وإيتاءُ الزَّكاةِ فإنَّها فريضَةٌ واجبةٌ ، وصومُ شهر رمضان فإنَّهُ جُنَّةٌ من العقاب وحجُّ البيت واعتمارُهُ فإنَّهما ينفيان الفقر ويَدحضانِ الذَّنبَ وصِلةُ الرَّحمِ فإنّها مَثراةٌ في المالِ ومَنَاةٌ في الأجلِ وصَدَقةُ السّرِ فإنها تكفِّرُ الخطيئةَ وصدقَةُ العلانيةِ فإنَّها تَدفَعُ ميتةَ السُّوءِ وصنايعُ المعروف فإنها تقي مَصارعَ الهوانِ »[1] .

يزيح الإمام في خطبته هذه ، السُتر عن حقيقة التوسل ، وهو أن

---

(١) « نهج البلاغة » ، محمد عبده ، الخطبة ١٠٦ .

التوسل هو البحث عن وسيلة ، وأن حقيقة التوسل هو عملٌ يشكل أساساً لقرب كمال الإنسان الروحي والمعنوي ، وتطهير الإنسان من سلسلة من الآثام وعوامل البؤس والشقاء .

ولهذا يتوجب علينا في هذا الحقل من الكلام إثبات أن التوسل بأعزاء العتبة الإلٓهية المقدسة ، هو واحد من السنن الإسلامية الذي يستطيع أن يكون كالفرائض والمستحبات ، سبباً للقرب المعنوي ونيل رضى الحق ، وأن يكون في النهاية باعثاً للسعادة والسؤدد . وإلى أن لم يثبت هذا الموضوع من ناحية القرآن الكريم والأحاديث الإسلامية الشريفة ، فلن تكون الكبرى الكلية التي تستخلص من الآية موضع البحث ، مفيدة .

يتألف الإستدلال دوماً من شيئين :

١ ـ الصغرى .

٢ ـ الكبرى .

في هذه الدراسة ، تضع الآية موضع البحث ، الكبرى الكلية في متناولنا وهو أنه يتوجب على المؤمنين تحصيل الوسيلة ، بيد أنه لن تكون الكبرى الكلية مفيدة إلى أن تثبت الصغرى وتتوضح في أن التوسل بأعزاء عتبة الله سبحانه وسيلة وأساس القرب . والآن نشرع في تبيان هذا القسم :

يمكن إثبات هذا الموضوع من خلال (القرآن الكريم ، وسيرة المسلمين ، والأحاديث) :

١ ـ الإستدلال بالقرآن الكريم

لا ريب[١] في أن أداء الفرائض هو من أحد الطرق والوسائل النافذة ، التي تمنح التقرب للإنسان ، وتقرّبه إلى الله تعالى ، وقد صرح بهذه الحقيقة « أمير المؤمنين » ـ عليه السلام ـ في خطبته ، و« ابن منظور » في معجمه لسان العرب ، وغيرهم .

إن إحدى الفرائض الإلّهية وفق نص القرآن الكريم ، هي « المودة في القربى » ، و « موالاة وحب أهل بيت الرسالة » ، والذي أعطى بشكل ظاهري (طبعاً بشكل ظاهري) أجر الرسالة . وهنا حيث يقول :

﴿ قُلْ لا أسألُكمُ عِلَيهِ أجْراً إلاَّ المودَّة في القُربى ﴾[٢] .

تصرح الأحاديث المتواترة وإجماع أغلب المفسرون الإسلاميون ، أن المقصود من « المودة في القربى » هو حب أهل بيت الرسالة ، المودة التي هي جسراً للسعادة وأساساً للتكامل ووسيلة للتجانس والتشابه بين الإنسان وأهل بيت الرسول . ولقد تحدثنا بإسهاب في كتاب « الطريق الثالث »[٣] : الدرس الرابع والخامس والسادس ، حول هذه الآية الشريفة وكيفية كون « المودة في القربى » أجراً ، وتأثير ذلك في تحقيق أهداف الرسالة ، وتكامل الأحبة ،

---

(١) إن ملخص هذا الطريق هو أن التوسل بالنبي الأكرم (ص) وابنائه الصالحين ، هو العمل وفق الآية ودعوة ذي القربى ، وان الدعوة نفسها وإبداء الرغبة ، هي نوع من الوسيلة .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

(٣) صدر هذا الكتاب حديثاً تحت عنوان : « بحوث حول الولاية »

واجبنا على جميع جزئيات الأعذار التي طرحت من قبل الشخص غير العليم بالأمور القرآنية .

فعلى هذا فإن « المودة في القربى » هي من إحدى الفرائض الإلّهية التي أمر بها الله عزّ وجل في القرآن الكريم . ولقد صاغ هذه الحقيقة « محمد بن إدريس الشافعي » (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ / ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م) في إطار قصيدة ، يقول فيها :

« يا أهلَ بَيتِ رَسُولِ الله حبُّكُمُ ،
فَرضٌ مِنَ الله في القرآن أنزلَهُ ،
كفاكُم مِن عَظيمِ القَدرِ إنَّكُمُ ،
مَن لَمْ يُصَلِ عَلَيكُم لا صَلاةَ لَهُ »[1] .

لقد اعتبر القرآن الكريم في إحدى الآيات ، مودة أهل الرسالة إحدى الطرق التي تقود الإنسان إلى رضى الله تعالى . وهنا حيث تقول :

﴿ قُل ما أسألُكُم عَلَيه مِن أجرٍ إلاّ مَن شاءَ أن يتَّخِذَ إلى رَبِّه سبيلاً ﴾[2] .

فكلما وضعنا هاتين الآيتين جنب بعض ، فإننا نتوصل إلى نتيجة مفادها . أن « المودة في القربى » بالشكل الذي أشرنا إليه في السابق ، هي نفس « السبيل » الذي ورد في هذه الآية ، لأنه سبق وأن نوهنا كون ليس المقصود المودة الجافة والجوفاء ، بل الحب الحميم

(١) « الصواعق المحرقة » . طبعة القاهرة ، الصفحة ١٤٦ ، دار الطباعة المحمدية .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٥٧ .

والبنّاء، الذي يكون أساس تجانس الطرفين ، ونفوذ المحبوب في قلب الصديق ، ونتيجة ذلك هو التشابه الخلقي بهؤلاء والتكامل الروحي في ضوء العمل وفق الفرائض وبعيداً عن المحرمات ، وأن مودة كهذه ، هي طريق السعادة الواسع ، وإنّ الهدف من الرسالة هو قيادة الناس إلى هذه السبل والطريق .

وعلى هذا ، فقد ذكر ذلك في الآية الثالثة ، حيث تقول :

﴿ قُل ما سألتُكُم من أجرٍ فَهوَ لَكُم إن أجرِي إلاّ على الله ﴾[1] .

واضح جداً ، أن فائدة مودة كهذه ، والتي هي بنّاءة ولها نتائج وضّاءة كهذه ، تعود إلينا مائة في المائة ، وليس لصاحب الرسالة .

وعلى هذا الأساس يمكن للمودة في القربى أن تكون إحدى الوسائل التي دعانا إليها الله سبحانه وتعالى في الآية موضع البحث ، ولو توسلنا إليه أو إلى أنبيائه الصالحين ، فإننا في الواقع نتمسك بوسيلة كهذه ، ونقول :

« اللّهُمَّ إنّي أتوَسَّلُ إليك بِنَبِيّكَ مُحَمَّدٍ (ص) وَآلِهِ » .

وعلى أية حال ، فإننا نقوم بعملٍ منطبق على موازين القرآن الكريم[2] .

إن أوضح دليل على أن النبي الأكرم وأصحابه ، هم من مصاديق

(١) سورة سبأ : الآية ٤٧ .

(٢) وباختصار يقولون ، يتوسل هذا الكلام بدعوتك وعلاقتك ، وأن إبداء رغبة كهذه ، هي وسيلة بحد ذاتها والتي أُمرنا بها .

« الوسيلة » ، هما قصيدتان معروفتان نقلهما ابن حجر الهيثمي عن الإمام الشافعي في كتاب « الصواعق المحرقة » ، حيث تقول :

آل النبي ذريعتي وَهُم إليه وَسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بِيدي اليمين صحيفتي[1]

عندما سأل المنصور ، الإمام المالك عن كيفية زيارة الرسول الأكرم (ص) ، قائلاً :

يا أبا عبد الله أستَقبِل القبلةَ وأدعُوا أم أستقبِل رسولَ الله صلى الله عليه وآله ؟

فأجاب المالك قائلاً :

« لِمَ تَصرِفُ وجهَك عَنه وهُو وسيلَتُك ووسيلةُ أبيك آدمَ (عليه السلام) إلى الله يومَ القيامةِ بل إستقبله واستشفع به فيشفعك الله . قال الله تعالى ﴿ ولو أنهم إذ ظَلَموا أنفُسَهم ﴾ »[2] .

يقول السمهودي :

« فانظُر إلى هذا الكلامِ مِن مالكٍ وما اشتَمَلَ عليه مِن أمرِ الزيارةِ والتوسلِ بالنبيّ واستقبالِه عندَ الدُعاءِ وحسنِ الأدبِ التامِ معه » .

ويمكن أن نقول آخذين هذه الشواهد والكلمات بنظر الإعتبار ،

---

(١) « الصواعق المحرقة » ، الصفحة ١٧٨ ، طبعة مصر ، دار الطباعة المحمدية .

(٢) « وفاء الوفا » المجلد الثاني ، الصفحة ١٣٧٦ .

أن الأنبياء ورجال التقوى هم إحدى الوسائل التي أمرنا القرآن الكريم ، التوسل بها .

خاصة إذا وصلتنا روايات عبر أهل البيت في تفسير الوسيلة ، أن تلحق بالذي نقلناه ، والرجوع في هذا المجال إلى « تفسير البرهان »[1] .

٢ ـ الإستدلال بسيرة المسلمين

يتضح من خلال الرجوع إلى سيرة مسلمي صدر الإسلام ، أن التوسل بالصالحين والطاهرين كان برأيهم إحدى مصاديق أفراد « الوسيلة » ، حيث أمر الله تعالى به ، ويمكن أن يكون هذا الموضوع مع الأحاديث التي وصلت عن أهل الرسالة ، إعلاناً عن رأي المسلمين في العالم (فيما عدا الوهابيون) ، ولن يكون لمخالفة هذه الفئة التي خالفت موضوع التوسل منذ القرن الثامن الهجري ، ضرراً . والآن سوف نتناول سيرة المسلمين والأحاديث الواردة في هذا المجال . سنبدأ أولاً بسيرة المسلمين ، ثم نشرع في بيان الأحاديث .

أ : التوسل بالعباس عَمّ الرسول الأكرم (ص) في مضامير مختلفة

١ ـ يكتب « ابن الأثير عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري » ، (المتوفي في سنة ٦٣٠ هـ) ، في كتاب « أسد الغابة في معرفة الصحابة » :

---

(١) « تفسير البرهان » ج ١ ، الصفحة ٤٦٩ .

وَاستَسقىٰ عُمرُ بنُ الخَطّابِ بالعبّاسِ عامَ الرَّمادةِ لَمَّا اشتدَّ القحطُ فَسَقاهُم الله تعالى به واخصبَتِ الأرضُ فقالَ عُمَرُ هذا : والله الوسيلةُ إلى الله والمكانُ مِنهُ وقالَ حَسّانُ :

سَالَ الإمامُ وقد تتابَعَ جَدْبُنا
فَسَقى الغمامُ بِغُرَّةِ العَبّاسِ
عَمَّ النَّبِيَ وَصُنْو والِدِه الَّذي
وَرِثَ النَّبِيَّ بِذلِكَ دونَ النَّاسِ
أحْيَا الإلهُ بِهِ البِلادَ فأصبَحَت
مُخضَرَّةَ الأجنابِ بعد اليأسِ

وَلمّا سُقِي النّاس طَفِقُوا يتَمسَّحون بالعبّاسِ ويقولُونَ هنيئاً لكَ ساقِي الحرمينِ »[1] .

إن ملاحظة هذه القطعة التاريخية ، والتي ورد قسم منها في « صحيح البخاري » أيضاً تدلنا على تفسير الآية ، وهو أن إحدى مصاديق «الوسيلة» هي توسل بالذوات المحترمة وأصحاب الشأن، والتي تكون باعثاً للقرب وسبب الوقارة في الداعي والمتوسل ، فما أوضح من هذا التعبير ، حيث قال :

« هذا والله الوَسيلَةُ إلى الله والمكانُ مِنهُ » .

٢ ـ يكتب « القسطلاني »[2] أحمد بن محمد بن أبي بكر ،

---

(١) « أسد الغابة » ، المجلد ٣ ، الصفحة ١١١ ، طبعة مصر .

(٢) يقال القسطلاني أحياناً لـ « أحمد بن علي بن حجر » (٧٣ ـ ٨٥٣ هـ) ، بيد أن =

معاصر « جلال الدين السيوطي » المتوفي في سنة ٩٢٣ في كتاب « المواهِبُ اللَّدُنيةِ بالمنحِ المحمّديَّةِ في السّيرةِ النّبويَّةِ » المطبوع في مصر :

« أنَّ عُمَرَ لمَّا استَسقى بالعبّاسِ قالَ يا أيُّها النّاسُ إنَّ رسُول الله (ص) كان يَرى للعبّاس ما يَرى الوَلد لِلوالِد فاقتدُوا به في عَمِّهِ واتَّخذوهُ وسيلةً إلى الله تعالى فَفيهِ التصريحُ بالتَّوسُّلِ وبهذا يبطُلُ قَولُ مَن مَنعَ التّوسُّلَ مُطلَقاً بالأحياءِ والأمواتِ وَقَولُ مَن مَنَعَ ذلِكَ بغيرِ النّبيِّ »[1] .

٣ ـ فليس « القسطلاني » إن جاء بها لوحده في « المواهب » ، وإنما ذكر أيضاً « شارح المواهب » ، « محمد بن عبد الباقي مالكي الزرقاني » (١٠٥٥ ـ ١١٢٢) ، نفس هذه العبارات في مجال آخر .

فهو يكتب :

« كانَ يَرىٰ للعبّاس . . . يُعظِّمهُ ويفخِّمهُ ويبرّ قَسَمَهُ فاقتدُوا ـ برسولِ الله في عَمِّهَ العبّاسِ واتّخِذوه وَسيلةً إلى الله فيما نَزَلَ بِكُم » .

= الصحيح هو العسقلاني ، وليس القسطلاني . ورغم أن أستاذنا الفاضل المرحوم السيد حسن المدّرس في المجلد الرابع الصفحة ٤٥٨ من كتابه النفيس « ريحانة الأدب » ، خلط هذين الإسمين معاً ، بيد أنه ذكر ذلك بشكل صحيح في المجلد الثامن ، الصفحة ٤٧٠ . وقد سجل ذلك « ابن الهيثمي » « الهيتمي » أيضاً في المجلد الثامن ، الصفحة ٤٧١ ، و« الهيتم » منطقة في مصر . وقد ولد ابن حجر الهيتمي في سنة ٩٠٩ هـ ، وتوفي في سنة ٩٧٣ .

(١) العودة إلى « شرح المواهب » المجلد ٣ ، الصفحة ٣٨٠ ، طبعة مصر .

٤ ـ لقد جاء « ابن حجر العسقلاني » قبل القسطلاني ، نفس هذه العبارات في شرح البخاري بإسم « فتح الباري في شرح البخاري » . حيث يكتب :

« وخَطَبَ النّاسَ عُمَرُ فَقالَ إنَّ رسولَ الله كانَ يرى للعبّاسِ وَ . . . . واتّخذوهُ وسيلَةً فَما بَرِحُوا حتّىٰ سقاهُمُ الله » .

ثم يقول : « يُستفادُ من قِصَّةِ العبّاسِ استحبابُ الإستشفاعِ بأهلِ الخيرِ والصَّلاحِ وأهلِ بيتِ النُّبوَّةِ وفيه فضلُ عبّاسٍ »[1] .

٥ ـ ينقل البخاري في صحيحه :

« إنَّ عُمَرَ بنَ الخطّابِ كانَ إذا قَحِطُوا استسقى بالعَبّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ رَضيَ الله عَنهُ ، وقالَ اللهُمَّ كنا نَتوسَّلُ إليكَ بنبيّنا فتسقينا وإنّا نَتوسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نبيّنا فاسقِنا قال فيسقونَ »[2] .

لا ريب في صحة وإجماع هذا الكلام ، ولم يشك الرفاعي أو يتردد في صحة هذا الكلام ، رغم أنه ينفي وبأشكال مختلفة أحاديث التوسل المتواترة ، ويقول :

«إنَّ هذا الحديث[3] صحيحٌ . . .

---

(١) « فتح الباري في شرح البخاري » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٤١٣ ، طبعة لبنان ، مكتبة دار المعرفة .

(٢) « صحيح البخاري » ، باب صلاة الإستسقاء ، طبعة محمد علي صبيح ، المجلد ٢ ، الصفحة ٣٢ .

(٣) كان من الأجوز أن يقول : « إنَّ هذا التاريخ صحيحٌ » ، لأن يكون في اصطلاح الحديث حاكياً عن كلام الرسول الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله ـ وأن بحثنا هو أيضاً حول الأحداث التاريخية ، وسوف نأتي بأحاديث التوسل لاحقاً .

فإن صحَّ هذا الجَوازُ شَرعاً فَنَحنُ مِن أسبَقِ النّاسِ إلى الأخذِ بهِ والعَمَلِ بمقتضاهُ » .

أمّا من المؤسف ، أنه يريد من خلال عراقيل بني إسرائيل أن يشوّه دلالة الحديث ، وأن يعتبره بمثابة التوسل بدعاء الأخ المؤمن ، وليس التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين أنفسهم .

ولنتأمل الآن بدقة مضمون الحديث ، ليتضح أن الحديث متعلق بأي من التوسلين :

١ ـ تحكي لفظة البخاري عن أن المسلمين يتوسلون بشأن « الإستسقاء » بشخص « الرسول الأكرم » ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ وبمكانته ومنزلته ، ليس فقط بدعاء الرسول ، كما كان الخليفة يتوسل بمكانة ومنزلة العباس وصلة القربى التي كانت تربطه بالنبي ، فإنهم كانوا يتخذون منها وسيلة لإستجابة دعاءهم . إن تبرير الحديث عبر هذا الطريق الذي كان فيه يتوسل المسلمون والخليفة كذلك بدعاء النبي ودعاء العباس ، هو تزوير الحديث تماماً وقلب فقاده الظاهري ، ولا يجوز لنا أن نرفع أيدينا عن ظاهره ما دام الدليل القطعي ليس على خلاف ظاهر الكلام ، وإلاّ سيكون أساس الشريعة (هنيئاً) عرضة للتأويل .

٢ ـ لو أخذنا العبارات التي نقلت عن الخليفة في موضوع التوسل بالعباس وهو أنه كان يقسم بالله تعالى ، ويقول :

« هذا والله الوسيلَةُ إلى الله والمكان منهُ »[١]

---

(١) أسد الغابة ، المجلد الثالث ، الصفحة ١١١ .

يتضح أن واقع التوسل بهذا الصدد ، هو التوسل بمقام « العباس » عند الله سبحانه .

٣ ـ لقد نقل « شمس الدين أبو عبد الله محمد بن النعمان المالكي ، المتوفي في سنة ٦٨٣ ، في كتابه « مصباح الظلم في المستغيثين بخير الأنام » عن ابن العباس ، نقل طريقة توسل عمر :

« اللّهُمَّ إنّا نستقيك بِعَمِّ نبيّك (ص) ونَستشفِعُ إليك بشيبتهِ فسقُوا وفي ذلِك يقولُ عبّاسُ بن عتبةِ بن أبي لَهَب :

بِعَمي سَقى الله الحِجازِ وأهلَهُ غَشيَّةً يَسقى بشيبِه عُمَـرُ[1]

٤ ـ لقد أنشد « حسّان بن ثابت » شعراً في هذا المجال ، وقال :

« فَسَقَى الغَمام بِغُرّةِ العبّاسِ » .

وبملاحظة هذه الطائفة وطائفة أخرى من الأشعار ، لا يبقى مكاناً للشك في أن هدف التوسل كان بمقام ومكانة العباس .

٥ ـ يقول ابن حجر العسقلاني في كتاب « فتح الباري في شرح حديث البخاري » : قال العباس في دعائه :

« وقد تَوجَّه القومُ بي إليكَ لمكاني مِن نبيّكَ »[2] .

فأية جملة أبلغ وأفصح من أن هؤلاء اهتموا بمنزلة ومكانة

---

(١) « وفاء الوفا » ، المجلد الثالث ، الصفحة ٣٧٥ ، نقلاً عن « مصباح الظلام » .
(٢) « فتح الباري » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٤١٣ ، طبعة دار المعرفة ـ لبنان .

العباس ، واتخذوها وسيلة لأنفسهم ؟

٦ - قالوا منذ القدم :

« تعليقُ الحُكمِ بالوصفِ مُشعِرٌ بالعِلية » .

وإذ يقـول القرآن الكريم :

﴿ وَعَلى المولُودِ لَهُ رِزقُهُنَّ ﴾(١) .

فـإنـه بسبب تبيـان علة الحكم ، ولأن النسـاء أنجبن للرجـال أطفالاً ، فلا مناص عليهم جبراً تهيئة نفقات معيشة هؤلاء .

وإذا قلنا : إحترم العالِم ، فهو بسبب علمه .

وإذا يقول عمر : « إنّا نَتوسَّلُ إليك بِعَمِّ نبيِّكَ » . فهو يـريد أن يـوصل علة التـوسـل إلى العبـاس ، أنـه لمـاذا تـوسّلنـا إليـه من بين الأشخاص الآخرين ، كما قال العباس نفسه : « لِمَكاني مِن نبيِّكَ » .

يمكننا لو أخذنا كل هذه الأمور بنظر الإعتبار ، أن نقول بشكل قاطع ويقين ، أن مسلمي صدر الإسلام كـانوا يتـوسلون بالأشخـاص الطاهرين والصالحين .

الإجابة على مجموعة من التساؤلات

لقد حان الـوقت الآن لنجيب على البعض من التساؤلات التي تـطرح في جـوانب الحـديث ، وجـاء بهـذه الأسئلة العـالم المكي

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٣ .

« أحمد بن زيني دحلان » في كتاب « خلاصة الكلام » وأجاب بدوره عليها ؛ بيد أنه من المؤسف أن مؤلف « التوصل » طرحها ثانية دون أن يأخذ ما سبق طرحه بنظر الإعتبار ، وجسَّم صورة من عراقيل بني إسرائيل . وإليكم الأسئلة :

السؤال الأول :

١ ـ « لَو كانَ قصدُ الخليفةِ ذاتِ العبّاس لكانَ ذاتُ النَبيّ أفضَلَ وأعظَمَ وأقرَبَ إلى الله مِن ذاتِ العبّاسِ بِلا شكٍ ولا ريبٍ مثبت أنَّ القَصدَ كان الدُّعاءَ وأنَّ عمليَّة الإستسقاء مؤلَّفةٌ عُنصرَين ، طَلَبِ الدُّعاءِ ، والدعاء فَلَمّا توفِّي ، فَقَدَ عُنصرُ الدُّعاء الّذي بدُونِهِ لا تتِمُّ عَمليَّةُ الإستسقاء » .

إننا نعيد عليهم نفس هذه الإسئلة ، ونقول إذا كان المقصود هو التوسل بدعاء العبّاس ، فقد كان لهم بين الصحابة أشخاص أسمى وأفضل ، أكثر نقاءاً وزهداً منه ، فلماذا اللجوء إلى شخص في حالة وجود أفضل منه . وإذا كان اختيار العباس بسبب قرابته للنبي الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ، فقد كان لعلي بن أبي طالب (ع) أرفع صلة القرابة مع النبي : كان ابن عمه ، وصِهره ، وأما من حيث الصلاح والعفاف ، والتقوى والزهد وغيرها من الخِصال الإنسانية البارزة ، فقد كان لا مثيل له ، فلماذا ترك الخليفة علياً الذي كان من جميع الأوجه أكثر شمولية وكمالاً ، والتجأ إلى غيره الذي لم يكن يبلغ مستواه أبداً ؟

إن الفارق الوحيد الذي كان يتحلى به علي (ع) دون العبّاس ، هو أن العبّاس كان عمّ النبي (ص) ، وكان علي ابن عمّه ، وعلى هذا

فقد كان علي (ع) صِهره ونسيبه ، وكان حسب نص القرآن الكريم ، يشكّل نفس النبي الأكرم (ص) وروحه[1] ، وإن نواحي أمير المؤمنين الإيجابية كانت تفوق العبّاس بدرجات .

وباختصار ، فليس هذا بسؤال يكون موجهاً إلى التوسل بالأشخاص ، بل هذا السؤال نفسه في التوسل بالدعاء مطروح أيضاً ، وأن جواب كلا السؤالين واحد ، وهو أنه لا يتوجب دوماً أن ينساق الإنسان في جميع الأمور نحو الأفضل ، بل ورغم الأسباب والأوجه ، فهو ينساق وراء الجدير مع وجود الأجدر ، ويمكن أن يكون كبر سن العباس وحداثة الإمام نسبة إليه قد أدى إلى أن يمد الخليفة يده إلى العباس مع وجود الإمام .

ناهيك عن هذا ، فلو جرى التمحص في نص خطاب عمر والعبارة المنقولة عن العباس ، يتجلى أن روح الموضوع كان التوسل إلى النبي (ع . وأن التوسل إلى العبّاس هو خلاف التوسل إلى النبي الأكرم (ص) ، وقد بحث في الحقيقة من خلال هذا الطريق التوسل إلى النبي .

لقد قال الخليفة ما يلي : « إنّا نَتوسَّلُ إليكَ بِعمِّ نبيِّكَ » . وقال العباس أيضاً في الدعاء الذي نقل عنه : « وقَد تَوجَّهَ القَومُ بي إليكَ لمكاني من نبيّكَ » .

---

(١) لقد اعتبر الإمام علي ـ عليه السلام ـ في الآية القرآنية (المباهلة) ، « نفس وروح الرسول الأكرم (ص) » . الرجوع إلى « سورة آل عمران » ، الآية ٦١ . لا يوجد بهذا الصدد اختلاف بين المفسرين .

أن التمحص في هذه الكلمات يرّسم لنا حقيقة التوسل إلى العباس ، حيث كان للتوسل إليه باطن وظاهر ، وكان ظاهره هو العباس ، أما باطنه وداخله فكانت شخصية النبي الأكرم (ص) الرفيعة المكانة .

فعلى هذا ، إنّ العدول عن النبي إلى العبّاس ليس دليلاً على أن التوسل بالشخص اللاّحي في الحقيقة غير ممكن أبداً ، سواء كان التوسل إلى شخصه أو إلى دعائه ، وليس دليلاً على أن التوسل إلى العبّاس كان توسلاً إلى دعائه ، وليس إلى ذاته .

السؤال الثاني :

تصرّح عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وأنس بن مالك أن أسلوب توسل المسلمين إلى النبي الأكرم (ص) في موضوع الإستسقاء كان أنهم يتذمرون من عدم هطول الأمطار ، وكان النبي أحياناً يدعو لوحده ويهطل المطر ، كما جاء في رواية أنس بن مالك ، وكان يصاحب الدعاء أحياناً بالصلاة .

فعلى هذا ، يجب أن يكون توسل عمر بالعباس هكذا .

الإجابة :

لتدّعي عائشة ولا أنس أن استسقاء المسلمين كان بهذه الصورة في جميع الحالات والسنوات ، ولم يكن من أسلوب آخر ، بل أن كليهما ينقلان أحداثاً شخصية ، وأن استنباط الأحكام الكلية من هذين الحديثين ليس بالأمر اليسير . وإليكم عبارة كلا الحديثين :

تقول عائشة :

« شَكَا النّاسُ إلى رَسُولِ الله قحوطِ المطَرِ فأمَرَ بمنبرٍ فوُضِعَ له بالمُصلّى .... » .

« إنَّ رجلاً دَخَلَ المسجدَ يَومَ الجُمعةِ ورسولُ الله قـائِمٌ يخطِبُ فقالَ يا رسولَ الله هَلكَتِ الأموالُ وانقطعتِ السُّبُلُ ... » .

فعلى هذا فإن هذين الحديثين لا يصرحان على التوسل في زمن « رسول الله » ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كـان بتلك الصورة دومـاً ، لأن هذين الحديثين (لـو افترضنـا صحتهما) لم يكـونا نـافيين لصور أخرى .

السؤال الثالث :

ينقل « ابن حجر العسقلاني » في كتاب « فتح الباري » ، دعاء العبّاس بعد توسل عمر ، بهذه الصورة :

« أللّهُمَّ إنَّهُ لَم يَنزِل بلاءٌ إلاّ بذَنبٍ ولَم يكشف إلاّ بتوبةٍ وَقَد تَوجَّهَ القَومُ بي إليكَ لِمكاني من نَبيِّكَ ... »[1] .

إن هذا القسم يحكي عن أن توسل الخليفة هو بدعاء الشخص الحي ، وليس التوسل بالشخص نفسه أو بشخصيته .

الجــواب :

أولاً : لم ينقل البخاري في صحيحه ، في نقل الحديث شيء

---

(١) « فتح الباري » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٤١٣ ، طبعة دار المعرفة ـ لبنان .

غير ما نقلناه نحن في مستهل البحث . فلو كان هناك من دعاء بعد توسل عمر ، كان لزاماً عليه أن ينقله ، وألّا يخون عالم الحديث .

إن قول البخاري ظاهرياً هو أن دعاءه بعد توسل عمر أصبح مستجاباً ، وفي الحال هطل للناس المطر ، كما يقول :

« وإنّا نَتوسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نَبِيِّنا فاسقِنا . قال : فَيُسقَونَ » .

فهل صحيح أن لا ينقل البخاري الجزء الأعظم من الحديث وسبب هطول المطر الذي كان نتيجة دعاء العبّاس ، وأن ينقل الموضوع بشكلٍ يكون قسمه الأعظم لصالح الخليفة ؟!

ثانياً : ينقل ابن حجر العسقلاني عن « الزبير بن بكّار » (أحد أحفاد الزبير بن العوّام) ، وناهيك عن أن الزبير بن بكّار كان منحرفاً عن أهل بيت علي ، فقد نقل أحاديث مفتعلة في فضيلة جدّه عبد الله الزبير[1] ، الذي توفي في سنة ٢٥٣ بمكة . وبين وفاته و« عام الرمادة »[2] . فاصلة زمنية تقدر بمئتي وخمس وثلاثون سنة . ويتوجب علينا الآن أن نرى بأي سند نقل هذا الموضوع عن العباس . والمؤسف أنه لا يوجد كتاب الأنساب[*] في عصرنا الحاضر ، لكي نستند عليه ، ولم يذكر سنده ابن حجر العسقلاني ، فكيف يمكن في هذه الحالة الإستناد على نقلٍ كهذا ؟

---

(١) « قاموس الرجال » ، المجلد ٤ ، الصفحة ١٥٠ ـ ١٥١ ، نقلاً عن « شرح الحديد » .

(٢) كان « عام الرمادة على ضوء تصريح ابن حجر العسقلاني في سنة ١٨ الهجرية ، ولن يهطل المطر لمدة تسعة شهور بالكامل .

(*) الأنساب ، معجم تراجم مرتبة مواده على الألقاب والأنساب ، للسمعاني ـ م .

لقد قام الرفاعي في جميع روايات « التوسل » (بوضع المنشار على الخشخاش) [مثل فارسي] ويعني أنه غاص في جزئيات الموضوع ، وأضعف بذلك أحاديث التوسل المتواترة ، من حيث السند (في حين أن ليس السند مطروحاً في الأحاديث المتواترة ، بل إنه عندما يكون مجموع الأحاديث المفيدة مقرة ويقينية ، يكفي أن يحتج عليها ، حتى ولو كانت الأسانيد جميعها أو أغلبها غير صحيحة) . بيد أنه ، وبكل المصاعب في أحاديث التوسل بهذا المجال ، استسلم مغمض العين والأذن ، إلى نقل ابن حجر عن زبير بن بكّار ، ولم يخطر بباله أبداً أن يلاحظ اسناد ذلك .

ثالثاً : فهل أن لهذين النوعين من التوسل تناقضاً الواحد مع الآخر ؟ أي مانع من أن يتوسل عمر بشخصه فقط ، وأن يقوم العبّاس أيضاً بالدعاء من أجل تحكيم الإجابة ؟ إن دعاء العبّاس لا يحول دون أن يقوم الناس بالتوسل بشخصه وشخصيته .

والحقيقة هي أن جميع المحدّثين نقلوا هذه الأحاديث تحت عنوان « استسقاء » عمر ، واحتسبوها على عمر . كل ما هنالك هو أنه اتخذ من العباس وسيلة له في استسقائه ، بدليل أنه قرأ الخطبة ، وتكلم حول مقام العبّاس ، ثم أضاف :

« اللّهُمَّ إنّا كُنّا نَتوسَّلُ إليكَ بنَبِيِّنا ، فَتُسقينا ، وإنا نَتوسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نَبِيِّنا فاسقِنا . قالَ : فَيُسقونَ » .

لقد كان في الحقيقة ، ركن الإستسقا وجُلّ حقيقته على كاهل توسل الخليفة بالعبّاس ، وإن كان العبّاس يقوم بالدعاء ، لكان عمل الإستسقاء لأنجز ، ولهذا يقول المحدثون (فيما

عـدا الـزبيـر بن بكّـار) ، « فيسقـون » ، وإن كـان العبـاس قـد قـام بالدعاء ، لكان عمل الإستسقاء في المرتبة الثانية ، ولم يكن له بذلك أية صلة بالخليفة .

ب : توسّل صفيّة إلى النبي الأكرم (ص) :

لقد أنشدت « صفية بنت عبد المطلب » عَمٍّ النبي الأكرم (ص) أشعاراً بمناسبة رحيل الرسول (ص) ، نورد منها ما يلي :

« ألا يـا رَسُـول الله أنـتَ رَجـاؤُنـا
وَكُـنـتَ بِـنـا بـرّاً ولَم تـك جـافـيـاً
وكُـنـتَ بِـنـا بَـرّاً رَئُـوفـاً نـبـيّـنـا
لِيَبـكِ عليـك القَـومُ مَن كـانَ بـاكيـاً »[1]

يستنتج من هذه القطعة الشعرية التي ألقيت في محضر صحابة الرسول الأكرم (ص) ، ونقلها المؤرخون وكتّاب السيرة ، يستنتج منها ما يلي :

أولاً : إن التكلم مـع الأرواح ، وبالأحـرى مخاطبـة الـرسـول الأكـرم (ص) بعد وفـاته ، كـان أمراً جـائـزاً وشـائعـاً ، وليست هـذه المخاطبة ، على العكس مما يفكر به الوهابيين ، شركاً أو عبثاً . كما

---

(١) « ذخائر العقبى ، في مناقب ذوي القربى » ، الصفحة ٢٥٢ ، تأليف « حافظ محب الـدين ، أحمـد بن عبـد الله الـطبـري » (٦١٥ ـ ٦٩٤ هـ) ، مـطبعـة مكتبـة القدس ـ القاهرة . و « مجمع الـزوائد » المجلد التـاسع ، الصفحـة ٣٦ ، الطبعـة الثانية ـ تأليف حافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي .

قال الله سبحانه في كتابه الكريم : ﴿ ألا يا رسول الله ﴾ .

ثانياً : لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام ، بمقتضى العبارة « أنتَ رجاؤُنا » ، أمل المجتمع الإسلامي في كل الأحوال ، حتى أن صلته بنا لم تنقطع بعد وفاته . (لقد وردت طبعاً في كتاب « ذخائر العقبى » ، الذي نقلنا الأشعار عنه ، وردت عبارة « كُنتَ رجاؤُنا » بدلاً عن « أنتَ رجاؤُنا ») .

الإجابة على السؤالين

لقد حاول مؤلف « التوصل » لكونه لم يستطع أن يشوّه سند هذه القطعة التاريخية ، أن يحصل على موضع للإنتقاد . فهو ينقل عن كتاب « مجمع الزوائد » لحافظ الهيثمي ، ما قوله :

« رَوَى الطبرانيُّ بإسنادٍ حسنٍ عن عروةِ ابن الزّبير قال : قالت صفيّةُ بنتُ عبدِ المطّلبِ ترثي رَسُولَ الله » .

فعلى هذا يقال :

« لقد ولد عُروة ابن الزبير في سنة ٢٩ الهجرية ، وتوفيت صفيّة أم أبيه في سنة ٢٠ الهجرية . فضلاً عن ذلك ، لم ينقل ابن هشام في سيرته ما أنشدته صفيّة بنت عبد المطلب وهي ترثي النبي الأكرم (ص) » .

الإجابة :

لو كان « عروة بن الزبير » شخصاً أجنبياً ، لأمكننا أن نسأله من

أين حصل على هذه الأشعار ، بيد أنه عندما أصبح أبناً للعائلة المذكورة ، كان سيعلم بالتأكيد عن إنشاد جدته في رثاء الرسول الأكرم (ص) ، وذلك عبر تلك العائلة ، وسيعرف صواب وعدم صواب ذلك أحسن من الآخرين ، ويستبعد جداً أن ينقل شعراً كهذا عن لسان جدة أمه بدون بحث وتمحص ، ولا بد أن هذا الشعر كان معروفاً في وسط العائلة ، فعلى هذا لم يذكر واسطة للأادريون .

بيد أن عدم إتيان ابن هشام بقصيدة صفيّة في سيرته ، لا يلحق أذى بالموضوع ، لأنه جاء بقصيدة حسان بن ثابت فقط في سيرته ، في حين أن القرائح العربية لم تسكت أمام مصاب كهذا ، وأنشدت الأشعار في رثاء الرسول الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ بدليل أن لـ « عاتكة بنت صفيّة » قصيدة ، نقلها « ابن سعد » في « كتاب الطبقات الكبير »[1] ، بيد أن ابن هشام لم يشر إلى ذلك .

* * *

٣ ـ الإستدلال بالأحاديث

الحديث الأول : حديث عثمان ابن حُنيف

إرتداد بصر الأعمى نتيجة توسله إلى النبي الأكرم (ص) :

« إنَّ رجُلًا ضَريراً أتى إلى النَّبيّ (ص) فَقالَ إدعُ الله أن يعافيني فَقالَ إن شِئتَ دَعَوتُ وإن شِئتَ صَبرتَ وهُوَ خَيرٌ قالَ فادعُهُ ، فأمَرَهُ أن يتوضأ فيحسنَ وضُوءهَ ويُصلّي ركعتينِ ويَدعُو بهذا الدعاء :

(١) « كتاب الطبقات الكبير » ، المجلد الرابع ، الصفحة ٣٢ ، طبعة بيروت .

أللّهُمَّ إنّي أسألُكَ ، وأتوَجَّهُ إليكَ بنبيّكَ مُحمَّـدٍ نبيّ الرَّحمـة يا محمَّد إنّي أتوَجَّهُ بِكَ إلى رَبّي في حاجَتي لتقضِىَ ، اللّهُمَّ شَفّعهُ فِيَّ . قال ابنُ حُنَيفٍ فوالله ما تفرقنا وطالَ بِنا الحديثُ حَتّى دَخَلَ علينا كأن لَم يَكُنِ به ضرٌّ » .

كلام عن سند الحديث :

لا شك في اتقان وصحة سند الحـديث ، واعتبر « ابن تيميـة » إمام الوهابية هذا السند صحيحاً ، وقال أن المقصود من « أبي جعفر » الموجود في سند الحديث ، هو « أبو جعفـر الخطمي » نفسـه ، وهو موضع « ثقة »[1] .

يقـول الكاتب الـوهابي المعـاصر « السيـد الرفـاعي » ، والذي يحـاول أن يحط من مكـانـة أحـاديث التـوسـل ، يقـول حول هــذا الحديث :

« لا شَكَّ أنَّ هذا الحَديثَ صَحيحٌ ومَشهُورٌ وقد ثَبَتَ فيهِ بلا شكٍّ ولا ريبٍ إرتداد بَصَرِ الأعمى بدعاءِ رسُولِ الله »[2] .

إنَّ ما يقوله كونه أبصر بدعاء الرسول الأكرم (ص) ، وهو مقولة تعيين النزح أثناء الوعد ، بل أنه شفي في ضـوء الدعـاء الذي علّمـه الرسول الأكرم (ص) . . وستقرؤون تفاصيل ذلك .

---

(١) لقد وصف « أبو جعفر » في المسند لأحمد بن حنبل بالمخطمي ، رغم أن لفظة « أبو جعفر » جاءت في صحيح ابن ماجة (محمد بن يزيد القزويني) بصورة مطلقة .

(٢) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ١٥٨ .

يقول الرفاعي في كتاب « التوصل » : لقد نقل هذا الحديث (النسائي ـ حمد بن علي شعيب أبو عبد الرحمن ـ) و (البيهقي) و (الطبراني) و (الترمذي) و (الحاكم) في مستدركهم ، وأن الشخصين الآخرين بدلاً عن جملة « وشفّعهُ فيَّ » نقلاً كالتالي : « اللّهُمَّ شَفّعني فيه »[1] .

يكتب دَحلان (أحمد بن زيني) في « خلاصة الكلام » :

« لقد نقل هذا الحديث ، البخاري في تاريخه ، وابن ماجة القزويني والحاكم في المستدرك بأسانيد صحيحة ، وجلال الدين السيوطي في جامعه »[2] .

إنَّ مؤلف هذا الحديث ينقل عن الأسانيد التالية :

١ ـ « السنن لإبن ماجه القزويني »[3] .

ينقل « ابن ماجه » عن « أبي إسحاق » أن :

« هذا حَديثٌ صحيحٌ » .

ثم يضيف :

أن هذا الحديث نقله الترمذي في كتاب « أبواب الأدعية » ، وقال :

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٠٩ .

(٣) « سنن ابن ماجه » ، المجلد ١ ، الصفحة ٤٤١ ، منشورات دار إحياء الكتب العربية ـ لعيسى البابي وشركاءه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، تسلسل الحديث ١٣٨٥ .

« هذا حَديثٌ حَقٌ صحيحٌ غَريبٌ » .

٢ - « المَسند لأحمد بن حنبل »[1] ، لقد نقل هذا الحديث عن ثلاثة طرق .

٣ - « المستدرك للحاكم »[2] ، وبعد أن ينقل الحديث ، يقول :

« هذا حَديثٌ صَحيحٌ على شَرطِ الشَّيخَينِ وَلَم يُخرِجاه » .

٤ - « الجامع الصغير »[3] ، تأليف السيوطي ، نقلاً عن « الترمذي » و « المستدرك » للحاكم .

٥ - « تلخيص المستدرك » تأليف الذهبي « مصطفى بن حنفي) المتوفي سنة ٧٤٨ هـ ، والمطبوع في هامش المستدرك .

٦ - « التاج »[4] ، لقد ضمّ هذا الكتاب أحاديث « الصحاح الخمسة » فيما عدا « ابن ماجه » ، فعلى هذا لا مجال في سند الحديث للبحث والنقاش ، المهم هو دلالة الحديث على كلامنا .

ضعوا هذا الحديث في متناول شخص ملم باللغة العربية . شخص يكون ذهنه خالياً من نقاشات الوهابيين بصدد مسألة التوسل ،

---

(١) « مسند ابن حنبل » ، المجلد ٤ ، الصفحة ١٣٨ ، عن المسند لعثمان بن حنيف ، طبعة المكتب الإسلامي . مؤسسة دار الصادر - بيروت .

(٢) « مستدرك الحاكم » ، المجلد الأول ، الصفحة ٣١٣ ، أوفست - طبعة حيدر آباد .

(٣) « الجامع الصغير » ، الصفحة ٥٩ .

(٤) « التاج » ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٨٦ .

ثم اسألوه ماذا أمر الرسول الأكرم (ص) في دعاءه الذي علّمه للأعمى ؟ وكيف أرشده في استجابة دعاءه ؟ فسوف يقول لكم على الفور : أن الرسول الأكرم (ص) علّمه أن يتخذ من رحمة الرسول (ص) وسيلة له ، وأن يسأل الله عز وجل لينفّذ حاجته ، ويمكن استخلاص هذا الموضوع بشكل جيد من العبارات التالية :

أ : « اللّهُمَّ إنّي أسألُكَ وأتوجّه إليكَ بنبيّكَ » .

إن لفظة « نبيك » متعلقة بالجملتين السابقتين : إحداهما « أسألك » والأخرى « أتوجَّه إليكَ » .

وبعبارة أوضح ، فإنه يسأل الله تعالى بوسيلة النبي (ص) ويلتفت بوجهه إلى الله سبحانه بوسيلته كذلك ، والمقصود بالنبي ، هو النبي نفسه ، وليس دعاء النبي ، وأن تقدير لفظة « الدعاء » علاوة على أنه لا دليل لها ، فهي خلاف البلاغة . وأن الذي يجعل من لفظة الدعاء مُقدّرة ليس دعواه على هذا التقدير شيء سوى حكم مسبق ، لأن الشخص الذي يتخذ لفظة كهذه في التقدير ، ولكونه لا يعتبر التوسل بالأشخاص شيئاً صحيحاً ، فهو يجهد عنوة ، حيث تكون لفظة « الدعاء » مقدرة ، لئلا تكون خلاف فكره .

ب : لكي يتضح أن مقصود السؤال من الله تعالى ، هو من أجل النبي الأكرم (ص) ، والتوجه بوسيلته ، فقد وصف لفظة : « نَبيّكَ » بعبارة « مُحمَّدٍ نَبيِّ الرَّحمةِ » ، حيث تجلي الحقيقة أكثر وتجعل الهدف أوضح .

ج : تدل عبارة : « يا محمَّدُ إنّي أتوجَّه بكَ إلى ربّي » ، أنه

يتخـذ من النبي محمـد (ص) وجهـة دعـاءه ، وليس من دعـاء النبي الأكرم (ص) وجهة لدعائه .

د : أن مفـاد الجملة : « وَشَفِّعهُ فيَّ » هـو اللّهم إجعله شفيعـاً لي ، وإقبلْ شفاعته لي .

إن ما هو موضع البحث والكلام في جميع هذه العبارات ، هـو النبي الأكرم (ص) نفسه ،وشخصيته ذات المكانة الأسمى ، وليس في الأمر كلام عن دعاء النبي الأكرم (ص) .

الإجابة على خمس أسئلة :

السؤال الأول : هل أن الرجل الضرير طلب من النبي (ص) أن يدعو له ، وبالأحرى توسَّل بدعائه ، لـدى دخولـه على النبي ، أو أنه كان يريد أن يتوسل إلى شخص أو مقام النبي الأكرم (ص) ، وأن يسأل الله عز وجل أن يعافيه .

الإجـابـة :

لا ريب أنه كان منذ اللحظة الأولى يسأل النبي الأكرم أن يدعو لـه ، وكان متـوسلاً لـدعـائـه ، ولم يكن ببـالـه أن يتـوسـل لشخص النبي (ص) وشخصيته الكريمة .

بيـد أن روح الكلام يكمن في أنـه حتى إذا كان الأعمى يـروم مسألة الدعاء ، بيد أنه ماذا علّمه النبي (ص) وبأي شيء أرشده ؟ فهل هو غير أنه أمره ، أن يتـوسل إلى رسـول الرحمـة (ص) ، وأن يتخذه شفيعاً له في العتبة الإلَهية المقدسة ؟

لقد أثبت الرفاعي في كتابه : « التوصل إلى حقيقة التوسل » من خلال الأدلة الست ، أن الأعمى كان يقصد التوسل بدعاء النبي (ص)، وليس بشخصه ، بدليل أن النبي الأكرم (ص) قال :

« أدعُ الله أن يُعافيني » .

فأجابه النبي (ص) قائلاً :

« إن شِئتَ دَعَوتُ »[1] .

فقال الأعمى رداً على النبي (ص) :

« أُدعُهُ[2] و . . . . » .

أننا نسأل السيد الرفاعي : ما هو قصدكم من أن الأعمى كان متوسلاً بدعاء النبي الأكرم (ص) ، وليس بشخصه وشخصيته هو؟ فعندما يكون المقصود هو أن الأعمى كان متوسلاً إلى دعاء النبي (ص) قبل أن يعلّمه النبي ويرشده . . . فإن هذا الكلام صحيح وثابت ، وأن الأدلة التي نقلناها عنه ، تبرهن على هذا الموضوع ، ولهذا امتثل أمام رسول الله (ص) لكي يدعو له . فإذا كان هدف التوسل بشخص ومقام النبي (ص) ، فلم يستلزم حينئذ أن يمتثل أمام رسول الله .

ولكن إذا كان المقصود هو أنه توسل ثانية إلى دعاء

(١ ، ٢) يتضح من خلال أن النبي الأكرم (ص) لم يدع شخصياً ، بل أنه علمه الدعاء ، أن المقصود من هاتين الجملتين هو أصل « الدعاء » ، سواءً كان دعاء النبي (ص) بشكل مباشر ، أو دعاء الشخص نفسه لتعليمه ، وأن النبي علّمه التوسل إلى « نبيّ الرحمة » . وسيأتيكم توضيح هذا القسم لاحقاً ، إنشاء الله .

رسول الله (ص) بعد أن علّمه ، وليس بدعائه ولا بشخصه أو مقامه ومكانته . . فإن هذا الكلام لا أساس له ولا دعامة ، وأن العبارات التي وردت بصدد تعليم النبي الأكرم (ص) هي برهان على عكس ذلك . لقد أخبره النبي (ص) أن شروط استجابة دعاءك تتوقف على شيئين :

١ ـ أن تتوضأ وتؤدي الصلاة .

٢ ـ وأن تتوسل برسولك محمد (ص) نبي الرحمة ، وأن تتخذه وجهة لنفسك في العتبة الإلٓهية المقدسة و . . .

أن السيد الرفاعي يثبت بأدلة ، أن هدف الأعمى كان منذ البداية مسألة الدعاء من النبي الأكرم (ص) ، فنقول نحن في جوابنا له : « سَلَّمنا وَوأمنّا » ، حيث أن هدف الأعمى بحديثه مع النبي (ص) كان التوسل بدعائه فقط ، وأننا نقبل جميع أدلتكم الستة ، بيد أن روح الكلام يكمن في مكان آخر ، وهو أنه ماذا علّمه النبي صلوات الله عليه ؟ تمحصوا في عبارات النبي (ص) وجمله ، لكي تصلكم إجابتنا .

وبعبارة أخرى : هل أن النبي (ص) علّمه ليتوسل إلى دعائه ، فإن هذا العمل ليس سوى نتاج شيء آخر ، والذي كان يعرفه الأعمى أيضاً منذ البداية ، وكان متوسلاً بدعائه ، فلم يقتضِ الأمر أن يقوم النبي الأكرم (ص) بأمره ، لأن يتوضأ وأن يقرأ ذلك الدعاء الخاص .

من الممكن أن يجري تصور أن للتوسل بدعاء النبي مراسيم خاصة به ، وأراد النبي أن يعلّم هذه المراسيم أيّاه . ولكنها واضحة وضوح الشمس إنّ فكرة كهذه ليست سوى وهم ، لأنها ليست المرة

الأولى أن يطلب الصحابة ، الدعاء من رسول الله (ص) ، أو أن يكون القرآن الكريم قد دعاهم إلى التوسل بدعائه ؛ بل أن هذه الأمور وقعت كراراً ، ولم ترد في أي مورد مراسيم كهذه .

السؤال الثاني :

هل أن الرجل الأعمى أصبح بصيراً نتيجة الدعاء الذي علّمه النبي الأكرم (ص) إيّاه ، أم نتيجة أن النبي دعا له ، وعلى أثر هذا الدعاء أصبح بصيراً ؟

الإجابة :

فلو أخذنا ظاهر الحديث ، لأوجب أن نقول ، أن النبي الأكرم (ص) إكتفى بالدعاء الذي علّمه للأعمى ، وشفي هو نتيجة التوسل إلى نبي الرحمة (ص) ، وأنه توجه إلى عتبة الحق تعالى بواسطته ، وسأل الله سبحانه أن يلبي طلبه ، ولم يقم النبي الأكرم (ص) بأي دعاء آخر من أجله . فلو كان النبي (ص) يقوم بالدعاء من أجله ، لكان عثمان بن حنيف والآخرين الذين كانوا في المجلس قد نقلوا ذلك ، ويدل طي الحديث أن عثمان بن حنيف كان بجوار النبي الأكرم (ص) إلى اختتام المجلس ، فلو كان يقوم النبي بدعاءٍ كهذا ، لنقله بالتأكيد .

فهو يقول :

« فَوَاللهِ ما تفرَّقنا وطالَ بِنا الحديثُ حتّى دَخَلَ علينا كأن لم يكن به ضرٌ » .

السؤال الثالث :

إذا كان النبي الأكرم (ص) قد اكتفى بنفس الدعاء ، فما معنى عبارة « إن شئتَ دَعَوتُ » . إذن ؟

الإجابــة :

صحيح أن ظاهـر هذه العبـارة هو أن النبي (ص) وعـد أن يقوم بالدعاء من أجله ، ولكن بدليل صمت الراوي عن دعاء النبي يحدو بنا أن نقول أن المقصود هو نفس الدعاء الذي علّمه للأعمى ، وبالأحرى فالهدف هـو « الدعـاء التسبيبي » ، حتى ولو تم ذلـك بوسيلة الأعمى نفســه ، ولا « الدعـاء المباشـر » الذي يبـاشـر بـه النبي (ص) نفســه شخصياً .

وعلى كل حال ، فـإن هذا المـوضوع لا يخلق تغييـراً في مفاد الحديث ، سواء كـان شفاؤه بـوسيلة الدعـاء الذي علّمـه النبي (ص) إيّاه ، أو بوسيلة دعاء النبي من جديـد الذي يتم بعـد التوسـل ، وفي النهاية أمره النبي (ص) أن يتوسل إلى نبي الرحمة ، وأن يتخذه وجهة لنفسه .

السؤال الرابع :

إذا كـان ارتـداد بصـر الأعمى بـدعـاء رسـول الله (ص) ، فمـا الحاجة إلى الدعاء الذي علّمه النبي (ص) للأعمى ؟

الإجابــة :

إن التـوسـل بـ « النبي الأكـرم » ـ صلّى الله عليـه وآلـه وسلم و « توسيط عزيز للعتبة الإلّهية » ، هو من أحد الأعمال الصالحة ، التي توجد في الإنسان الآهلية والجـدارة لنزول رحمـة الرحـل ، ويضحى دعاء النبي الأكرم (ص) من أجـل جماعـة مستجابـاً ، الجماعـة التي تمتلك أرضية استجابة الدعاء ، ولهذا لا يكون مستجابـاً بحق الكافـر والمنافق .

يقول « القرآن الكريم » بصدد المنافقين :

﴿ إن تستغفِر لَهُم سَبعين مَرَّةً فلن يغْفِرَ الله لَهُم ﴾[1] .

وذلك لأن قلوبهم وأرواحهم لا تستحق نزول الفيض الإلّهي .

فضلاً عن ذلك ، فقد ذكرنا سابقاً أن دعاء النبي (ص) المجدد هو مشكوك وغامض تماماً ، وظاهر الحديث هو أن النبي الأكرم (ص) اكتفى بنفس التعليم فقط ، فلهـذا ، لن يكـون لهـذا السؤال تـوجهـاً كثيراً .

السؤال الخامس :

يوجه السيد الرفـاعي الحديث الآنف الـذكر بـالشكل التـالي ، قائلاً :

---

(١) سورة التوبة : الآية ٨٠ .

« إنَّ معنىَ « اللّهُمَّ إنّي أسألُكَ بنبيِّكَ » أي بدعاءِ نبيّك ولا يُفهَم مِنه التَّوسُلُ بالنَّبيّ » .

الإجابـة :

إننا نترك الحكم على هذا التفسير بعهدة ذوي القلوب اليقظة . فهل يحق لنا يا ترى أن نقوم بتصرفات غير لائقة كهذه في الحديث ؟!

لأنه ، ناهيك عن أنه لن يكون لتوسل كهذا ثمرة بعد ، وأن هذا الفرد كان قبل تعليم النبي الأكرم (ص) متوسـلاً بدعائه ، وكان يسأل النبي (ص) ، الدعاء . فيجب أن نتدخل ونتصرف بصدد الحـديث ، ونقول :

١ ـ نَبيّكَ : أي بدُعاءِ نَبيّكَ .
٢ ـ يا مُحمَّدُ إنّي أتَوَجَّهُ بكَ : أي أتَوَجَّهُ بدُعائِكَ .
٣ ـ اللّهُمَّ شَفِّعهُ فيَّ : شَفِّع دُعائَهُ فيَّ .

فليس لهذه التصرفات دافع سوى الحكم المسبق ، لا غير .

فعندما يكـون مقصود التـوسل هـو بدعـاء النبي (ص) ، وليس بشخصـه وشخصيتـه ، فمـا الـداعي لتـوصيف « النبي » بـ « نبي الـرحمـة » ؟ فهـل لا يعني هـذا التـوصيف أن الهـدف من التـوسـل بشـخصيـة عاليـة الشأن التي يشكّـل وجودهـا « رحمةً للعـالمين » ، ويجب عبر هذا الطريق أن يتخذ الأعمى تحت غطاء رحمته ؟ .

فلو لم يكن حضرة الرفاعي وزملائه في الفكر قـد ترعـرعوا في مرحلة الطفولة في المدرسة الوهابية ، وإن لم يكونوا تحت نفقة الأنعام

والألطاف السعودية ، فهل إنهم كانوا يطلقون ثانية أحكاماً كهذه ؟

وفي الختام نورد كلاماً حول الحديث عن « الشيخ منصور علي ناصيف » ـ أحد علماء مصر الأفذاذ في القرن المعاصر ، ومؤلف : « التاجُ للأصُولِ في أحاديثِ الرّسولِ » . فهو بعد أن ينقل الحديث ويصادق على صحته عبر الترمذي وابن ماجه ، يكتب :

« فَهذِه النُّصوصُ الصَّحيحَةُ تُفيدُ أن التّوسُّل إلى الله بالصّالحين جائِزٌ بل مَطلُوبٌ في الشَّدائِد . . . وتَقَدَّمَ في كِتابِ النِّيَّـةِ أنَّ أصحابَ الغارِ توسَّلوا إلى الله بصالحِ أعمالِهِم فأجابَهُمُ الله فإذا ثَبَتَ التَّوسُّلُ بصالح العَمَلِ ، فأولى وأفضَلُ وأعلى بالصّالحينَ الّذين هُم مَصدَرُ الصالحاتِ . . . والإنصافُ خيرٌ من التّشفيع للمَذهَبِ والرُّجُوعُ للحَقِ فضيلةٌ وَمَعَ هذا فَفي تحقيقِ هذا الموضُوع مؤلفاتٌ خاصَّةٌ مِنها مؤَلَّفٌ لصاحِبِ الفضيلةِ الشَّيخ محمد حَسنينِ العدوي وكيلِ الأزهَرِ ومُديرِ المعابِدِ ، سابِقاً ومِنها فَتاوى لصاحِبِ الفضيلةِ الشّيخ يُوسُفِ الدَّجوي من كِبارِ العلَماءِ في مَجلَّةِ نُورِ الإسلامِ » .

الحديث الثاني : التوسل بحق السائلين

ينقل « عطية العوفي » عن « أبي سعيد الخدري » أنه : قال « الرسول الأكرم » ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : من خرج من بيته للصلاة ، وقرأ الدعاء المذكور أدناه ، أقبَلَ الله بوجهِهِ واستَغفَرَ لَهُ ألفُ مَلِك[1] .

---

(١) الرجوع إلى صحيح حافظ محمد بن أبي عبد الله بن ماجه القزويني ، والذي يعتبر =

« اللّهُمَّ إنّي أسألُكَ بِحَقّ السّائلينَ عَليكَ وأسألُكَ بِحقّ ممشاي هذا فَإِنّي لَم أخرُج أشراً ولا بطَراً ولا رياءً ولا سَمعَةً وخَرجتُ اتقاءَ سَخَطِكَ وابتِغاءَ مرضاتِكَ فأسألُكَ أن تُعيذَني من النّار وأن تغفر لي ذنوبي إنَّهَ لا يَغفِرُ الذّنوبَ إلاّ أنتَ » .

إنّ الحديث المذكور هو من الأحاديث الواضحة جداً، التي تبرهن على أن الإنسان يستطيع في حالة مسألة الحاجة من الله جلّ جلاله ، أن يتخذ من مقام الصالحين ومكانة الحق وشأنهم واسطة لنفسه ، وأن دلالة الحديث على مقصودنا واضحة .

بيد أن مخالفي الحديث أرادوا بسبب الحكم المسبق ، أن يضعوا العراقيل في دلالة الحديث وسنده ، وليس لديهم دافع للإلتباسات الطفولية التي سوف تتطلعون عليها ، سوى الدفاع عن العقيدة التي وصلت إليهم عن طريق الأسلاف . وإليكم الإلتباس في دلالة الحديث :

الحديث برهان على التوسل بصفة « المجيب » :

ينقل الرفاعي عن أحد أقرانه في الفكر ، أن الحق الذي يمتلكه الصالحين على الله سبحانه هو ما ورد في الآية أدناه ، حيث يقول :

﴿ أُدعُوني استَجِب لَكُم ﴾[1] .

= برأي الكثير من المحدثين ، من إحدى الصحاح الستة ، المجلد الأول ، باب المساجد ، الصفحة ٢٦١ و٢٦٢ ، طبعة مصر . و« المسند » للإمام أحمد بن حنبل ، المجلد الثالث ، الحديث ٢١ .

(١) سورة المؤمن : الآية ٦٠ .

فعلى هذا ، أن هذا التوسل بحق السائلين هو في الحقيقة توسل بصفة « إجابة » الله سبحانه وتعالى ، ويجوز التوسل بالأسماء والصفات الإلٓهية[1] .

الإجابة :

إن « توسيط المخلوق » أو مقامه ومكانته ، هو برأي « المستشكل » نوع من الشرك ، حيث يجب تنزيه ساحة الأنبياء منه . فإذا كان مقصود « حق السائلين » حقاً هو صفة « المجيب » لله تعالى ، فلماذا عَدِل عن التوسل بصفة « المجيب » بالتوسل بـ « حق السائلين » ، فإن لم يكن شركاً فهو بصورة الشرك ولونه على الأقل . فإذا كان قصده ذلك حقاً ، حيث توهَّم ، فلماذا جعل « ألا كل من القفاء » ، وبدلاً من أن يقول :

« اللّهُمَّ يا مُجيب » .

فقد قال :

« اللّهُمَّ إنّي أسألُكَ بحقِّ السائِلينَ علَيكَ » .

فعندما نقبل نحن هذا التأويل بـ « حق السائلين » ، لا يمكن أبداً قبول ذلك في الجملة الثانية ، لأن الجملة الثانية تقول :

« أسألُكَ بحَقِّ مَمشايَ هذا » .

« الممش » إسم مكان وزمان ، المضاف إلى ضمير المتكلم : جاء في « المسجد » :

---

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ٢١٣ .

« المَمشىٰ : مكانُ التمشي مَوضِعُ المرورِ على المَحَلِّ .

جمعه : مَماشي » .

فماذا يقول المنتقص في هذا التوسيط ؟ وهل أن التوسل بالزمان المقدس ومكانه جائز ، أمّا التوسل بالصالحين والمنّزهين وأعزاء عتبة الله تعالى فيعتبره غير صحيح .

إشكال في سند الحديث :

لقد ورد إسم عطية العوفي في سند الحديث ، حيث أضعف النسائي وأحمد بن حنبل حديثه ، واعتبره البعض « شيعيٌ مُدَلِّسٌ » .

الإجابة :

إن إحدى وسائل جرح وتضعيف الراوي عند رجال السُّنة وعلمائهم ، هو « التشّيع والولاء لأهل البيت » . فكلما كانت مكانة شخص ما ، مرموقة جداً من حيث الوجاهة والوثاقة ، إلاّ أنه يقتدي في حياته بأهل البيت ، ويعتبر باب العلم منحصراً بـ (علي بن أبي طالب) عليه السلام ، وأن يحصل من آل البيت على العلوم والمعارف ، فيكون قد اقترف جريمة كبيرة لدى محدثوا أهل السُّنة ورجالهم ، ولم يكن لـ « عَطيَّةِ بنِ سَعدِ بن جُنادَة الكوفي » جُرماً سوى أن والده كان من أصحاب الإمام علي (ع) . ولهذا نقل « الذهبي » و « ابن حجر » وغيرهم هذه العبارات كذلك :

« قالَ سالِمُ المُراديّ : كان عطيّةُ يَتَشَّيعُ » .

« قالَ ابنُ مُعينٍ : صالِحٌ » .

« قــال ابن حَجَـرٍ : صُــدوقٌ يُخْـطِىءُ كثيــراً « شيعيٌ ومُــدَلِّس مات . . . »[1] .

إننا ندع حديث الذهبي وابن حجر جانباً ، حيث أن بينهما مسافة زمنية من حيث العصر والطبقة ، وبين عـطية ، تقـدر بعدة مئـات من السنين . ونسأل عن ثباته واستقامته في سبيل العقيدة والدين والصلاح والنزاهة ، من أكبر كتّاب البيوغرافيـا في الإسلام ، يعني « ابن سعـد ـ محمـد الزُهـري ـ » مؤلف « كتاب الـطبقات الكبيـر » ، والمعـروف بكاتب الواقدي (ولد في البصـرة سنة ١٦٨ ، وتـوفي في بغداد سنـة ٢٣٠) . حيث يقول عن سيرة حياته ما يلي :

« ولد عطيَّة ابن سعد في فترة حكومة الإمام علي (ع) ، فحمله والده إلى الإمام ، وطلب منه أن يختار له إسماً . فقال الإمام : « هذا عطيَّةُ الله » . . .

كـان أحـد المنتفضين بـوجه حكـومة الحجـاج ، وهـرب بعـد الهزيمة إلى أرض فارس . فكتب الحجاج خطاباً إلى حاكمه محمد بن قـاسم ، طلب فيه أن يـدعوعـطيّـة ليلعن الإمـام علي (ع) ، وإن لـم ينصاع جلده أربع مئة جلدة وحلق رأسه وذقنه . فطلب الحاكم إحضار

---

(١) « الذهبي » ، مؤلف كتاب « ميزان الإعتدال في نقد الرجال » (٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ) ، وقد ولد « عطية عـوفي » في فترة حكم الإمـام علي (ع) (٣٠ ـ ٣٥) ، وتوفي في سنة ١١١ . (المجلد ٣ ، الصفحة ٧٩ و ٨٠) .

عـطيّـة وقـرأ عليـه خـطاب الحجـاج ، بيد أنّه لم يقبـل سبّ الإمـام علي (ع) ، ونفذ بحقه أوامر الحجاج » .

وبعـد مدة من الـزمن ، سافـر في عهد حـاكميـة « قتيبـة » إلى خراسان ، وعندما تسلم عمر بن هبيرة مقود الأمور في الكوفة ، حصل هو على تجويزة الدخول إلى الكوفـة ، وقضى حياتـه هناك ، إلى أن توفي في عام ١١١ هـ . . .

ثم يقول :

« وَكانَ ثِقَةً إن شاءَ الله وَلَهُ أحـاديثُ صالحـة ومِن الناس من لا يحتجُّ بِهِ »[١] .

ويقول ابن قُتيبةَ [الكوفي أو الدينوري] في معارفه :

« وكانَ فقيهاً في زَمَنِ الحجّاج وكانَ يتَشيَّعُ » .

ويكتب الطبري بعد أن ينقل حادث حاكم الحجاج ، قائلاً :

« وكانَ كثيرَ الحديثِ ثِقَةً »[٢] .

ينقل المرحوم محدث القمي في « سفينة البحار ومدينة الحكم والآثـار » عن « ملحقات الصـراح » ، أن عوفي كتب تفسيـراً بخمس

---

(١) كتـاب الـطبقـات الكبيـر لإبن سعـد ، المجلد ٦ ، الصفحـة ٢١٢ و٢١٣ . طبعـة ليدن ١٣٢٠ ق .

(٢) « سفينة البحار ومـدينـة الحكم والآثـار » ، المجلد ٢ ، الصفحـة ٣٠٥ ، نقـلاً عن « الذيل المذيل » للطبري .

مجلدات . وكان يقول : سمعت تفسير القرآن الكريم عن أبي العباس ثلاث مرات ، وقرأته عليه سبع مرات .

هو أحد رواة خطبة « فاطمة الزهراء » ـ عليها السلام ـ عن طريق عبد الله بن الحسن[1] ، كان من آل عطيّة من عوائل الشيعة في العراق . ولقد انتفض أبناء من هذه العائلة ، كان لكل منهم مكانة مرموقة في القضاء والمحاكم العراقية : حسين بن حسن بن عطيّة المتوفي سنة ٢٠١ ، ومحمد بن سعد بن محمد بن الحسن بن عطيّة ، الذي كان في حينه قاضي بغداد .

لم يكن ذنب هذه العائلة شيء سوى التشيع ، ولا غير ، فلهذا ينقل عنه أبو داود والترمذي في سننهم ، وينقل أيضاً الحديث عن محدثين من أمثال ابن العبّاس ، وأبو سعيد خذري و . . . غيرهم .

من تلامذته : حسن بن عطيّة ، والحجاج بن أرطأة ، ومِسعَر [بن كِدام الهلالي العامري] ، وحسن بن عدوان ، وآخرون .

أن الشخص الذي يتشرد في سبيل الدين وعشق الحقيقة ، إلى هذا الحد ، والذي لم يقبل الرضوخ محافظاً على حقوق الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ ، وعلى مقامه وفضيلته . . أن شخصاً كهذا لا يمكن أن يكون ضعيفاً ومدلساً .

فضلاً عن ذلك ، يصرح ابن سعد عن وثاقته ، واعتبره ابن معين نقلاً عن الذهبي نفسه بالصالح ، وسمّاه ابن حجر ، بالصدوق .

---

(١) « بلاغات النساء » ، الصفحة ١٢ . تأليف أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيغور ، المتوفي سنة ٣٨٠ .

إن هذا الحجم من التعريف والتوصيف يكفيان شخصاً عاشر عواصف وأحداث التشيّع والتسنّن، ورفع راية مواجهة أكثر رجال بني أمية (الحجاج بن يوسف الثقفي) دموية ، لأن وسائل بني أمية وبني العباس الدعائية كانت تحاول تعريف مثل هؤلاء الأشخاص بأسماء سيئة وغير موضع ثقة .

ونشير في النهاية إلى أن الرفاعي نقل عن ابن حجر عبارة : « شيعي مدلس » ، بيد أننا لم نجد هذه العبارة في كتب ابن حجر بترجمة عطيّة ، وأن كتب رجاله ، هي على الوجه التالي :

١ ـ « لسان الميزان » ، فهو لم يجعل من عطية في هذا الكتاب عنواناً أبداً .

٢ ـ « تهذيب التهذيب » ، وأفرد له في هذا الكتاب عنواناً ، بيد أنه لم يقل عنه عبارة كهذه .

٣ ـ « الإصابة في تمييز الصحابة » ، لم يفرد في هذا الكتاب لـ « عطية » عنواناً .

وعلى كل حال ، فإن هذا النوع من الإنتقاد الموجه لشخصية كعطية ، ليس مؤثراً ، وأن ذنبه الوحيد هو تشّيعه ، ولهذا يكتب ابن حجر في « تهذيب التهذيب » ص٢٢٦ ، وبعد أن يبينْ مشايخه التسعة ، وتلاميذه الذين يفوقون الخمسة عشر ، يكتب :

« وكانَ يُعَدُّ مَعَ شيعَةِ أهلِ الكُوفَةِ روىٰ عَنهُ جُلَةُ النّاسِ وكانَ يُقدِّمُ عَلِياً عَلى الكُلِّ » .

أن التمحص في هذه الجملة يوضح دافع انتقاده وتضعيفه .

الحديث الثالث :

يتوسل النبي آدم (عليه السلام) إلى النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

بعد أن لم ينصاع آدم (ع) لأوامر الله سبحانه وتعالى[1] ، تاب على ضوء الكلمات التي تلقاها من الله سبحانه ، كما يذكر ذلك في القرآن الكريم :

﴿ فَتَلقّى آدَمُ مِن ربِّه كلماتٍ فَتابَ عَلَيهِ ، إنَّهُ هو التَّوابُ الرَّحيمُ﴾[2] .

أن لجماعة من المفسرين والمحدثين الإسلاميين ، رأي حول

---

(١) أن الأمر الذي جاء في الآية الكريمة ﴿ ولا تَقربا هذِهِ الشَّجَرةَ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٥) ، هو ليس « دستور المولوي » ، بل هو « نهي إرشادي » ، وبالأحرى له جانب النصيحة وإسداء النصائح ، ولا يمكن للمخالفة بدستور كهذا ، أن يكون موضع عقاب ومؤاخذة ، بل أن نتيجة ذلك فقط هي مواجهة الأثر الوضعي للعمل نفسه .
فإذا أمر الطبيب مريضاً ألاّ يتناول في حالة الإستبراد ، الطرشي والبطيخ ، فلا يؤدي مخالفة ذلك سوى إلى حدة المرض . تصرح آيات بينات في القرآن الكريم ، أن النهي الإلّهي كان نهياً إرشادياً ، وليست نتيجة ذلك شيئاً سوى الخروج من الجنة ، والتي تعتبر الأثر الوضعي للعمل ، ولم يكن شيء آخر سواه . الرجوع إلى الآيات ١١٨ و ١١٩ من « سورة طه » ، وإلى كتاب « التفسير لآيات القرآن الصعبة » الموضوع العاشر الصفحة ٧٣ ـ ٨٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٧ .

تفسير الكلمات التي وردت في الآية ، وبالتمعن بنص الآية الشريفة أدناه ، يتضح رأي هؤلاء .

لقد نقل « الطبراني » في « المعجم الصغير » ، « والحاكم النيشابوري » في « مستدرك الصحاح » ، و« أبو نعيم الأصفهاني » ، و« البيهقي » في كتاب « دلائل النبوة » ، و« ابن عساكر الشامي » في تاريخه ، و« السيوطي » في « الدر المنثور » ، و« الآلوسي » في « روح المعاني »[1] ، نقلوا بسند عن عمر بن الخطاب ، أن « النبي الأكرم » ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ قال :

« لَمّا أذنَبَ آدَمُ الَّذي أذنَبهُ رفَعَ رأسَهُ إلى السماءِ فقال أسألُكَ بحقِّ محمَّدٍ إلاّ غَفَرتَ لي فأوحى الله إليهِ وَمَن مُحمَّدٌ ؟ فقال : تَبارَكَ أسمُكَ ، لَمّا خُلِقتُ رفَعتُ رأسي إلى عَرشِكَ فإذا « فيه مكتوبٌ لا إله إلاّ الله ومحمَّدٌ رسولُ الله ، فقلتُ : إنَّهُ ليسَ أحدٌ أعظَمَ عندكَ قدراً » ممَّن جَعَلتَ اسمَهُ مَعَ اسمِكَ فأوحِيَ إليه أنه آخِرُ النَّبيينَ مِن ذُرّيتك ولَولا هو لَما خَلَقتُكَ »[2] .

وجهة نظرنا بصدد هذا الحديث :

١ ـ لقد أطلقت في « القرآن الكريم » خلافاً لما هو مشاع بيننا ،

---

(١) المستدرك لحاكم النيشابوري ، المجلد الثاني ، الصفحة ٦١٥ ـ «روح المعاني» ، المجلد الأول ، الصفحة ٢١٧ ـ « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » ، المجلد الأول ، الصفحة ٥٩ ـ نقلاً عن الطبراني وأبي نعيم الأصفهاني والبيهقي .

(٢) أُخِذَ نص الحديث عن « الدر المنثور » ، وهناك اختلاف طفيف بين هذا ، والنص الذي نقله الحاكم النيشابوري في « مستدرك الصحاح » ، رغم أن مضمونها واحد .

تعبير « الكلمات » على الذوات والشخصيات ، مثلاً :

أ ـ ﴿ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بيَحيىٰ مُصَدِّقاً بكلِمةٍ منَ الله ﴾[1] .

ب ـ ﴿ يا مريم إنّ الله يُبشّرك بِكلمةٍ مِنْهُ اسمُهُ المَسيحُ عيسىٰ ابن مريم ﴾[2] .

ج ـ ﴿ إنَّما المسيحُ عِيسى ابن مريمَ رَسُولُ الله وكَلمتُهُ ﴾[3] .

﴿ قُل لو كان البَحرُ مِداداً لكَلِماتِ رَبّي لَنَفِذَ البَحرُ ﴾[4] .

هـ ـ ﴿ والبَحرُ يَمُدُّهُ مِن بعدِهِ سَبعَةُ أبحُرٍ ما نَفَدت كلماتُ الله ﴾[5] .

استناداً إلى ما ورد في الآية موضع البحث من لفظة « كلمات » ، يمكن القول أن المقصود من « الكلمات » هو نفس الشخصيات الفاضلة لـ « الذوات المقدسة » ، التي جرى التوسل بها ، ولهذا فقد نقلت هذه الحقيقة في روايات الشيعة بصورة أكثر وضوحاً :

« إنَّ آدَمَ رأى مكتُوباً على العَرشِ أسماءً مُعَظَّمةً مُكَرَّمَةً فَسألَ

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٩ .

(٢) نفس السورة : الآية ٤٥ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٧١ .

(٤) سورة الكهف : الآية ١٠٩ .

(٥) سورة لقمان : الآية ٢٧ . (أن المقصود من « الكلمات » في هذه الآية ، والآية السابقة هو المخلوقات الإلٓهية) .

عَنها ، فقيلَ لَهُ هذه أسماءُ أَجَلّ الخَلقِ مَنزِلَةً عندَ الله تَعالى والأسماءُ مُحَمَّدٌ وعليٌّ وفاطِمةُ والحسَنُ والحسينُ ، فَتوسَّلَ آدمُ عليه السَّلامُ إلى ربِّهِ في قَبُولِ تَوبَتِهِ وَرَفعِ مَنزِلَتِهِ »[1] .

لقد ورد في أحاديث الشيعة الأخرى ، أوضح من هذا كذلك ، وتدل بجلاء أن آدم - عليه السلام - شاهد أشباحاً نورانية لخمسة أشخاص . للإستزادة من المعلومات ، الرجوع إلى الروايات في تفسير البرهان[2] .

١ - يمكن استناداً إلى الروايات الكثيرة التي وردت بهذا الصدد من قبل علماء الشيعة ، التيقن من صحة الرواية .

٢ - يتضح من خلال الرجوع إلى كتب التاريخ والحديث ، أن توسط آدم - عليه السلام - بالنبي الأكرم (ص) كان موضوعاً معروفاً ومشهوراً ، لأنه سبق وأن قرأنا في (بحث التوسل في الأحداث التاريخية) ، أن الإمام مالك قال في حرم النبي (ص) إلى « منصور الدوانيقي » ما يلي :

« هُوَ وسيلتكَ ووسيلةُ أبيكَ آدَمَ »[3] .

---

(١) « مجمع البيان » ، المجلد الأول ، الصفحة ٨٩ ، طبعة صيدا ، - « تفسير البرهان » ، المجلد الأول ، الصفحات ٨٦ - ٨٨ ، الأحاديث ٢ ، ٥ ، ٦ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧ .

(٢) « تفسير البرهان » ، المجلد ١ ، الصفحة ٨٧ ، الأحاديث ١٣ ، ١٥ ، ١٦ .

(٣) الرجوع إلى الصفحة ٧٥ من نفس القسم . أن مؤلف « التوصل » يحاول أن يعتبر موضوع مذاكرة أبو جعفر المنصور مع مالك غير صحيحاً ، في حين أن الحقيقة هي

لقد نظَّم الشعراء الإسلاميون هذه الحقيقة ، قائلين :

« بِـهِ قَـد أجـابَ الله آدَمَ إذا دُعـا
وَنَجـى في بَـطنِ الـسَّـفـيـنَـةِ نُـوحُ

قَـومٌ بِهِـم غُـفِـرَت خَـطيئَـةُ آدَمَ
وَهُـم الـوَسيـلةُ والنـجـومُ الـطُّلَّع »[1]

الإجابة على مجموعة من الأسئلة :

إن هـذه الروايـة لم تعجب مؤلف كتاب « التـوصل إلى حقيقـة التـوسـل » ، وأراد أن ينتقـدهـا بسلسلة من الأحكـام المسبقـة أو الإشكالات الصبيانية .

= عكس ذلـك . يكتب السيـد أحمـد بن زيني دحـلان في كتـاب « الـدرر السّنيـة » الصفحة ١٠ حول ذلك ، كما يلي : لقد نقل ذلك القاضي عياض بسند صحيح ، ونقله الإمام السبكي (علي تقي الدين) في كتاب « شفاء السقام في زيارة الآنام » ، والسيـد السمهودي في « خـلاصة الـوفـاء » والعـلاّمـة القسـطلاني في « المـواهب اللدنية » ، وابن حجر في « الجوهر المنظم » ، والكثير من كتّاب المناسك . يقول ابن حجر في « الجوهر المنظم » : لقد نقلت هذه الـرواية بسنـد صحيح ، ويكتب العلاّمة الزرقاني في شرح « المواهب » : لقد نقل ذلك ابن فهد بسند جيد ، ونقلها القاضي عياض بسند صحيح .

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٠٧ و ٣٠٨ .

وإليكم دراسة هذه الأسئلة[1]

الإشكال الأول :

إن الحلف المذكور بالمخلوق في هذا الحديث ، والحلف على المخلوق هما شرك وحرام .

الإجابــة :

ليس هذا الإشكال سوى حكم مسبق ، وسوف نتحدث عن ذلك في الفصل الرابع من هذا الكتاب ، فإن سنّة المسلمين ، وسيرتهم هي دعـامة لجـواز حلف كهـذا ، رغم أنـه يجب في « فض الخصـومـة » الحلف بالله سبحانه وتعالى فقط . . أن ما يثير الإهتمام هو الإستدلال الذي يمتلكونه بصدد هذه المواضيع ، ويقولون :

« فـإنّـا جَعَلنـا المخلُوقَ بمـرتَبـةِ الخـالقِ ، والخـالِقَ بمـرتبـة المخلُوقِ ، لأنَّ المحلوفَ بهِ أعظمُ منِ المحلُوفِ عَليهِ ، ولذلِكَ كان الحلفُ بـالشيءِ دليلاً على عـظمتِه وأنّـهُ أعـظَمُ شيء عنـدَ المحلُوفِ عليهِ » .

إننا نعتقد أن الإجـابة على هـذاالإستدلال لا تحتـاج إلى تبيان أكثر . وأن أساس غلطته موجود في هذه الجملة ، حيث يقول :

« لِأنَّ المحلُوفَ به أعظَمُ مِنَ المَحلُوفِ عَلَيهِ »[2] .

---

(١) لقـد وردت مجموعـة هذه الإعتـراضات في كتـاب « التوصـل إلى حقيقة التـوسل » الصفحات ٢١٥ ـ ٢٢٢ .

(٢) أن المقصـود من « المحلوف عليـهِ » هـو الشخص الـذي يحلف عليـه ، ولأنـه في=

لأنـه ليس لقاعـدة كهذه شمـولية ، وهـو ليس كذلـك أن يكون « المحلوف بـه » أبداً أعـظمَ من « المحلوف عليـه » ، بـل أن اليمين والحلف عـلامـة على أن « المحلوف بـه » كـان معـززاً ومؤقـراً عنـد « المحلوف عليه » وذو عظمة ، وليس أنه أعزّ وأعظم من « المحلوف عليه » .

ففي القـرآن الكـريم ، بـالمنـاسبـة تـوجـد أحـلاف ليس فيهـا « المحلوف به » أبداً أعـظم من « المحلوف عليه » ، كـالآيات ١ ـ ٤ من « سورة القلم » المباركة :

﴿ ن والقَلَمِ وما يسطرُونَ ، مـا أنتَ بنعمَةِ ربِّـكَ بمجنون وإنَّ لكَ لأجراً غَيرَ ممنونٍ ، وإنَّك لَعَلى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ .

لقد استحلف في هذه الآيات البينات ، بـالقلم وبالـذي يُكتب به ، وبالأخرى يكون القلم والمكتـوبات هي « المحلوفُ بـه » ، وأن شخص النبي الأكـرم (ص) هــو « المحـلوف عليــه » . فـهــل أن « المحلوف به » أعظم من « المحلوف عليه » ؟ لهذا فإن جملته الثانية هي صحيحة ، حيث أنه يكتب :

« وإنَّهُ أعظَمُ شيء عِندَ المحلُوفِ عَلَيهِ » .

= الدعاوى وفض النزاع يكون الحلف مُضَراً له ، فلهـذا تستخدم لفـظة « عليهِ » التي تدل على الضرر ، بيد أنه في غير حالة النزاع ، فإن المقصود من ذلك الموضوع هو شخص يتم الحلف من أجله ، حتى وإن لم يكن مُضراً ، فكيف الحال القصد هو إبداء المحبوبية والرغبة .

الإشكال الثاني :

لقد علَّمَ الله سبحانه وتعالى ، آدم قبل أن يعصي أوامر الله ، علَّمه الأسماء كلَّها ، كما يقول :

﴿ وعَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّها . . . ﴾[1] .

وعلى هذا ، فقد تعرَّف هو في هذه الأثناء على إسم محمد (ص) وخصاله الأخرى . ففي هذه الحالة ، وكأن الله عزّ وجل يسأل ، كيف عرفت محمد ؟ الأجدر به أن يقول : لدى تعليم الأسماء . وليس أن يقول : عندما خلقتني ، وجدت أسمه على عرشي . . .

الإجابـة :

لا ريب في أن الله تعالى علَّم آدم الأسماء بعد أن خلقه ، بيد أن شكل تعليم ذلك لم يرد في القرآن . فيمكن في هذه الحالة أن يكون هذا الخبر وأخبار أخرى تبياناً لشكل تعليم الأسماء ، ولا مانع من أن تكون طريقة التعرف على إسم محمد (ص) وهو أنه رسول الله ، بنفس الشكل الذي ورد في هذا الحديث .

فإن لم يقل آدم (عليه السلام) في جوابه لله سبحانه ، ما يلي : (لمّا علَّمتَني من الأسماءِ) ، فهو بسبب أنه أراد أن يبين علمه بشكل مسهب . فحقاً ، أليس هذا الإنتقاد صبيانياً ؟

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣١ .

نـاهيك عن ذلـك ، من الممكن أن يكون علم « آدم » ـ عليـه السلام ـ بإسم « النبي الأكرم » ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ورسالته ، قد تحقق بصورتين اثنتين :

١ ـ حينمـا خَلقَ آدم (ع) ، فرأى بعـد خلقته صفحـة العرش ، وتعرّف بالتفصيل على هذا الإسم ورسالته .

٢ ـ لقد تعرّف على هذا الإسم مرة أخـرى حين تعليم الأسماء كلها .

الإشكال الثالث :

لقد ورد في الحديث ، أن :

« لَولا مُحَمَّدٌ لَما خَلَقتُكَ » .

أمّا هذه العبارة ، فهي تعرّفنا بالآية الشريفة :

﴿ وَما خَلَقتُ الجِنَ والإنسَ إلاّ ليَعبدُونِ ﴾[1] .

وكذلك تنافي الآية الشـريفة أدنـاه ، التي تعتبر أن الهـدف من الخلقة هو إحاطة الإنسان علماً بقدرة الله سبحانه وتعالى ، كما يقول :

﴿ الله الَّذي خَلَقَ سَبعَ سَمواتٍ وَمِنَ الأرضِ مِثْلَهُنَّ يتنَزّلُ الأمرُ بينهُنَّ لتعلمُوا أنَّ الله على كَلّ شيءٍ قديرٌ وأنَّ الله قد أحاط بكُـلِّ شيءٍ علماً ﴾[2] .

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ١٢ .

وعلى هذا ، فإن كان الهدف من خلقة آدم ـ عليه السلام ـ ، هو وجود « النبي محمد » ـ صلّى الله عليه وآله سلّم ـ ، فلماذا إذن اعتبر الهـدف من الخلقة في الآيـات السالفـات الذكـر ، هو عبـادة النـاس وتوعيتهم ؟

الإجـابــة :

إن هذا النوع من الإستشكـالات هو عـدم سبر المستشكـل في المعارف العقلية للإسلام ، لأنه تصور أن عبادة الله تعالى ، هو الهدف النهائي من الخلقة ، في حين أن العبادة هي من أجل تكامل الإنسان وهدفاً لإيجاد إنسان يتمكن من حيث الكمالات الروحية والمعنويـة ، أن يكون خليفة الله على وجه البسيطة ، والإنسـان الوحيـد على وجه الأرض الذي يكون خليفة الله . هو الـذي يستطيـع بشؤون وجوده أن يحكي عن كمالات ذلك الذي هو خليفة له ، وأن الإنسان المنزه عن الكمـال ليس الخليفة الـواقعي ، بل لـه نوع من الشبـاهـة بـالخليفـة الإلّهي .

وعلى هـذا ، فإن الهـدف من خلق نوع الإنسـان ، هو تـربيـة الإنسان الكامل ، وخليفة الله على وجه الأرض ، ويتحقق هدف كهذا في ضوء العبادة ، والعبادة الواعية ، والقيام بـوظائف العبـودية ، وإن عبادة الله سبحانه وتعالى هو طريق ووسيلة للوصول إلى هدف نهـائي كهذا .

انـطلاقـاً من هـذا ، فـإن عبّـاد الله سبحـانـه وتعـالى من حيث العبـودية ، والفضـائل الأخـلاقية والكمـالات الإنسانيـة ، لهم مراتب

مختلفة ومتنوعة . فإن الهدف النهائي من الخلق سوف يكون بالتأكيد إنساناً ذو كمال معنوي أكثر ، وبالأحرى أكثر الناس كمالاً وأسماهم . وأما الأناس الآخرون ، فلن يكونـوا من حيث الكمال والفضيلة بهـذه الدرجة والمرتبة ، رغم أنهم أهـداف متوسـطة ، بيد أنهم لم يكـونوا هدفاً نهائياً ، بل أنهم وقعوا في مسير هذا الهدف ، وأن الشيء الذي يقع في مسير الهـدف النهائي ، ولا يكـون الهدف النهـائي ، سيكون فـاعلاً بـالشكل المغلوب والمـراد قريناً للهدف النهـائي . ولن يكون بعكس ذلك مطلوباً ، ولن يصبح موضع إرادة الفاعل .

وبعبـارة أخرى : إن الهـدف من خلقة الإنسـان ليس وقفاً على تربية الإنسان « أكمل من جميع الجهات » ، بل أن الأناس الآخـرين الذين يتحلون بالكمال الإنساني قليلاً أم كثيراً ، يكونون ضمن الهدف من الخليقة . بيد أن هذه الكمالات النسبية يضمنون الهدف في حالة أن يكونوا ملحقين بالهدف النهائي ، وبعكس هذه الحالة ، لن تكون الكمالات المتوسطة محرّكاً للفاعل من أجل القيام بالعمل . كالأستاذ الذي يقوم بالتدريس في إحدى الصفوف ، والذي له خمسة طلاب من المتفوقين ، وعشرون طالب متوسط ، فهو يريد أن يوصل الجميع إلى الكمـال اللائق ، بيـد أنه لـو لم يكن في الصف خمسـة من الـطلبـة المتفوقين ، فلن يكن يؤهله لتدريس عشرين طالباً آخر .

وبكـلام آخر ، فـإن الهدف من الحصـول على شهـادة الصف الأول ، هـو الوصـول إلى الصف الثاني ، في حين أن الـوصول إلى الصف الثاني ليس الهدف النهائي ، بل أنه في سياق الهدف النهائي ، الذي يكمن في الحصول على شهـادة علمية عـالية تؤهله للعمـل في

إحدى الدوائر . صحيح أن « النبي آدم » ـ عليه السلام ـ كان « خليفة الله » على وجــه الأرض ، وكــان لــه نصيب وافــر من الكمــالات الإنسانية ، بيد أنه لم يكن الأفضل أبداً ، بل أنه كان في سياق خلقة الأناس الأفضل، الذين ظهروا من نسله هو، وإن هؤلاء الآناس الأفضل يشكلون الهدف النهائي من خلقة الناس ، وإن لم يكونوا هذه النماذج الراقية ، فلم يصبح الإناس الذين يقعون في سياق الهدف النهـائي ، موضع الخليقة . وصحيح من هذه الجهة أن يقال :

« يا آدمُ ، لَولا مُحمَّدٌ لما خَلقتُكَ » .

وإلى هنا اتضح مفاد الآية الشريفة :

﴿ وما خَلَقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليَعبدُونِ ﴾[1] .

أمّا الآية ١٢ من سورة الطلاق ، فإن ملخص الحديث حولها هو أن عِلمنا بصفات الله عزّ وجل ، ومن ضمنها علمنا بقدرة الحق الذي تحكي عنه العبارة التالية : ﴿ لِتَعلمُوا أنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ ﴾ . يؤدي إلى كمالنا ، وإن هـذا الكمال هـو نفسه الـذي تحدثنـا عنه في السابق : الهدف من خلقة الإنسان هو تربية الإنسان الكامل . ولهذا ، تستطيع هذه الآية الشريفة أن تكون برهاناً على صدق كلامنا .

فضلاً عن ذلك ، فهناك رأي آخر حول الآية الشريفة ، وهو أن علمنا هو بقدرة الله سبحانه وتعالى ، والهـدف ومنتهى الخلقة إليـه . وليس الهـدف من ذلـك والفــرق بين هـذين الإثنين (المنتهى إليــه والهدف) واضحاً . وأحياناً تترتب على حركةٍ وعملٍ نتيجة ، في حين يكون الهدف غير ذلك . مثلاً يقول « القرآن الكريم » :

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

﴿ وَلَقَد ذَرَأنَا لِجَهنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإنس ﴾[1] .

ومن المسلّم بـه ، أن اقتياد النـاس إلى جهنم ، كـان النتيجـة الجبـرية للخلقـة ، وليس أن الله سبحانـه خلق هؤلاء من أجـل هـذا الهدف ، يعني أن خلقة الله تعالى وصلت إلى هذه النتيجـة ، بسبب عدم انصياع الإنسان لأوامر الله ، وليس أن الهدف كان منذ اليوم الأول من الخليقة ، هـو سوق هؤلاء إلى جهنم .

ويمكن إبـراز هـذا الـرأي نفسـه بصـدد الآيـة ١٢ من « سـورة الطلاق » ، يعني أن الله سبحانه وتعالى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنَّ ، يتنزل الأمر بَينَهُنَّ ، لتعلموا أن الله على كُلِّ شيءٍ قدير .

الإشكال الرابع :

يـوجـد في سنـد هـذا الحـديث ، « عبـد الـرحمـان بن زيـد الخطاب » ، وهو في سلك « الـرواة ضعيف » ، رغم أن الحاكم في مستدركه ، اعتبر هذا الحديث صحيحاً ، ولكنه وصف عبد الـرحمان في كتاب آخر له بالضعيف .

الإجـابــة :

لقد كتب « ابن حجر العسقلاني » المتوفي سنة ٨٥٢ ، شرحـاً حوله في كتاب « تهذيب التهذيب »[2] ، ولا يشير أبداً إلى ضعفه ، أو

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .

(٢) « تهذيب التهذيب » المجلد ٦ ، الصفحة ١٧١ .

إلى كونه ثقة ، ويقول : عندما ولد عبد الرحمان ، لفَّهُ « أبو لبابة » جدَّه عن أمه ، بألياف النخيل وأحضره عند النبي الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ، فوضع النبي يده على رأس الطفل ودعا له .

يكتب « أبو عبد الله محمد بن عثمان » المعروف بـ « الذهبي » المتوفي سنة ٧٤٨ ، في كتاب « ميزان الإعتدال في نقد الرجال »[1] ، يكتب حوله ما يلي :

« لقد أضعفه يحيى بن معين والدارمي والبخاري والنسائي ، بيد أن أحمد بن حنبل وثّقه ، واحتج الشافعي على حديثه » .

وعلى هذا ، فإن كون عبد الرحمان ضعيفاً ، ليست مسألة صدقة ، بل إنه كجماعة ، يكون موضع اختلاف . فكلما نقلت أحاديث من الشيعة بهذا الصدد ، تلحق بحديثه ، ويمكن الإذعان على صحة ذلك .

لنفرض أنه كان ضعيفاً مائة في المائة ، ولا يمكن الإحتجاج بروايته أبداً ، بيد أنه روح الكلام يكمن في أنه إذا كان التوسل بالأشخاص المحترمين ، شركاً ، بشكل أنه يتوجب على مقترف ذلك التوبة ، وإن لم يَتُبْ يضرب عنقه في ساحة الرياض ، وفي مسعى مكة المكرمة ، فلماذا إذن تغافل محدثون أمثال الحكم وأبو نعيم البيهقي والسيوطي و . . . تغافلوا هذه النقطة ، ولم يعروا الإهتمام لذلك ؟! .

ألا تدعو الفئة الوهابية ، المسلمون في العالم إلى اقتفاء طريق

---

(١) « ميزان الإعتدال في نقد الرجال » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٥٦٤ .

ونهج السلف الصالح ؟ وأليس مؤلف كتاب « التوصل » مؤسس « الدعوة السلفية » ؟ فلماذا إذن نقل السلف الصالح هذا الحديث وأمثاله بلا تحفظ ، ولم يخطر ببالهم أبداً موضوع الشرك ؟

لنفرض أن عبد الرحمان ، ابن أخ الخليفة الثاني اختلق ووضع حديثاً كهذا عمداً ، فهل يسمح مختلق الحديث ، وهو من آل الخلافة ، لنفسه أن يختلق حديثاً لا يتقبله الناس ؟ بلا شك ، كلا . إن الكذّاب الذي يريد أن يتناقل كلامه في المجالس ، وتتناقله الألسن ، يصنع كذباً غريباً ، يجعل الناس يتنافرون منه .

وباختصار عندما يلحق هذا الحديث بأحاديث التوسل الأخرى ، والتي يفوق عددها على الثلاثين ، وأن يؤخذ بنظر الإعتبار إقبال المحدثين والمفسرين في نقلها ، فيمكن للإنسان أن يقول بشكل جازم ، أن مضامينها لم تكن مخالفة لأصول التوحيد ، وأن التوسل بالذوات والشخصيات الفاضلة على عكس مبالغة الوهابيين في الكلام ، لا إرتباط له بالشرك .

لقد تجاوزت الروايات التي وردت في هذا المجال ، حد التوتر ، ولا يمكن أن يصيب ضعف سندها لدى الإحتجاج بها بأذى .

يحاول السيد « محمد نسيب الرفاعي » كثيراً في كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، لأن يجعلها مرفوضة من حيث السند ، بيد أنه أغفل نقطة واحدة ، وهي أن هذا العدد الكبير من الروايات والتي تبحث كلها عن هدف واحد ، وهي بالأحرى المتواترات المعنوية ، لا يمكن رفض البعض منها كونها ضعيفة من حيث السند ، ولا يمكن أبداً أن يكون ضعف سند الأخبار المتواترة مانعاً عن الإحتجاج .

ناهيك عن هذا ، فإن هذه المجاميع الكثيرة من الروايات الواردة في الصحاح ومسانيد أهل السُّنة ، تدل تلقائياً على أنه لم يكن لمسألة التوسل صلة بمسألة الشرك والتوحيد في ذهن المسلمين في صدر الإسلام ، وإنهم كانوا يفهمون من التوحيد معنىً ، كان منسجماً تماماً بهذه التوسلات ، وإن كان منظور السلف الصالح هو الحجة ، فلماذا إذن أبدى عصيانه في هذا المجال ، عن طريق ونهج السلف الصالح ، واقتضى طريق ونهج ابن تيمية اللذان هما موضع تكفير علماء عصره ؟

الإشكال الخامس :

قال بعض المفسرين أن المقصود من الكلمات في الآية موضع البحث ، هو مضمون الآية ٢٣ من « سورة الأعراف » ، وهنا حيث يقول :

﴿ قالا رَبَّنا ظَلَمنا أنفُسَنا وإن لَم تغفِر لَنا وتَرحَمنا لَنكُونَنَّ من الخاسِرينَ ، قال اهبِطوا بَعضُكُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

الإجابـة :

أولاً : يتضح من خلال ملاحظة آيات سورة البقرة المباركة ، حيث وردت فيها عبارة « تلقى كلمات » ، وآيات سورة الأعراف التي جاء فيها عبارة **﴿ رَبَّنا ظَلَمنا ﴾** ، يتضح أن المقصود من الكلمات في سورة البقرة ، ليس آية **﴿ رَبَّنا ظَلَمنا . . . ﴾** ، لأن ترتيب الآيات في سورة البقرة ، هو كالتالي :

﴿ فَأَزَلَّهُما الشَّيطانُ . . . وَقُلنا اهبِطُوا بعضُكم لبعضٍ

عَدُوٌّ . . . فتَلَقّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كلماتٍ . . . ﴾ .

فكما تلاحظون في هذه السـورة المباركـة ، أنه بعـد زَلَّة آدم ، طـرح موضوع هبوط آدم ، ومن ثم مسألة تلقي الكلمـات . في حين أنه وردت في سورة الأعـراف ، الآية ﴿ رَبَّنـا ظَلَمنا أنفُسنـا ﴾ ، قبل مسألة الهبوط . فإذا كان المقصود من تلقّي الكلمات نفس آية ﴿ رَبَّنا ظَلَمنا أنفُسنا ﴾ ، لكان من الأجدر أن تكـون هذه الآيـة قرينـة لِآيات سورة البقرة ، بعد الهبوط ، فى حين أنها وردت قبل الهبوط .

لقد اتضح من هذا العرض ، أن الهـدف من آية ﴿ رَبَّنـا ظَلَمنا أنفُسنا ﴾ ، هو نوع من التذلل والخضوع والتواضع أمـام الله سبحانـه وتعالى ، ولقد تمّت التوبة في غير هذه العبارات .

ثانياً : لا عائق أبداً من أنه كان التـوسل بـالنبي الأكرم (ص) ، والآية الشريفة ﴿ رَبَّنا ظَلَمنـا أنفُسَنا ﴾ كليهمـا ضمن توبـة آدم ، وأن يكون آدم ـ عليه السلام ـ مستغفراً بمجموعها .

وعلى هذا يمكن مقارنة العديـد من الروايـات التي تبين شكل توبة آدم ـ عليه السلام ـ مقارنتها مع الأخرى . لقد نقل « السيـوطي » في كتابه « الدر المنثور » كيفية توبة آدم (ع) ، بأشكال مختلفة ، نشير بدورنا إلى مستهل كل منها :

أ ـ ألَم تَخلُقني بيَدِكَ ؟ قالَ بلى . . .

ب ـ اللّهُمَّ إنَّكَ تعلَمُ سِرّي وعلانيَتي . . .

ج ـ اللّهُمَّ لا إلهَ إلاّ أنتَ ، سُبحانَكَ وبِحَمدِكَ . . .[1] .

---

(1) « الدر المنثور » ، المجلد ١ ، الصفحة ٥٩ .

كمـا أن المرحـوم السيد هـاشم البحـراني ، المتـوفي في عـام ١١٠٧ ، نقل في « تفسير البرهان » ، طريقة توبة آدم ـ عليه السلام ـ بصور مختلفة . يمكن للراغبين الرجوع إلى « تفسير البرهان »[١] .

إن طريقة جمع ذلك ، أن هذه الأحاديث إما وردت على أساس « نقـل المعنى » ، أو أن محصلتهـا تشكّـل طـريقـة تـوبـة آدم عـليـه السلام ـ . ولا مانع من أن يكون كل ذلك ضمن توبة آدم ، ولا تكون « مانعة الجمع » أبداً .

الحـديث الـرابع :

توسل النبي الأكرم (ص) بالأنبياء السابقين :

« لَمّـا ماتَت فـاطِمةُ بنتَ أسَـدٍ ، دَخَلَ عليهـا رسـول الله (ص) فجلَس عِنـدَ رأسِها ، فَقـالَ رَحِمـكِ الله يـا أُمّي بَعـدَ أمّي ، ثُمَّ دعـا رسُـولُ الله (ص) أسامـةَ بن زيـدٍ ، وَأبـا أيُّـوبَ الأنصـاري وعُمَـرَ بن الخطّاب وغُلاماً أسودَ ، يَحفرُونَ ، فَحَفَرُوا قبرَها ، فلَمّا بلغوا اللَّحَدَ ، حَفَـرَ رَسُولُ الله بيـدِه وأخرَجَ تُـرَابَـهُ ، فَلَمّا فـرغ دَخَـلَ رسُـولُ الله (ص) فاضطَجَعَ فيهِ ثُمَّ قالَ : الله الّذي يُحيي ويُميتُ وَهُـوَ حيٌّ لا يَموتُ ، إغفِر لأمّي فاطِمةَ بنتَ أسَدٍ وَوَسِّعْ عَلَيها مـدخَلَها بحقِّ نَبيِّـكَ والأنبياءِ الّذينَ مِن قَبلي » .

يقول مؤلفـ « خلاصة الكلام » :

---

(١) « تفسير البرهان » ، المجلد الأول ، الصفحة ٨٦ ـ ٨٩ .

« رواهُ الطَّبرانيُّ في الكَبيرِ والأوسَط وابنُ حَبّانٍ والحاكِمُ وَصَحَّحُوهُ »[1] .

يقول « السمهودي » في « وفاء الوفا » :

« وفي الكبير والأوسط بسند فيه روح بن صلاح وثقه ابن حيان وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح »[2] .

يقول السيد أحمد زيني دحلان ، في كتاب « الدُّرَرُ السَّنِيَّةِ في الرَّدِّ على الوهّابيَّةِ » ما يلي :

« رَوى إبنَ أبي شيبةٍ عن جابرٍ مِثلَ ذلِكَ ، وكذا رَوى مِثلَهُ ابنُ عَبدِ البرِّ عَن إبنِ عبّاس ، ورواه أبو نعيم في الحُليَةِ الأولياء عن أنَسٍ ، ذَكَرَ ذلِكَ كُلَّهُ الحافِظُ جَلالِ الدّينِ السُّيوطيِّ في الجامِعِ الكبيرِ »[3] .

لقد نقل هذا الحديث في الكتب التالية وبأشكال مختلفة ، حيث يشتمل البعض منها على الدعاء موضع البحث ، ولا يشتمل القسم الآخر عليه . والآن نحيطكم علماً بنتيجة مراجعتي للمصادر :

» ١ ـ « ابنُ عَبدِ البَرّ » المتوفي في سنة ٤٦٣ ، ينقل في كتاب « الإستيعاب » « الذي طبع على هامش الإصابة » ، ما يلي :

لَمّا ماتَت فاطِمةُ أمُّ عَليّ بن أبي طالب ، ألبَسها رسُولُ الله (ص) قميصَهُ واضطجعَ بها في قَبرِها فقالوا ما رأيناكَ صَنَعتَ ما صَنَعت

---

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣١٢ ، نقلاً عن « خلاصة الكلام » ،

(٢) « وفاء الوفا » ، المجلد ٣ ، الصفحة ٨٨٩ ، قِسم « القبور الموجودة في البقيع » .

(٣) « الدرر السنية في الرد على الوهابية » ، الصفحة ٨ .

بهذِهِ ، فقالَ إنَّهُ لَم يكُن أحَدٌ بعد أبي طالِب أبرَّ بي مِنها إنّمـا ألبستُها قَميصي لتُكس من حُلَلِ الجَنَّةِ واضطَجعتُ مَعَها ليَهُونَ عَلَيها »(1) .

٢ ـ ينقـل « الحاكم » في كتـابـه « المستـدرك » نص الحـديث وبالشكل التالي :

« لَمّا ماتَت فاطِمةُ بِنتُ أسَدِ بن هاشِم ، كَفَّنَها رسُولُ الله (ص) في قميصِه وَصَلّى عَلَيها وَكَبَّرَ عَلَيها سَبعِينَ تكبيرةً ، وَنزَلَ في قبرها فجعَـلَ يـومي من نواحي القَـبرِ ، كأنّـه يوَسِّعُـهُ ويُسَوي عَليهـا وخَرَج من قَـبرِها وعيناه تذرِفان »(2) .

٣ـ يكتب « المـرحوم الكليني » المتـوفي سنـة ٣٢٩ في كتـاب « الكـافي » ، في « باب مـولد أميـر المؤمنين » ـ عليه السـلام ـ ، ما يلي :

« . . . ودَخَلَ القبرَ فَاضطَجَعَ فيهِ ثُمَّ قامَ فأخَذَها على يديهِ حَتّى وَضعَها في القَبرِ ثُمَّ انكَبَّ عَلَيها طَويلاً يُناجيها ويقولُ لها : إبنكِ ، ثُمَّ خَـرَجَ وَسَـوّى عليهـا التُّـرابَ . . . وإنّي ذكـرتُ القيـامَـةَ وأنَّ النّـاسَ يُحشَرونَ عُراةً ، فقالت : واسوأتاه ، فَضمِنتَ لها أن يَبعثَها الله كاسِيةً فذكرتُ ضغطَةَ القَبرِ ، فَقـالت : واضَعفاهُ فضمِنتُ لَهـا أن يكفيها الله ذلِكَ ، فَكفَّنتُها بقميصي واضطجَعتُ في قَبرِها لِذلكَ وانكَبَبتُ فَلَقَّنتها مـا تُسئلُ عَنـهُ ، فإنّهـا سُئِلَت عَن رَبِّها فقـالت ، وسُئِلت عَن رَسُولهـا فـأجابَت ، وسُئِلَت عن وَلِيِّهـا وإمـامِها فـارتجَّ عَلَيهـا ، فَقُلتُ إبنُـكِ

---

(1) «الإستيعاب » ، المجلد ٤ ، الصفحة ٣٨٢ .

(2) « المستدرك » ، المجلد ٣ ، الصفحة ١٠٨ .

إبنُكِ . . . »[1] .

صحيح أنه ليس في هذه الأسانيد الثلاثة (الإصابة ، والمستدرك ، والكافي) أثر من الدعاء موضوع البحث ، بيد أن أهل الإدراك والكمال والقلوب اليقظة والعليمة يستطيعون الإستفادة من مضامينها في موضوع أسمى ، حيث أن جثمان النبي الأكرم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مؤثر إلى حد أنه يستطيع أن يخرج الميت من مخالب القبر ، وقميص النبي محترم إلى درجة أنه يتبدل يوم القيامة إلى ملابس الجنة الفاخرة . (تحكي رواية الكافي على أن المذاكرة بأرواح الأموات من هذا العالم ممكنة التحقيق) .

٤ ـ لقد شاهد المحرر ، هذا الحديث بالشكل الذي طرح في مستهل البحث ، قد انعكس في اسانيد اثنين ، كما يلي :

أ ـ « حلية الأولياء » ، لـ « أبا نعيم الأصفهاني »[2] .

ب ـ « وفاء الوفاء » ، لـ« السمهودي »[3] . فهو يكتب :

« في الكبيرِ والأوسَطِ ، بسَنَدٍ فيهِ رُوحُ بن صلاحٍ وَثَّقه ابنُ حبّانٍ والحاكِمُ وَفيهِ ضَعفٌ وَ . . . » .

ومختصر القول هو أن الحديث موضع البحث موجود في الأوساط الحديثية ، والرواة جميعهم ثقة ، وأن الرواي الوحيد موضع

---

(١) « أصول الكافي » ، كتاب الحجة ، باب مولد أمير المؤمنين (المجلد الأول ، الصفحة ٤٥٣) .

(٢) « حلية الأولياء » ، المجلد الثالث ، الصفحة ١٢١ .

(٣) « وفاء الوفا » ، المجلد الثالث ، الصفحة ٨٩٩ ، قسم قبور البقيع .

البحث هو « روح بن صلاح » ، وإننا ننقل وجهة نظر الرجالي المعروف لأهل السنة ، حول ذلك :

« روحُ بنُ صَلاحٍ المصريّ ، ضَعَّفَهُ ابنُ عَدِيٍّ وقَد ذَكَرَهُ ابنُ حبّانٍ في الثّقاتِ وقالَ الحاكِمُ ثِقةٌ مأمُونٌ ، ماتَ سنةَ ٢٣٣ »[1] .

إستناداً إلى أن هذا الحديث قد نقل في أوساط السنّة والشيعة ، فليس اختلاف المضمون من حيث جملة واحدة أو جملتين مضراً ، وإذا كان روح بن صلاح شخصاً جرى تضعيفه ، واعتبره شخصان آخران ثقة ، وإذا أصبح هذا الحديث الذي ورد في أكثر من عشرين حديثاً في هذا المجال ، أصبح ملحقاً ، فالموضوع سوف يظهر بصورة التواتر المعنوي ، ولن يكن من حاجة إلى ملاحظة أسانيد الروايات .

الحديث الخامس :

لقد نقلت مجموعة من المحدثين الإسلاميين ، أنه دخل إعرابي من البادية ، على النبي الأكرم (ص) ، وبدأ بالحديث ، قائلاً :

« لَقَد آتيناكَ وما لنا بَعيرٌ يئِطُّ[2] لنا ولا صبيٌّ يَغِطّ[3] » .

ثم أنشد هذه الأشعار :

آتَيناكَ والعَذراءُ تَدمى لَبانُها
وَقَد شَغَلَت أُمُّ الصَّبيِّ عَنِ الطِّفلِ

(١) « ميزان الإعتدال في نقد الرجال » لـ « الذهبي » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٥٨ .

(٢) يَئِطُّ : مشتق من « أطيط » ، وتعني صوت البعير .

(٣) يَغِطُّ : تتأتى من « غطيط » ، وتعني صوت الطفل الذي ينام .

ولاَ شَيء بِمّـا يـأكُـلُ الـنّـاسُ عِـنـدنـا
سِـوىَ الحنـظَلِ الغـامّي والعِلهـزِ الفَسْـلِ
وَلَـيسَ لـنـا إلاّ إلَـيـكَ فـرارُنـا
وَأيـنَ فـرارُ الـنّـاسِ إلاّ إلى الـرُّسُـلِ »

ثم :

« فَقامَ رَسُولُ الله يَجُرُّ رِداءَهُ حَتّى صَعِدَ المَنبَـرَ ، فَرَفَـعَ يَدَيـهِ : اللّهُمَّ اسقِنا غيثاً مُغيثاً . . . فَما رَدَّ النَّبيُّ يَدَيهِ حَتّى ألقت السَّماءُ . . . ثُمَّ قالَ لله دَرُّ أبي طالبٍ لَو كانَ حيّاً لقَرَّت عيناهُ ، مَن ينشِدُنـا قولَـهُ : فَقامَ عَليٌّ بنُ أبي طالبٍ ، وقالَ وكأنّكَ تُريدُ يا رسُولَ الله قَولَهُ :

وأبـيَضُ يـسـتَـسـقَـى الـغَـمـامُ بِـوَجـهِـهِ
ثِـمـالُ اليـتـامَى ، عِـصـمَـةٌ لـلأرامِـلِ
يَـطُوفُ بِـهِ الهُـلاّكُ مِـن آلِ هـاشِـمِ
فَـهُـم عِـنـدَهُ في نِـعـمَـةٍ وَفـواضِـلِ

فقال « النبي الأكرم » ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ :

« أجَل ، فأنشَدَهُ أبياتاً من القَصيدَة والرَّسُولُ يستغفِرْ لأبي طالبٍ عَلى المنبَرِ ، ثُمَّ قالَ رَجُلٌ من كَنانَةَ وأنشَدَ :

« لَـكَ الحَـمـدُ وَالحَـمـدُ مِمَّـن
شَكَـرَ ، سُقينـا بِـوَجـهِ النَّبيِّ المَـطَرَ »(١)

---

(١) لقد استفاد المؤلف من ضمن الأسانيد الكثيرة التي نُقلت لهذا القسم ، استفاد من الأسانيد التالية :
=

متى كان استسقاء علي بن أبي طالب ؟

يكتب « ابن عساكر » في تأريخه :

« التجأ أهل قريش إلى أبي طالب ، وقالوا : لقـد خيَّم القحط على أراضينا ، وسلّط الجوع على أبنائنا ، فتعال واطلب المطر ؟ » .

« فخرج أبو طالب لطلب المطر ، وأخذ معه غلاماً يسطع وجهه كالقمر ، . . . » .

« فأَخَذَهُ أبو طالبِ وألصَقَ ظَهرَهُ بالكعبةِ ولاذَ بإصبعِهِ الغُلامَ وما في السَّماءِ قَزعةٌ ، فأقبَلَ السَّحابِ وَمَن ها هُنا وها هُنا . . . »[1] .

= أ ـ « عمدة القارىء في شرح حديث البخـاري » ، المجلد ٧ ، الصفحة ٣١ ، المحـرر « بـدر الدين محمـود بن أحمد العين » ، المتـوفي سنة ٨٥٥ ، طبعـة دارة الطبـاعة المنيرية .

ب ـ « شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة » ، المجلد ١٤ ، الصفحة ٨٠ .

ج ـ « الحجّـة على الـذاهِبِ إلى تكفيـر أبي طـالب » ، تـأليف شمس الـدين أبي علي الفخارين ، المتوفي سنة ٦٣٠ ، طبعة النجف ، مطبعة العلوي ، الصفحة ٧٩ .

هـ ـ « سيرة زيني دحلان » على هامش سيرة الحلبي ، المجلد الأول .

(١) لقد كتب هذه القطعة التاريخية العديد من المحدثين والمؤرخين ، ونشير بدورنا إلى البعض منهم :

أ ـ « المـواهب اللدُنيَّة بـالمِنَحِ المحمـدية » ، تـأليف أحمد بن أبي بكـر الخطيب القسطلاني ، طبعة دار الكتب العلمية .

ب ـ « إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري » ، تأليف شهاب الدين ، أحمد بن محمـد القسطلاني ، المتـوفي سنـة ٩٢٣ ، طبعـة دار صـادر ، أوفست ، المجلد الثاني ، الصفحة ٢٣٨ .

ج ـ « سيرة الحلبي » ، المجلد ١ ، الصفحة ١٣٨ .

د ـ « سيرة زيني دحلان على هامش سيرة الحلبي » ، المجلد الأول ، الصفحة ٨١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استسقاء عبد المطلب :

ينقل «الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ، أبو الفتح)» في كتابه «الملل والنحل» : أنه كان على علمٍ بمقام الرسالة وشرف نبوّة ولده ، لأنه خيَّمَ القحط على مكة لمدة عامين ، فقال هو لأبي طالب : أن يأتي بطفله الرضيع « مصطفى » . ثم وقف قبالة الكعبة ، حاملاً بيديه طفله الرضيع . رافعاً إياه إلى السماء ، وقال :

« يا رَبِّ ، بِحَقِّ هذا الغُلامِ ، إسقنا غَيثاً مُغيثاً دائِماً هاطِلاً . . . »[1] .

لم يكن عبد المطلب وأبو طالب ، لوحدهما فقط يقومان بالإستسقاء بوسيلة ولديهما ، بل يمكن استنتاج ذلك تماماً من خلال نقل المحدثين أمثال البخاري والبيهقي ، من أن هذا التقليد كان لا يزال عالقاً في أذهان المسلمين ، وكان شعر أبو طالب ، على لسان الصحابة والتابعين .

ينقل « البخاري »[2] ، عن عبد الله بن دينار : أني سمعت من ولدي عمر ، أنه كان يتمثل بشعر أبي طالب ، ويقرأه . وهنا حيث يقول :

« وأبيَضُ يُستَسقَى الغَمامُ بِوجهِهِ
ثِمالُ اليَتامىٰ عِصمَةٌ للأرامِلِ »

---

(١) « الملل والنحل » للشهرستاني ، هامش قاموس عبد المطلب (الصفحة ٤٣٢ ، من ترجمة أفضل الدين الأصفهاني) .

(٢) « البخاري » ، باب الإستسقاء ، المجلد الثاني ، الصفحة ٢٧ .

وينقل كذلك عن أبي « سالم » ، أنه : عندما كنت أرى النبي الأكرم (ص) على المنبرِ يطلب المطر للناس ، كان يخطر قول الشاعر ببالي ، وأنا أنظر إلى وجههِ ، فلم يكن يترك المنبر إلا عندما ينهمر المطر كالمزراب[1] .

ونقل « البيهقي » أيضاً في كتابه[2] ، نقل كلا الموضوعين .

دراسة أحاديث الإستسقاء :

يستنتج لنا من خلال ملاحظة هذه الأجواء التاريخية ، المواضيع التالية وبوضوح :

١ ـ ذهب الإعرابي من شدة العطش والظمأ ، إلى الرسول الأكرم (ص) وأنشد أشعاراً ، لم تكن غايته إلى « الرسول الأكرم » ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ غير عرض الحاجة ، ولم يكن له بديل غير ذلك .

وإذا اعتلى النبي الأكرم (ص) المنبر بعد حديث ذلك ، وقام بالدعاء وطلب المطر من الله سبحانه وتعالى ، فليس دليلاً على أن الإعرابي كان يطلب من النبي الأكرم (ص) بصدد نفس الفكرة (طلب الدعاء) . لأنه الطريق الذي انتخبه النبي (ص) للوصول إلى غرضه المطلوب ، وليس أنه اقترح على النبي (ص) هذا الطريق ، بل أنه جاء إليه وطلب المطر من النبي (ص) ، ولم تكن لديه وسيلة خاصة ،

---

(١) المقصود بقول الشاعر ، هو الشعر المذكور آنفاً .

(٢) « السنن الكبرى » ، طبعة الهند ، في المجلد الثالث ، الصفحة ٣٥٢ .

وهذا نفسه دليل على أن هذا النوع من التوسل ، هو جائز أيضاً ، رغم أن توسلاً كهذا يختلف قليلاً بالتوسل موضع البحث ، لأن محل البحث هو أن نجعل من شخصٍ واسطة لنا في عتبة الساحة الإلهية لدى استنجادنا بالله جلّ جلاله ، في حين أن الأعرابي تشبث بالنبي الأكرم (ص) بدون أن يقوم بالدعاء،وطلب منه النتيجة ، لأنه كان يعلم أن النبي (ص) قادر على القيام بعملٍ كهذا .

أن طلب الإعرابي ، هو تماماً كطلب المعجزة من مدّعي النبوّة أن يشفي مريضاً ، ويجعل الأعمى بصيراً ، و . . . كما طلب الإعرابي المطر من النبي الأكرم (ص) .

وبعبارة أخرى : فلم يكن الإعرابي بنظره سوى وسيلة ، ونتيجة ولا غير ، فالوسيلة هي ذات النبي الأكرم (ص) نفسها ، والنتيجة كانت عملية هطول المطر ، ولم يكن الإعرابي أبداً قد تنبأ بأية طريقة سوف يصل النبي إلى هذه النتيجة ، في حين كان يمكن للنبي الأكرم (ص) أن يصل إلى هذه النتيجة عبر الطرق التالية :

أ ـ أن « النبي الأكرم » ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يستطيع بالقدرة الروحية والولاية الإلّهية وبإذن الله تعالى أن يتصرف في زاوية من العالم ، وأن يهيىء بإرادته المتنفذة ، وسيلة هطول المطر ، وأن تصرف النبي الأكرم (ص) هو كتصرف « آصف برخيا » لدى إحضار عرش بلقيس[1] ، أو تصرف النبي سليمان ـ عليه السلام ـ في تحديد مسير الريح[2] ، أو تصرف عيسى المسيح ـ عليه السلام ـ في شفائه للعديد من المرضى[3] ، كما أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة بإرادتهم

(١، ٢، ٣) إنّ الآيات القرآنية صريحة وواضحة بصدد إمكانية تصرف الإنسان الكامل على =

المتنفذة يتصرفون في زاوية من العالم ، وكان النبي الأكرم (ص) يستطيع أيضاً أن يتصرف في أجواء المدينة وضواحيها ، وأن يهيىء لهؤلاء وسيلة لإسقاء فيئهم .

ب ـ أن يُعلّم النبي الأكرم (ص) الإعرابي ، كمثل الأعمى ، الدعاء ، وأن يصل الإعرابي إلى هدفه على أثر الدعاء الذي يتعلمه من النبي (ص) .

ج ـ أن ينهض النبي ، ويرفع يداه داعياً إلى الله تعالى ، طالباً منه المطر ، وأن يستجاب دعائه ، وأن يطغي هطول المطر على أرجاء المدينة .

= عالم التكوين . حيث يقول حول « آصف برخيا » ما يلي :

﴿ قالَ الّذي عِندَهُ عِلمٌ من الكِتابِ أنا آتيكَ بِهِ قبلَ أن يَرتَدّ إليكَ طرفُكَ ﴾ (سورة النمل ، الآية ٤٠ .

ويقول حول « النبي سليمان » :

﴿ ولِسَليمانَ الرّيحَ عاصِفةً تجري بأمرِهِ ﴾ . (سورة الأنبياء : الآية ٨١) .

ونقرأ بصدد « المسيح » أيضاً ما يلي :

﴿ وتَبرىء الأكمة والأبرَصَ بإذني ﴾ . (سورة المائدة : الآية ١١٠) .

إن الآيات المذكورة تعتبر بوضوح أن فاعل هذه الأعمال والقائم بها هم أناس مختارون ، كما يقول :

١ ـ أنا آتيكَ .

٢ ـ تَجري بِأمرِهِ : كانت تجري بأمر سليمان .

٣ ـ تُبرِيء : أنت تشفي العميان .

كلنا يعرف طبعاً : أن قدرة الإنسان في الحالات الطبيعية والخارقة للعادة ، كانت مستندة على الله تعالى ، ولن يتمكن أي شخص أن يقوم بدون قدرة الله سبحانه ، بأي عمل .

لم يرد الإعرابي ، شيئاً آخر عدا النتيجة ، كان يعتبر سهواً وسيلة العمل ، فلم يكن قد عيَّن وسيلة للرسول الأكرم (ص) ، وكان يتوسل إلى النبي فقط ، ويريد النتيجة .

يتضح من خلال هذا التبيان : هو أن مؤلف كتاب « التوصل » اتخذ هذا الحديث وثيقة على جواز التوسل بدعاء المؤمن ، وليس هذا إلّا حكماً مسبقاً ، لا غير ، ولا يدل دعاء النبي على أنه كان يطلب الدعاء من النبي الأكرم (ص) ، وإنما كان يطلب النتيجة من النبي ، ولم تكن الوسيلة بالنسبة له ذات أهمية .

ناهيك عن ذلك ، فكيف يمكن أن تكون القصيدة التالية ، مفروضة على طلب الدعاء ؟ . . . كما يقول :

وَلَيس لَنا إلّا إلَيكَ فِرارُنا　　　وأينَ فِرارُ النّاسِ إلّا إلى الرُّسُل

فكم هي بعيدة عن الذوق حقاً ، أن يحصر الإنسان توسلاً واسعاً وشاملاً كهذا ، أن يحصره بصورة واحدة ، وأن يقول أنه كان على أهبة الإستعداد لأن يطلب الدعاء من النبي الأكرم (ص) بصدد المطر .

والأنكى من هذا ، هو كلام آخر عنه ، يقول فيه :

« وَلَو كانَ الإعرابيُّ مُتَوسِّلاً لِذاتِه لَبَقى في مَنزِلِهِ واكتَفى أن يقُولَ وهُو في بيتِهِ : اللّهُمّ اسقنا الغَيثَ بجاهِ نبيكَ . . . »[1] .

إن جواب هذا الإعتراض واضح ، لأنه إذا كان هدف الإعرابي ذلك القِسم من التوسل ، الذي يتخذ فيه ، في حالة الطلب من الله

---

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ٢٩١ .

سبحـانه وتعـالى ، من النبي الأكرم (ص) وسيلة لنفسـه ، لأكتفى أن يجلس في بيته وأن يتوسل بالشكل الذي قيل عنه .

بيد أننا قلنا قبل قليـل ، أن توسله ألى النبي (ص) كـان بشكل واسع ، وباختصار أنه كان يعرف أن النبي الأكرم (ص) يستطيع وبطرق مختلفـة ، أن يلبي طلبـه ، ولـم يتمكن تـوسـلاً كهـذا أن يتحقق إلاّ بالتشرف بحضور النبي (ص) .

إن إشكال السيد الرفاعي هو على هذا الأساس ، كونه تصوَّر أن التـوسل إلى الـذات ، ليس له أكثـر من صورة واحـدة ، ولهـذا فهـو يقول : أن هذا النوع من التوسل كان ممكن التحقيق بجلوسه في منزله والتضرع إلى الله تعالى . ولـم يعتقد بعد أن للتـوسل بـالـذات صـور أخـرى كذلـك ، حيث أشيـر إليهـا في مستهـل البحث ، ولا تتغـطى شمولية كهذه إلاّ بشرف الكسوة .

٢ ـ وتجلى إلى هنا مفاد حديث الإعرابي ، وبقيت نقطة أخرى في ذلك ، نشير إليها الآن .

صحيح أنه لم يرد في هذا الحديث ، التوسل موضع البحث ، يعني تـوسل الأوليـاء بمقام الـدعاء ، يعني أن الإعـرابي لم يتخذ من النبي الأكرم (ص) في مقام الدعاء والتوسل إلى الله سبحـانه ، وسيلة لنفسه ، بيد أن التوسل الذي قام به الإعرابي في محضـر النبيِّ ، هو أسمىٰ من التوسل إلى النبي في مقام الدعاء ، ولـم يتعرض توسلاً كهذا موضع نهي النبي الأكرم (ص) .

إنه كان يطلب من « النبي الأكرم » ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ

النتيجة ، وكان يعتبره قادراً ومتمكناً على عمل كهذا ، وإن يكون توسلاً كهذا بلا إشكال في التشريع الإسلامي ، فسيكون التوسل بمقام النبي في مقام طلب الدعاء بلا إشكال أيضاً .

الإجابة على أحد الأسئلة :

لقد نقلنا الحديث عن أسانيد الحديث والتاريخ ، ولم نتمكن الحصول على الأسانيد الأخرى ، ومن أهمها « دلائِلُ النُبُوة » للبيهقي .

إن مؤلف كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » يدّعي أن « مسلم الملائي » جاء في سنده ، في الوقت الذي قاموا بإضعافه .

لنفرض أن حضرة السيد الرفاعي ، مؤلف كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » شاهد الحديث شخصياً في كتاب « دلائل النبوة » ، ولم يكتف بنقل السمهودي في « وفاء الوفا » وغيره ، فيقال جواباً لهذا السؤال :

صحيح أن « الذهبي »[1] ينقل ضعفه عن فئة ، بيد أن الذهبي نفسه يقول : « أنه هو الذي نقل حديث « الطير المشوي » حول « علي بن أبي طالب » ـ عليه السلام ـ ، وكأنه بنقله لهذا الحديث اقترف جريمة كبيرة ، في حين أن حديث « الطير المشوي » هو من الأحاديث الإسلامية المتواترة ، حيث أن المرحوم مير حامد حسين قام بتخصيص مجلد واحد من مجلدات كتاب « العبقات » لذكر

(١) « ميزان الإعتدال » ، المجلد ٤ ، الصفحة ١٠٦ .

أسانيده[1] ، فلا يستبعد أن تكون ميوله إلى آل الرسالة سبباً لتضعيفه .

ناهيك عن هذا ، فإن المحققين الإسلاميين نقلوا هذا الحديث أيضاً عن طريق الآخرين ، وأن رواة الحديث في أرجاء الأسانيد ، هم أفذاذ الحديث والتاريخ .

ينقل المرحوم « شمس الدين أبي علي ، فخّار بن معد » ، هذه القطعة التاريخية وبسند معقول في كتابه ، ولا يحتوي سند روايته على إسم « مسلم الملائي » ، بل أن جميعهم من شيوخ الحديث والأدب والتاريخ .

وإليكم رجال سند الحديث الذي أورده الكاتب المذكور في كتاب « الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب » ، الصفحة ٨٧ :

« وقرأتُ عَلى شَيخَنا عَميدِ الرُّؤساءِ ، أبي منصورٍ هِبةَ الله بن حامِدِ بنِ أحمدَ بن أيُّوبِ الكاتِبِ اللُّغويّ . قالَ قرأتُ على الشَّيخ أبي الحَسَنِ ، علي بن عبدِ الرَّحيمِ السُّلَّميّ اللّغَويّ البغداديّ ، قالَ : أخبَرني الشَّيخُ أبو مَنصورٍ مَوهُوبُ بنُ أحمَدَ بنِ الحسينِ الجواليقيّ اللُّغويّ البَغداديّ ، قالَ : أخبرني الشَّيخُ أبو زكريّا يَحيى بنُ عَليّ الخطيبِ تبريزيّ اللغويّ ، قالَ : أخبَرني الشَّيخُ أبو الغنائِمِ عبدِ الله بنِ رَبين الرَّقيّ ، قال : حَدَّثني الرَّئيسُ عَليّ بن أحمد البنّي ،

---

(١) إن خلاصة حديث « الطير المشوي » هو : في إحدى الأيام أُهدي طير إلى النبي الأكرم (ص) ، فعندما جهزّوه له ، قال النبي :
« اللّهُمَّ إئتني بأحَبَّ خَلقِكَ إليكَ يأكُلُ معي فَجاءَ عَليٌّ » .
يقول المحدثون الإسلاميون ، أن هذه الجملة حول الإمام (ع) وردت من قبل النبي الأكرم (ص) أكثر من مرة .

قال حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي ، قال : حدَّثنا القاضي أبو إسحاق إسمٰعيل بن إسحٰق ، قال : حدَّثنا إسمٰعيل بنُ أُويس عن هُشامٍ بن عُروةِ بن الزُّبيرِ عن عائشةَ ، قالت : جاءَ أعـرابيٌ إلى النَّبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلم ، فقالَ : أتيناكَ يا رَسُولَ الله وَلَيسَ لنا صبيٌّ يصطبحُ وَلا بَعيرٌ يَئِطُّ »[1] .

إننا نغض النظر عن كل هذه الأقوال ، ونشير إلى موضوع بيّناه بإسهاب آنفاً :

رغم أن روايات التوسل لم ترد بصورة التواتر اللفظي ، بالأحرى لم تنقل حالة واحدة من الحالات السابقة بصورة التـواتر ، ولكن لأن الجميـع يستهدفـون هدفـاً واحداً ، فسـوف يظهـر بـالتـأكيـد التـواتـر المعنوي ، ولا يستوجب في حالات كهذه العودة إلى سند الرواية .

وأشـرف إلى هنا بحثنـا حول استسقـاء النبي الأكـرم (ص) إلى نهايته ، والآن سنتحدث حول استسقاء « أبو طالب » ووالده الفـاضل « عبد المطلب » ـ عليهما السلام ـ .

لا شك في أن عبد المطلب وإبنه حسن الأداء ، أبو طالب ، كانا يتوسلان بإبنهما الأكرم « النبي محمد » ـ صلى الله عليـه وآله وسلم ـ وليس بـدعـاء النبي الأكــرم (ص) ، لأن حضـرتــه لم يكن في زمن عبد المطلب إلا رضيعاً ، لا أكثر . ولذا كان يرفع إلى السماء أحياناً ، وأحياناً أُخر كانـا يمسونـه بحائط الكعبـة الشريفـة ، ويسألان الله عـز

(١) يصطبح : أي يتناول الصبوح وهو كل ما أكل وشرب .
يئط : أي يصوت وهو كناية عن المجاعة التي أصابتهم .

وجـل ، وبالمقـام والعـظمـة اللتـان كـان يتحلى بهمـا ، يسـألان الله الرحمة . إننا نحصل من ضمن مجموع الروايـات التي وردت بصدد صيغـة استسقاء هـذين الرجلين الفـاضلين ، نحصل على المـوضوع المشروح أدناه :

١ ـ أن التوسل بالأولياء الإلّهيين والشخصيات المقدسة ، هو من أجل نيل رحمة الحق ، وإبراز المحبـة للأوليـاء الإلّهيين ، هو عمـل محبذ جداً يؤدي إلى الحصول على رحمة الحق ، خاصة أن الهـدف من التوسل إلى الأولياء الإلّهيين ، خاصة في موضوع الإستسقاء ، هو أن الله سبحانه يبعث رحمته من أجل هؤلاء ، وإذا كان الآخرون غيـر جديرين لنزول الفيض الإلّهي ، فهم جديرين لنزول رحمة الحق .

٢ ـ إذا كان التوسل إلى الأولياء الإلّهيين أمراً غير مرضياً حقاً ، لا بد اتقائها بأوضح دليل ، في حين أنه لم ترد بهذا الصدد حتى آيـة واحدة ، أو حديث واحد .

٣ ـ يمكن من خلال رغبة النبي الأكرم (ص) في قراءة شعر أبي طالب (ع) ، وانتيابه السرور لدى سماعه شعره ، يمكن بجزمٍ القول ، أن التوسل بالذوات المحترمة ، في مقام الدعاء ، كان عمـلاً مرضيـاً وموضع رضاية صاحب الشريعة .

٤ ـ يمكن من خـلال الأحـاديث التي نقلنـاهـا عن « الجـامـع الصحيـح » للبخـاري والسنن للبيهقي ، تصـور أن مسـألـة التـوسـل بالذوات المحترمة كانت مسألة فطرية سائـدة في مجتمع المسلمين ، ولهذا فعندما كان النبي الأكرم (ص) يطلب المطر ، كان يـراود أذهان الـذين كـانوا في مجلس رسـول الله (ص) ، مضمـون شعـر أبـو

طالب (ع) ، ولم يعتبروا أبداً ، أن مضمون ذلك ينافي مبادىء التوحيد .

الحديث السادس :

إنّ سوادَ بنَ قاربٍ ، رَضيَ الله عنه ، أنشَدَ لرسُولِ الله قَصيدَتَهُ الّتي فيها التّوسُّلُ وَيَقُولُ :

«وأشهَدُ أنَّ الله لا رَبَّ غَيرُهُ
وَإنّكَ مأمُونٌ عَلى كُلِّ غائِبِ
وإنّك أدنى المرسَلينَ وسيلَةً
إلَى الله يا ابنَ الأكرمينَ الأطايِبِ
فَمُرنا بِما يأتيكَ يا خَيرَ مُرسَلٍ
وَإن كان فيها فيهِ شيبُ الذوائب
وَكُن لي شفيعاً يَومِ مَنٍ لا ذو شفاعة
بِمُغنٍ فَتيلاً عَن سوادِ بن قارِبِ »

إن قصيدة سواد بن قارب التي ألقاها في حضور النبي الأكرم (ص) تخطى بالأهمية من ناحيتين :

أولاً : لقد اعتبر الشخص النبي الأكرم (ص) أقرب وسيلة له في العتبة الإلّهية المقدسة ، وسبق أن فسرّنا لفظة الوسيلة ، وقيل أن هذه الألفاظ هي بمعنى « ما يُتَوَسَّلُ بِهِ » ، وإذا استخدمت أحياناً بمعنى « القربة » أيضاً ، فهو من باب الإستخدام اللفظي لـ « السبب » في مفاد « المسبّب » .

يمكنكم ، ومن أجل الإطلاع على حقيقة هذه اللفظة والمحتوى الـواقعي لها ، الـرجوع إلى المعـاجم العربيـة ، وقد عـرضنا بـدورنا نصوص اللغويين العرب في البحث المنصرم .

يتضح من هذا العرض ، أن تفسير « الوسيلة » في الشعر ، يعني « تقرب » التفسير بدون شاهد ودليل ، بل يوجد في الشعر نفسه شاهداً على خلاف ذلك ، لأن الشـاعر اعتبـر النبي الأكرم (ص) في الشعـر الرابع ، شفيعاً، واعترف بكونه وسيلة، وأن كون النبي بمقام الشفاعة والشفيع أنسب من كونه وسيلة .

وبعبارة أخرى : أن الشاعر وفي حضور « النبي الأكرم » ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ والذي هو كاشف عن رضائه بمضمون الشعـر ، فقد اعتبر جميع الأنبياء وسيلة له في العتبة الإلّهيـة ، وبالأخص فقـد اعتبر النبي (ص) أقرب وسيلة ، وأن المقصود من كون الأنبياء وسيلة ليس أن نمتثل أمامهم في حالة الحياة ، ونسألهم الـدعاء ، لأن طلبـاً كهذا غير ممكن التحقيق بالنسبة إلى بقية الأنبياء عامة ، وبالنسبة إلى رسول الإسلام (ص) حول الأشخاص البقية الذين لا يحظون بالجدارة خاصة ، فلا مناص في هذه الحالة أن نمنح للـ « الوسيلة » معنى أوسع وأشمل ، ليشمل حال الذين يستطيعون أن يمتثلوا أمامه .

ثانياً : يطلب الشاعر من محضر النبي الأكرم (ص) ، أن يشفع له يوم القيامة وأن هذا الموضوع هو مسألة الحاجة من الحي نفسـه ، ولقـد بحثنا بـدورنا هـذا النوع من طلب الحـاجـة سـواء من الحي أو الميت ، وتستطيعون أنتم بصدد طلب الحاجة من الحي الرجـوع إلى الصفحـات السابقـة ، وحول طلب الحـاجة من غيـر الحي مـراجعـة الصفحات القادمة .

لقد نقل الطبراني هذه الواقعة في « الجامع الكبير »[1] ، ونقلها الآخرون كذلك ، لقد شوّه مؤلف كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » سندَ الحديث ، واعتبره حديثاً ضعيفاً ، ولقد أجبنا بدورنا على هذا الإستشكال في السابق .

واستطعنا إلى هنا نشير إلى مجموعة[2] من أحاديث التوسل ، التي وردت في كتب الحديث والتاريخ لأهل السّنة . أما في أحاديث أئمة الشيعة ، فإن التوسل بالذوات المقدسة مُسَلَّمٌ به وجليٌ إلى حد أن العديد منها قد وردت في أدعيتهم .

فهل يتوجب علينا أن نتعلم دساتير الإسلام من ابن تيمية ومحمد عبد الوهاب ؟ أو من آل الرسالة وعترة النبي الأكرم (ص) ، الذين هم بحكم الحديث ثقلين ، والثقل الأصغر وعدل القرآن بالحكم .

ونكتفي الآن ، من بين الأدعية الغفيرة التي وردت في « الصحيفة العلوية »[3] أو في دعاء عرفة « للحسين بن علي » ـ عليه السلام ـ أو في « الصحيفة السجادية » بنقل عبارتين اثنتين ، لتشكّل مع الأحاديث السابقة عشرة كاملة .

---

(١) « الدرر السنية » ، الصفحة ٢٩ ، تأليف زيني دحلان ، و« التوصل إلى حقيقة التوسل » ، الصفحة ٣٠٠ .

(٢) « الصحيفة العلوية » أدعية لأمير المؤمنين نظّمها « الشيخ عبد الله السماهيجي » .

(٣) إنّ أحاديث التوسل التي وردت في كتب أهل السُّنة هي أكثر من أن تعرض من خلال هذا ، ويكفي هذا القدر ، الشخص المصنف .

الحديث السابع :

يقول سيد الشهداء في « دعاء عرفة » :

« اللَّهُمَّ إنّا نتوجَّهُ إليكَ في هذه العشيَّةِ التي فرضتَها وعظَّمتَها بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ ورَسُولِكَ وخِيرَتِكَ من خَلقِكَ » .

الحديث الثامن :

يقول « علي بن الحسين » ـ عليه السلام ـ في « الصحيفة السجادية» ، في الدعاء الذي كان يقرأه بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك ، يقول ما يلي :

« اللَّهُمّ إنّي أسألُكَ بِحقِّ هذا الشَّهرِ وبحقِّ من تَعَبَّدَ لك فيهِ مِن استدائِهِ إلى وقتِ فنائِهِ مِن مَلَكٍ قَرَّبتَهُ أو نبيٍّ أرسلتَهُ أو عَبدٍ صالحٍ اختَصَصتهُ »[1] .

وينتهي إلى هنا بحثنا حول التوسل بالشخصيات والذوات المقدسة والذي يشّكل البحث الثالث من هذا الدراسة . وكافية بالطبع الأدلة لطالبي الحقيقة .

وقد حان الوقت الآن ، أن نبحث ونتناقش حول الموضوعان الآخران اللذان يشكّلان القسم الرابع والخامس من أبحاثنا الخمسة حول التوسل :

١ ـ الحلف على الله بحق الأولياء .

٢ ـ الحلف بغير الله سبحانه .

---

(١) « الصحيفة السجادية » الدعاء رقم ٤٤ .



القسم الرابع

الحلف على الله بحق ومقام الأولياء

لقد بقي من ضمن أقسام التوسل الخمسة ، قسمان اثنان وهما ممنوعان لدى الوهابي ومحرّمان . إن هذين النوعين من التوسل عبارة عن :

١ ـ الحلف على الله بحق ومقام الأولياء .

٢ ـ الحلف بغير الله سبحانه .

وإليكم دراسة الموضوع الأول :

لماذا يجب أن يعتبر الحلف على الله بمقام وحق الأولياء وأحباء عتبته حراماً أو مكروهاً ؟

أن القرآن الكريم يثني على صفوة ، ويصفهم قائلاً :

﴿ الصّابِرينَ والصّادِقينَ والقانِتينَ والمُنفقينَ والمستغفرينَ بالأسحار ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٧ .

والآن إذا حلف شخص بمقام ومكانة هذه الصفوة ، وبعد أداء صلاة العشاء في منتصف الليل ، قائلاً :

« اللَّهُمَّ إنّي أسألُكَ بِحقِّ المستَغفِرينَ بالأسحارِ اغفِر لي » .

فلماذا يجب أن نقول أنه أصبح كافراً ، فأي أصل يا ترى من أصول الإسلام الواضحة قام بإنكارها ؟ لماذا يجب أن نقول أنه أشرك ؟ ، هل تأمل في ثنوية خالق العالم (للعالم خالقين اثنين) ، ليكون قد أصاب بإيمان التوحيد في الخالقية ضرراً ؟ أو أنه اعتبر مدبّر العالم ومخرجه اثنان ، لكي يصاب التوحيد في الربوبية بأذى ؟ أو أنه عَبد غير الله تعالى ، ليكون توحيده وعبادته في معرض الإختلال ؟ في الوقت الذي نهض في منتصف الليل حيث الظلام يخيّم على نصف العالم ، نهض يذكر الله سبحانه وطفق بعبادته ، مرتجفة أوصاله من الخوف ، وباكية عيناه .

إن القرآن الكريم يضع المحك الأكثر وضوحاً لتمييز التوحيد عن الشرك في متناول أيدينا ، وما علينا إلاّ أن نفرز الموحد عن المشرك ، وأن لا نطلق صفة الشرك على المجتمع الإسلامي بدون الضابطة القرآنية . وألاّ نحصر التوحيد الإسلامي في إعرابي من نجد جوّابٌ في الصحارى .

﴿ وإذا ذُكِرَ الله وَحدَهُ اشمأزَّتْ قلُوبُ الَّذينَ لا يُؤمنونَ بالآخِرَةِ وإذا ذُكِرَ الَّذينَ مِن دُونِهِ إذا هم يَستَبشِرُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٤٥ .

ويصف في آية شريفة أخرى « المجرمين » الذين هم مشـركون جميعاً ، كالآتي :

﴿ إِنَّهُم كـانوا إذا قيـل لَهُم لاَ إِلَهَ إلاَّ الله يَستكـبِرُونَ ويقُولُـون إئِنَّـا لَتارِكُوا آلِهتَنا لشاعِرٍ مجنُونٍ ﴾[1] .

فهل صحيح أن الشخص الذي يتحمل آلام البرد والأرق وعدم النوم في ليالي الشتاء الباردة ، أو ليالي الصيف القصيرة ، وبعـد أداء نوافل الليل ، والحلف بالله تعالى بمقام الأولياء، هو كالمشركين يشمئز من التبتل إلى الله ، ويغدو فرحاً من التضرع إلى الأوثان ؟

نقرأ في « الصحيفة العلوية » التي جمع فيها المرحـوم « الشيخ عبد الله السماهيجي » ، « أدعية أمير المؤمنين » ـ عليه السلام ـ ، نقرأ أن الإمام قام في نوافل الليل ، بعد الركعة الثامنة ، قام بالـدعاء على الوجه التالي :

« اللَّهُمَّ إنِّي أسـأَلُكَ بِحُـرمَةِ مَن عـادَ بِكَ مِنـكَ ولَجأ إلى عِـزِّكَ واستَظلَّ بفيئكَ واعتَصَـمَ بِحبلِكَ وَلَم يثِق إلاّ بكَ »[2] .

ويقول الإمام ـ عليه السلام ـ أيضاً في دعائه الذي علَّمـه لأحد من صحبه :

« وبِحَقِّ السّـائِلينَ عَليـكَ والـرّاغبينَ إليـكَ والمتعـوِّذينَ بـكَ ، والمُتَضرِعينَ إليكَ ، وبِحَقِّ كُلِّ عَبدٍ مُتَعبّـدٍ لكَ في كُـلِّ بَرٍّ أو بحـرٍ أو

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ٣٥ و ٣٦ .

(٢) الصحيفة العلوية ، دار النشر الإسلامية (انتشارات إسلامي) ، الصفحة ٣٧٠ .

سهلٍ أو جبلٍ أدعُوكَ دُعاءَ مَنِ اشتدَّت فاقَتُهُ . . . »[١] .

فهل أنّ لمناجاة مترعة بالروح كهذه ، وإظهـار التذلـلات بعتبة الحق ، نتيجـة أخرى غيـر تعـزيـز التـوحيـد (لا الإستعـاذة بغيـر الله سبحانه) وإبداء الرغبة إلى أصحاب الله ، والذي يشكّل بدوره نوعـاً من التمايل إلى الله تعالى ؟

فلهذا يجب غض النظر عن اتهام الكفر والشرك اللذان يتواجدان غالباً في الموائد الطليقة ومن جميع الأجناس ، وأن تدرس المسألة من زاوية نظر أخرى .

استناداً على هذا ، فإن جماعة من متحفظيهم طرحت موضـوع الحلف بالله بحق الأولياء في أُطر التحريم والكراهة ، وعلى خـلاف الصنعاني المتسرع الذي وضع المسألة في دائرة الكفر والشرك ، ولم يأت بكلامٍ عن الكفر والشرك .

والآن ، بعـد أن اتضح محـور الحديث في أنـه يجب علينا أن ندرس الموضوع في إطار الحرام والمكروه ، يتوجب علينا أن نوضح الأدلة على صحة توسلٍ كهذا .

الدليل الأول : إطلاق آيات العبادة والتضرع إلى الله

١ ـ إن القرآن الكريم يدعو الناس إلى عبادة الله جـلّ جلالـه . والتبتل إليه ، قائلاً :

﴿ وَقالَ رَبُّكُمُ ادعُوني استَجِبْ لَكُم ﴾[٢] .

---

(١) نفس المصدر السابق ، الصفحة ٥١ ـ قام الإمام بتعليم هذا الدعاء لـ « أويس » .

(٢) سورة غافر : الآية ٦٠ .

أو يقول :

﴿ يـا أيُّهـا النّـاسُ اعبُـدُوا رَبَّكُم الَّـذي خَلَقَكُم والَّـذينَ مِن قَبلِكُم ﴾[1] .

وأمثال هذه الآيات الشريفة .

لم يرد في هذه الآيات أي نوع من قيدٍ وشرط لدعوة الله سبحانه وتعالى والتبتل إليه ، ولهذا فإن العبادة والدعوة وذكر الله تعالى ، جائزة في كل مكان وبأية كيفية كانت ، ومشروعة ، إلاّ ما نهي عنها في الدين الإسلامي نفسه ، من عبادات في حالات خاصة وبأشكال معينة .

مثـلاً ، إن الصلاة والصـوم وهما للشخص المنتخب عبـادة الله سبحانه وتعالى ، وحرام للمـرأة التي هي في فترة الحيض ، في حين أن الدعاء والتبتل إلى الله ليسا ممنوعين في هذه الحالة .

للصلاة والصوم نفسيهما حدوداً وشرائط في الشرع الإسلامي ، وعلى المُصلّي أن يراعيها لدى أدائه هاتين الفريضتين ، ولا يستطيع أن يفرض القيود بدون مراعاة هذه الشروط .

أما إذا لم يفرض أي قيد أو شرط لدى أداء فريضة ما ، فنستطيع تأديتها كما يحلو لنا ، مثلاً أن دين الإسلام الحنيف يأمرنا لأن نتوضأ ، أمّا لا يضع شرطاً في ماء معين وحالة ومكان خاصين ، فنستطيع بذلك أن نتوضأ بأي ماء نريد : بماء البئر أو الترعة أو المطر أو . . . غيرها ، ونستطيع أن نؤدي هذه العبادة في حالات مختلفة ، وقوفاً وجلوسـاً ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١ .

وفي أية منطقة نريد ، وتحت المطر ، وتحت السقوف . . . وأن هذه الشمولية بسبب أنه لم يرد في قواعد الوضوء أي قيد وشرط .

ونفس هذا الكلام نقوله حول الآية الشريفة ﴿ أدعُوني أستَجِب لكُم ﴾ وأمثالها ، فإن آيات الدعاء إلى الله تعالى وعبادته مطلقة تماماً ، ولم يعتبر هذا الحلف في الإستعاذة بالله والمسألة منه تعالى بمقام أعزاء العتبة الإلّهية ، ممنوعاً أبداً . وعلى هذا ، فإن الآيات المتعلقة بدعوة الله سبحانه والتبتل إليه ، كانت تشتمل على جميع الأقسام ، ويكتفي لإثبات الجواز ، كل أنواع الدعاء والرغبة الكافية .

الدليل الثاني : حدوث هذه الأنواع من التوسلات في الإسلام

لا يجوِّز هذا النوع من التوسل ، الآيات المتعلقة بالعبادة والدعاء ، بل أنه وردت توسلات كهذه أيضاً في الروايات الإسلامية .

ذكرنا في الفصل الثالث ، حيث كان محور البحث فيه ، هو التوسل بالشخصية ، ذكرنا أحاديث تمت مسألة الله سبحانه فيها بحق ومقام الأولياء ، ورغم أنه لم يرد موضوع الحلف في هذه الأحاديث بشكل صريح ، إلا أن روح العبادات والتوسلات تعني الحلف بالله عز وجل بحق ومقام الأولياء .

في الحديث الأول علَّمَ « النبي الأكرم » ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ذلك الأعمى ، علّمه هكذا ، ليقول :

« اللَّهُمَّ إنّي أسألُكَ وأتَوجَّهُ إليكَ بِنَبِيِّكَ مُحمَّدٍ نبيّ الرَّحمةِ » .

نقل « أبو سعيد الخدري » في الحديث الثاني عن « النبي الأكرم » (ص) ، هذا الدعاء :

« اللَّهُمَّ إنّي أسألُكَ بِحَقِّ السّائِلينَ عَلَيكَ وأسألُكَ بِحَقِّ مَمشايَ هذا » .

وفي الحديث الثالث تابَ النبي « آدم » ـ عليه السلام ـ بالشكل التالي :

« أسألُكَ بِحَقِّ مُحمّدٍ إلاّ غَفرتَ لي » .

وفي الحديث الرابع ، عندما وارى الرسول الأكرم (ص) أم علي بن أبي طالب (ع) في التراب ، دعا لها كالتالي :

« إغفِر لأُمي فاطِمةَ بنتِ أسدٍ وَوَسِّع عَلَيها مدَخَلها بِحَقِّ نَبيِّكَ والأنبياءِ الذينَ مِن قبلي » .

رغم أنه لم ترد في هذه الأنواع من الجمل ، لفظة الحلف ، بيد أن مفادها الواقعي ، هو الحلف بالله تعالى بحقوق الأولياء ، وهو ما يقال : أسألك بحق السائلين ، يعني أحلف بك بحق هؤلاء .

إن الأدعية التي نقلت في الصحيفة السجادية عن الإمام الرابع ـ عليه السلام ـ هي بحد ذاتها برهان واضح عن صحة وثبات توسلا كهذا .

إن عظمة معاني أدعية الصحيفة وفصاحة كلماتها وبلاغة معانيها تجعلنا بمنأى عن أي نوع من الكلام في صحة انتساب ذلك إلى الإمام .

كان « الإمام السجاد » ـ عليه السلام ـ يسأل الله تعالى ويبتهل إليه في يوم عرفه ، وعلى الوجه التالي :

« بِحَقِّ مَن انتجبت من خَلقِكَ ، وبِمَن اصطَفيتهُ لنَفسِكَ ، بِحَقِّ مَن اختَرتَ ، مَن بَريّتكَ ، وَمَن أجبيت لشَأنِكَ ، بِحَقِّ من وَصَلتَ طاعَتَهُ بطاعتِكَ ، ومَن نيطت مُعاداتِه بمعاداتِك »[1] .

عندما قام الإمام ـ عليه السلام ـ بزيارة قبر جدّه المؤقر « أمير المؤمنين » ـ عليه السلام ـ ، دعا بعد انتهاء هذه الزيارة ، قائلاً :

« اللَّهُمَّ استَجِب دعائي واقبَل ثنائي وَاجمَع بيني وبين أوليائي بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَليٍّ وفاطِمَةَ والحسَنِ والحُسَينِ »[2] .

ليس هذا السجاد ـ عليه السلام ـ لوحده يحلف في أدعيته بالله عزّ وجل بحق أعزاء عتبته الإلّهية ، بل أن هذا النوع من التوسل موجود في الغالب ، وذلك في الأدعية التي وردت من قبل أئمة الشيعة الأطهار .

يقول زعيم الأحرار « الإمام الحسين بن علي » ـ عليه السلام ـ ضمن دعاء ، ما يلي :

« اَللّهمَّ إنّي أسأَلُكَ بكلمات ومَعاقِدِ عِزِّكَ وَسُكانِ سَمواتِكَ وأرضِكَ وأنبيائِكَ ورُسُلِكَ أن تَستَجيبَ لِي فَقَد دهِقَني مِن أمري عُسرٌ فأسأَلُكَ أن تُصَلِّيَ عَلى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ وأن تَجعَلَ مِن أمري يُسراً » .

إن هذه الأدعية كثيرة ، إلى حد أن نقلها جميعاً ، يؤدي إلى الإطالة في الكلام ، فيا حبذا لو اختصرنا الكلام إلى هذا الحد ، وأن نبدأ في بيان أدلة واعتراضات الطرف المقابل .

(١) « الصحيفة السجادية ، الدعاء رقم ٤٧ .

(٢) « مفاتيح الجنات » زيارة « أمين الله » .

الإعتـراض الأول :

يجمع علماء الإسلام ، أن الحلف على الله تعالى للمخلوق ، أو بحق المخلوق ، هو حرام[1] .

الإجابـة :

يعني الإجماع أن علماء الإسلام في أي عصر كـان ، وفي كل العصور ، يجدون اتفـاقاً في وجهـة النظر حـول حكم من الأحكام ، وبهذه الصورة فإن اتفاق الـرأي هو حسب مـا يرتأيه أهل السنة، أحد الحجج الإلٓهية وبـاعتقاد علمـاء الشيعة هـو حجة من هـذه الناحيـة ، والـذي يدل على رأي الإمـام المعصـوم ومـوافقتـه والـذي يعيش بين ظهرانيّ الأمة .

والآن يتبادر سؤال لنا ، هل هناكِ اتفاق في الرأي كهذا ، حول هذه المسألة ؟ إننا نضع علماء الشيعة وعلماء أهل السنة الآخـرون ، جانباً . . ونأخذ بنظر الإعتبار رأي أئمة المذاهب الأربعة كسندٍ ، فهل أن هؤلاء الأئمة الأربعة أعطوا الفتوى بصدد تحريم مـوضوع كهـذا ؟ وإذا فعلوا ذلـك ، نرجـوكم تبيان نص فتـواهم مع ذكـر إسم الكتـاب وتحديد الصفحة .

ولم يـذكر هـذا النوع من التـوسـل أسـاسـاً في الكتب الفقهيـة وأحاديث علماء السّنة ، لكي يعطوا رأياً بصددها .

إن أشمل كتب أهل السّنة الفقهية ، هو كتاب « المعني في شرح

---

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٢ ، نقلاً عن « الهدية السّنية » .

مختصر الخرقي » لمؤلفه « ابن قُدامَـةَ (عبد الله ، مـوفق الدين) » . وهو من فقهاء هذه الجماعة المعروفين،والذي ينقل في هـذا الكتاب أراء المذاهب الأربعة ، ويستدل في النهاية على أحقية مذهب الإمام أحمد بن حنبل .

ولقد جاء ببحوث[1] تتعلق باليمين والعهد ، ولم يتطرق في هذا الموضوع إلى البحث ، ولم ينقل في هذا المجال حديثاً عن أي إمام من الأئمة ، في حين أنه بحث موضوع الحلف بغير الله تعالى ، والذي يشكّل الفصل الخامس من بحثنا[2] .

إن كتـاب « الفقـه على المـذاهب الأربعـة » الـذي قـام « عبد الرحمان » بتأليفه ، هو المصدر الرسمي لعلمـاء السّنة اليـوم ، حيث أنه بحث حول موضوع الحلف بغير الله تعالى[3] ، في حين أنه لم يتطرق إلى موضوع الحلف بالله . لغيره .

إن أشمل كتاب من حيث جمع الأحاديث المتعلقة بالفقه ، هو كتاب « السنن الكبرى » للبيهقي ، فقد أورد أحاديثاً[4] تتعلق بالحلف والعهد ، ولـم ينقل حول موضـوع كهذا حـديثاً ، أسـاساً . ففي هـذه الحـالة ، أين هـو الإتفاق والإجمـاع اللذان يدّعي بهمـا مؤلف كتاب « الهدّية السنية » ؟ أن الشخص الوحيد الذي ينقل التحريم عنه ، هو وجه غير معروف باسم « العز بن عبد السلام » .

---

(١) المعني في شرح مختصر الخرقي : المجلد التاسع ، الصفحة ٤٩٠ ـ ٥٤٤ .

(٢) المصدر السابق : الصفحة ٤٩١ ـ ٤٩٢ .

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة : المجلد الثاني ، الصفحة ٧٤ ـ ٧٥ ،

(٤) السنن الكبرى : المجلد العاشر ، الصفحة ٢٦ ـ ٧٢ .

وكأنّ علماء الإسلام قد تلخصوا في كتاب « الهديّة السنية » وفي « العز بن عبد السلام » .

ثم نقل عن « أبي حنيفة » وتلميذه « أبو يوسف » في أنهما قالا أيضاً ، أن قول « بحق فلان » هو مكروه .

وباختصار فلا يوجد هناك من دليل بإسم الإجماع في هذا المضمار . والآن سنقوم بتحليل دليل هؤلاء الثاني .

الإعتراض الثاني :

« إنَّ المسألة بحَقِّ المخلُوقِ لا تَجوز لإنَّهُ لا حَقَّ للمَخلوقِ عَلىَ الخالِقِ »[1] .

الإجابــة :

إن استدلالاً كهذا ليس إلاّ اجتهاد قَبال النص الصريح ، فإن كان لا حَقَّ للمخلوق على الخالقِ ، حقاً ، فلماذا يا ترى ، أنه لله عز وجل حقوقاً كهذه في الأحاديث الماضية ، الفصل الثالث ، حسب ما يحلف به « آدم » ، و« رسول الإسلام » ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ، وإنَّ مسألة الله تعالى هي بسبب نفس هذه الحقوق ؟ فضلاً عن ذلك ، فإنه في مسألة الله سبحانه ، لا يستوجب أن نأتي بمفردة « عليك » ، وإنما يكفي أن نقول : « اللَّهُمَّ إنّي أسألُكَ بِحَقِّ فُلانٍ أو بِفُلانٍ » ، وأن الحق في اللغة العربية يعني الأمر الثابت والسديد ، والمقصود من هذا

---

(١) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٣١ ، نقلاً عن « القدوري » .

الحق ، هي الصفات المرموقة لأعـزاء العتبة الإلّهيـة ، أمثال : قـرب الزهد ، والتقـوى ، عبادة العلم ، وليست صفـات ثابتـه كهذه لازمـة لشخص تكون هذه الحقوق مضرّة له .

لنترك كل هذه ، فكيف يمكننا تبرير آيـات القرآن الكـريم ، يا ترى ؟ حيث أن القرآن وصف عباده الصالحين ، بأن لهم حقوق على الله تعالى . وإليكم آيات القرآن البينات :

﴿ وكانَ حَقاً عَلَينا نَصرُ المؤمنينَ ﴾[1] .

﴿ وَعداً عَلَيهِ[2] حقاً في التَّوراةِ والإنجيلِ ﴾[3] .

﴿ كذلِكَ حقّاً علَينا نُنجِ المؤمنينَ ﴾[4] .

﴿ إنّما التَّوبَة عَلى الله للَّذينَ يَعملونَ السُّوء بجهالةٍ ﴾[5] .

فهـل يصح أن نـأول جميع هـذه الآيات الشـريفـة ، من تلقـاء أنفسنا ، وبسبب سلسلة من أوهام لا أسـاس لها ؟ إن هـذا النوع من التعبير يتواجد بكثرة في الأحاديث الإسلامية أيضاً .

وإليكم نماذج من هذه الإحاديث :

١ ـ « حَقٌّ عَـلى الله عَـونَ مَن نَكَـحَ التِمـاسَ العفـاف ممّـا حَـرَّمَ الله »[6] .

---

(١) سورة الروم : الآية ٤٧ .

(٢) يعود الضمير في مفردة « عليه » إلى « الله » الذي ورد في مستهل الآية .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٤) سورة يونس : الآية ١٠٣ .

(٥) سورة النساء : الآية ١٧ .

(٦) « الجامع الصغير » للسيوطي ، المجلد ٢ ، الصفحة ٣٣ .

٢ ـ قال رسول الله : « ثَلاثَةٌ كُلُّهُم حَقٌّ عَلَى الله عَونُـهُ ، الغازي فِي سبيلِ الله ، والمكاتَبُ الَّـذي يُريـدُ الأداءَ ، والنّاكِـحُ الَّذي يُـريدُ التعفُّفَ »[١] .

٣ ـ « كانَ للنَّبيِّ ناقَةٌ تُسَمّى العضباءُ لا تُسبَقُ فَجاءَ أعرابيٌّ على قَعُودٍ فَسَبَقَها فَشَقَّ ذلِكَ عَلَى المُسلِمينَ حَتّى عَرَفَـهُ فقالَ حَقٌّ عَلَى الله أن لا يَرتَفِعَ شيءٌ في الدُّنيا إلاّ وَضَعَهُ »[٢] .

٤ ـ « أتَدري ما حَقُّ العِبادِ عَلَى الله . . . . »[٣] .

أن الفئة الوهابية تروم وبتكلفات كثيرة ، أن تحط من مكانة هذا النوع من الروايات والأحاديث ، من حيث السند أو الدلالة ، لأنها لا ترغب في أن تذكر مجموعة وصفها الله سبحانه وتعالى بالكبيـرة ، أن تذكرها بالعظمة .

وواضح وضوح الشمس ، أنـه ليس لأي شخص ينسـاق وراء الملذات حَقٌّ على الله ، حتى وإذا عَبدَ الله سبحانـه قرونـاً عديـدة ، وامتثل أمامه خاضِعاً خاشعاً ، لأن كل ما يملكه عبد الله ، فهو من عند الله تعالى ، فلم يبذل من نفسه شيئاً في سبيل الله ، لأن يستحق بلذة أجراً .

---

(١) « سنن ابن ماجه » ، للقزويني ، المجلد ٢ ، الصفحة ٨٤١ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ مصر .

(٢) « الصحيح » للبخاري ، الجزء الرابع ، المطبعة المنيريـة ، الصفحة ٩٦ ، بـاب : ناقة النبي .

(٣) « النهاية في غريب الحديث والأثر » لإبن الأثير (مجد الدين أبو السعادات المبارك) (١١٤٩ ـ ١٢١٠ م) ، مادة « الحق » .

ولهذا فإن المقصود من هذا الحق في هذه الحالات ، هو الأجر الإلّهي نفسه ، والمقام والمكانة[1] التي منحها إياهم صاحب الحق اعتناءاً خاصاً بهم ولطفاً من لدنه ، عهداً بهم ، وأن حقاً كهذا على عهدة الله جلَّ جلاله ، هو دليل على عظمته وجلاله .

ومن أجل الإطلاع على أنه كيف يجد العبد الفقير والمحتاج ، حقاً على « ذمة الله » ، تأملوا بدقة في مضمون الآيتين اللاحقتين . فإن « القرآن الكريم » يعتبر الله سبحانه في إحدى الآيات « المالك المطلق » ، والعِباد المالكون في الظاهر ، ممثليه في الأموال التي هي بحوزتهم ، وهنا حيث يقول :

﴿ . . . وَانفِقُوا مِمّا جَعَلَكُم مُستخلَفينَ فيهِ فالَّذينَ آمنُوا مِنكُم وأنْفَقُوا لَهُم أجرٌ كبيرٌ ﴾[2] .

بيد أن « القرآن الكريم » نفسه يطرح في آيات لاحقة ، استقراض الله سبحانه من عبّاده ، ويتجلى الإنسان في هذه الآية بصورة المالك الذي يقرض الله تعالى « مالك السموات والأرض » قرضاً حسناً ، حيث يقول :

﴿ مَن ذا الَّذي يُقرِضُ الله قَرضاً حَسَناً ﴾[3] .

وكما كانت الآية الشريفة الأولى ، فإن الآية التالية تدل على حقيقة تكوينية وواقعية ووضاءة ، حيث تقول :

---

(١) أنظروا « النهاية في غريب الحديث والأثر » لإبن الأثير ، مادة « الحق » .

(٢) سورة الحديد : الآية ٧ .

(٣) سورة الحديد : الآية ١١ .

﴿ يـا أيُّهـا النّـاسُ أنـتُمُ الـفُقَـراءُ إلَـى الله والله هـو الغَـنِيُّ الحَميدُ ﴾[1] .

وتدل هذه الآيـة أيضاً ، على اللطف الإلّهي ورحمتـه الغيبية ، حيث يبدي في تشريعها كرامة وعظمة من لدنه ، إلى حد أنه يطلب من عبده قرضاً .

إن مسألة عهـد الله سبحانـه وتعالى ، وكـون أن للمخلوق حقاً عليـه ، هي مـطلقـة كـالقـرض الـذي يقـرضـه الله من العَبـد الفقيـر والمسكين ، وأن هذه العهود وكونهم على حق ، هي من باب اللطف والكرامة اللتان وعد بهما الله وجعل بكمال لطفه ، نفسه مديناً لعبـاده الصالحين ، واعتبر هؤلاء كونهم أصحاب الحقوق ، ونفسه « من عليه الحق » وملتزماً .

واتضـح إلى هنا ، ثبـات مسألـة الله تعـالى ، أو مسـألتـه بحق الأوليـاء الإلّهيين . والآن ، ومن أجل تكملة البحث ، نبـدأ في طرح القسم الخامس .

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٥ .



القسم الخامس

الحلف بغير الله تعالى

إن الحلف بغير الله ، هو من ضمن المسائل التي للفئة الوهابية حساسية حياله[1] ، وقد اعتبره أحد كتّابهم بإسم الصنعاني أساساً للشرك ، وذلك في كتاب « تطهير الإعتقاد »[2] ، ووصفه مؤلف كتاب « الهداية السنية » شركاً صغيراً[3] .

إننا سوف نبحث المسألة في أجواء بعيدة عن التعصب ، بفضل الله تعالى ، وسوف نتخذ من كتاب الله والسنن النبي الأكرم (ص)

(١) رغم أن هذا الفصل ليس ضمن فصل حقيقة التوسل ، حيث أن حقيقة التوسل هي أن يتخذ الإنسان شخصاً وسيلة وذريعة لنفسه صوب الله تعالى ، ومن الجدير في الحلف بغير الله ، وليس هذا مطروحاً ، ولأن هذا البحث يشابه نوعاً ما ، موضوع التوسل ، وأن نتيجة الحلف بغير الله هو نوع من التعظيم وإبداء الإحترام لـ « القسم به » ، فيجدر بنا أن ندرس هذا الموضوع في قسم التوسل ، وتنتهي في هذا الفصل الدراسات المتعلقة بموضوع التوسل .

(٢) « كشف الإرتياب » ، الصفحة ٣٣٦ ـ نقلاً عن كتاب « تطهير الإعتقاد » الصفحة ١٤ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة ٣٣٦ ، نقلاً عن كتاب « الهدية السنية » ، الصفحة ٢٥ .

الصحيحة ، والأئمة المعصومين ، نبراساً ينير لنا الدرب .

أدلتنا على جواز الحلف بغير الله

الدليل الأول :

إنَّ القرآن الكريم الذي هو الرائد الأعلى والثقل الأكبر والنموذج الحياتي لكل مسلم ، وردت في هذا المصحف عشرات الأحلاف بغير الله ، حيث أن جمع هذه كلها في هذه الصفحات يؤدي إلى إطالة البحث أكثر .

إن الله عزَّ وجلّ حلف في « سورة الشمس » لوحدها بسبعة أشياء من مخلوقاته ، وهذه السبعة أشياء عبارة عن :

« الشمس ، ونورها ، وقمر النهار ، والليل ، والسماء ، والنفس الإنسانية والأرض »[1] .

ولقد ذكر الحلف أيضاً في السور الأخرى ، مثلاً في « سورة النازعات » بثلاثة أشياء[2] ، وفي « سورة المرسلات » بشيئين اثنين[3] .

إنَّ لكل مسلم معرفة ناجزة بالآيات اللاحقة ، التي تدل جميعها على الحلف بغير الله ، مثلاً :

---

(١) سورة الشمس : الآيات ١ ـ ٧ .

(٢) سورة النازعات : الآيات ١ ـ ٣ .

(٣) سورة المرسلات : الآيات ١ ـ ٣ .

﴿ وِالتّينِ والزَّيتُونِ وطُورِ سينينَ وَهَذَا البَلَدِ الأمينِ ﴾[1] .

﴿ وَاللَيلِ إذا يَغشى والنَّهارِ إذا تجلّى ﴾[2] .

﴿ وَالفجرِ وليالٍ عَشرٍ والشَّفعِ والوَترِ واللَّيلِ إذا يَسرِ ﴾[3] .

﴿ والطُّورِ وكِتابٍ مَسطُورٍ في رَقٍ منشُورٍ وَالبيتِ المعمُورِ والسَّقفِ المرفُوعِ والبَحرِ المَسجُورِ ﴾[4] .

وكذلك هي سُوَر القرآن الكريم الأخرى ، كمثل سُوَر « البروج » ، و« الطارق » ، و« القلم » ، و« العصر » ، و« البلد » ، إلى حد أن الله سبحانه وتعالى حلف بشكل صريح بحياة النبي الأكرم (ص) ، ويقول :

﴿ لَعَمرُكَ إنَّهُم لَفي سكرَتِهم يَعمَهُونَ ﴾[5] .

فهل يمكن أن نقول لهذه الأحلاف المتوالية التي وردت في القرآن الكريم ، أن الحلف بغير الله تعالى هو شرك وحرام ؟

لا ريب في أن هدف الله سبحانه من هذه الأحلاف ، هو تبيان عظمتها ، ويروم عبر هذا الطريق أن يوجه نظرنا إلى التدبّر والتفكر في جُلّ « المقسم به » للقرآن الكريم ، وفي نفس الوقت ، فإن قارىء

---

(١) سورة التين : الآيات ١ ـ ٣ .
(٢) سورة الليل : الآيات ١ ـ ٢ .
(٣) سورة الفجر : الآيات ١ ـ ٤ .
(٤) سورة الطور : الآيات ١ ـ ٦ .
(٥) سورة الحجر : الآية ٧٢ .

القرآن الكريم ، الذي يعتبرها لنفسه : « الإمام » ، و« الأسوة » ، و« القائد » ، و« الأنموذج » ، يتعلم الدرس من هذه الأحلاف ، بحيث يستطيع في مقام الحلف ، أن يحلف بإحداها والتي حلف بها الله سبحانه وتعالى .

يقول البعض من عديمي الذوق والذين لا يعلمون شيئاً من أهداف القرآن ، أنه يمكن أن يكون صدور شيء من الله تعالى جميلاً ، وأن يكون صدور نفس الشيء من غير الله سبحانه ، غير جميل .

بيد أن الإجابة على ذلك واضحة ، فإذا كانت واقعية الحلف بغير الله ، في الحقيقة ، شركاً وهي تشبيه غير الله بالله تعالى ، فلماذا يا ترى ارتكب الله نفسه شركاً كهذا ، مطلقاً أو شركاً صغيراً ، فهل صحيح حقاً أن يتخذ الله في الواقع شريكاً لنفسه ، وأن يردع غير نفسه عن شرك كهذا ؟

إن الفئة التي ترى نفسها مدانة حيال هذا البرهان ، تسعى في الحال أن تتخذ لفظة كـ « الرب » في تقديرها من ضمن أحلاف القرآن الكريم بغير الله ، وأن تحوِّل جميع أقسام القرآن إلى حلف أحد ، وهو الحلف بالرب والشمس والقمر و . . . غيره[1] .

إننا نترك للقراء الأعزاء الحكم على هذا التأويل الذي لا شاهد له . أليست خيانة بالمصحف السماوي ، أن نقول : إن المقصود من

---

(١) نقل كتاب السنن الكبرى ، المجلد العاشر ، الصفحة ٢٩ ، وبداية المجتهد . المجلد الأول ، الصفحة ٣٩٤ طبعة مصر نقلا هذا التأويل البارد عن البعض .

الآية الشريفة ﴿ لعَمرُكَ إنَّهُم لَفي سكرتِهِم يَعمهُونَ ﴾ هو الحلف بالله لعمرك ؟

لا ريب في أن ذوي القلوب اليقظة ، الذين يرومون التلمذة على القرآن الكريم ، ويريدون ان يتخذوه نبراساً ينير لهم طريق الحياة ، كانوا يتعلمون الدروس من هذه الآيات ، ويعتبرون الحلف بغير الله تعالى ، خاصة اذا كان مشفوعاً بقداسة وطهارة خاصة ، كالنبي والإمام ، يعتبرونه جائزاً ومستحسناً ، ولم يكونوا يولون الأهمية لتأويلات وحيل كهذه على القرآن الكريم .

الدليل الثاني :

لقد حلف النبي الأكرم (ص) بغير الله تعالى في حالات عدة ، ومن ضمنها :

١ ـ حديث عن صحيح مسلم :

جاءَ رجُلٌ إلى النَّبيّ فقَالَ يا رَسولَ الله أيُّ الصَّدَقةِ أعظمُ أجراً ؟ فقال أمكَ وأبيك لَتنبأنَّهُ أن تُصدّق وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ تخشى الفقر وتأمل البقاءَ »[1] .

٢ ـ حديث آخر عن « صحيح مسلم » :

« جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللّهِ من اهلِ نجدٍ يسألُ عَنِ الإسلامِ ،

---

(١) « صحيح مسلم » ، كتاب الزكاة ، الجزء الثالث ، باب أفضل الصدقة ، الصفحة ٩٤ ، طبعة اسطنبول ، أن لفظة « لتنبأنّه » صيغة المجهول ، وجواب للحلف ، أي لتُخبرنَّهُ .

فقالَ رسُول الله (ص) : خَمسُ صلواتٍ في اليَـوم والليل ، فقـالَ : هَل عَلَيّ غيرَهُنَّ ؟ قال : لا ، إلاّ أن تَطوَّعَ ، وَصِيامُ شَهرِ رَمضـانٍ ، فَقـالَ : هَـل عَـلَيَّ غيـرُهُ ؟ قـالَ : لا ، إلاّ أن تـطوع ، وَذَكَـرَ لَـهُ رَسـولُ الله (ص) الزكـاةَ فقالَ : هَـل عَلَيّ غيـرُهُ ؟ قـالَ : لا ، إلاّ أن تَطَوَّعَ ، فَأدبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ والله لا أزيدُ على هذا ولا أنقُصُ مِنهُ ، فَقـالَ رَسُـولُ الله : أفلَحَ وَأبيـهِ إن صَـدَقَ أو أُدخِـلَ الجَنَّـةَ وأبيـهِ إن صَدَقَ »[1] .

لقد تشبث « القسطلاني » في كتاب « إرشاد الساري »[2] ، ورام أن يأول هذه الأحـاديث كآيـات القرآن الكـريم ، وأن يستخدم لفـظة « الرب » بنظر الإعتبار ، ويقول تارة ، إن لفظة « وأبيك » تستخدم لا إرادياً في اللغة العربية ، ولم يكن الهدف منها حِلفاً وقسماً .

٣ ـ حديث عن « مسند أحمد بن حنبل » :

« فَلَعَمـري لإن تَكَلَّمَ بِمَعـروفٍ وتَنهىٰ عن مُنكَـرٍ خَيـرٌ من أن تَسكُتَ »[3] .

---

(١) « صحيح مسلم » ، الجزء الأول ، باب « ما هو الإسلام وباين خصاله » ، الصفحة ٣٢ ـ لقد نقل هو هذا الحديث بطريقتين ، في إحداها توجد فقط : أفلَحَ إن صَدَقَ ، ولـه في الأخرى : أفلَحَ وَأبيـهِ إن صَـدَقَ أو أُدخِـلَ الجَنَّـةَ إن صَـدَقَ . إن مـا يثيـر الإعجاب جداً ، هو ما يدّعي به عبد البركة نقلاً عن ابن قدامة في كتاب « المعني » المجلد العاشر ، الصفحة ٤٩٢ ، فقد أدّعى أن جملة « أفلَحَ وأبيهِ إن صَدَقَ » لم ترد عبر « الصحيح » ، وكأن « صحيح مسلم » ، لا يعتبر لديه ضمن « الصحاح » .

(٢) « إرشاد الساري » ، المجلد ٩ ، الصفحة ٣٥٨ .

(٣) « المسند » لأحمد ابن حنبل ، المجلد الخامس ، الصفحة ٢٢٥ .

٤ ـ حديث آخر عن « مسند أحمد ابن حنبل » :

« فَلَعَمري مَن أُكِلَت برقية باطِلٍ ، لقد أُكِلت بِرقية حَقٍّ »[١] .

٥ ـ حديث عن « السنن » لإبن ماجه :

« فَلَعَمري ما أتمَّ الله عزَّ وجَلَّ حَجَّ مَن لَم يَطُف بَينَ الصَّفا والمروَةَ »[٢] .

٦ ـ حديث آخر عن « السنن » لإبن ماجه :

« وَلَعَمري لَو أنَّ كُلَّكُم صَلّى في بَيتِه لَتَركتُم سُنَّةَ نَبيِّكُم »[٣] .

إن « أمير المؤمنين علي بن أبي طالب »(عليه السلام) أنموذج التربية الإسلامية ـ حسب ما تجمع عليه الأمة ـ ، هو الشخص ذو البصيرة الأكثر بقوانين الإسلام ومنافذه وحلاله وحرامه ، فقد حلف كراراً بعمره في خطبه ورسائله وكلماته ، وبدورنا نعرض هنا البعض منها :

١ ـ « وَلَعمري ما عَليَّ من قتالِ من خالَفَ الحقَّ . . . من إدهانٍ ولا إيهانٍ »[٤] .

٢ ـ وَلَعمري لَو كُنّا نأتي ما أتيتُم ، ما قام للدِّينِ عَمودٌ »[٥] .

---

(١) نفس المصدر السابق ، الصفحة ٢١١ ، بسندين اثنين ، جاءت في كليهما لفظة « أكلت » بصيغة التأنيث .

(٢) « السنن » لإبن ماجه ، المجلد ٤ ، الصفحة ٩٩٥ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية .

(٣) نفس المصدر السابق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٥٥ .

(٤) « نهج البلاغة » ، محمد عبده ، الخطبة ٢٣ .

(٥) نفس المصدر السابق ، الخطبة ٥٦ .

٣ ـ وَلَعَمري ما تَقادَمَت بكُمُ ولا بهُم العُهُودُ »[١] .

٤ ـ « وَلَعَمري لَيُضعَفَنَّ لكُمُ التّيهُ مِن بَعدي أضعافاً »[٢] .

٥ ـ « وَلَعَمري لَئِن كانَتِ الإمامَةُ لا تَنعَقِدُ حَتى تَحضُرَها عامَّةُ النّاسِ ، فما إلى ذلِكَ مِن سبيلٍ »[٣] .

٦ ـ « لَعَمري يَهلَكُ في لَهَبِها المؤمِنُ »[٤] .

٧ ـ « فَلَعَمري لقَد فَوَّقَ لكُم سَهمَ الوَعيدِ »[٥] .

٨ ـ « وَلَعَمري يا مُعاوية ، لَئِن نَظَرتَ بِعَقلِكَ دُونَ هَواكَ ، لَتَجِدَنّي أبَرأ النّاسِ مِن دَمِ عُثمانَ »[٦] .

٩ ـ « وَلَعَمري لَئِن لَم تَنزَع عَن غَيِّكَ وشِقاقِكَ »[٧] .

١٠ ـ « ولَعَمري ما كُنتُما بأحَقِّ المُهاجِرينَ بالتَّقيةِ وَالكِتمانِ »[٨] .

لقد حلف أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الحالات العشرة ، بعمره كونه مخلوقاً لله سبحانه وتعالى . فهل أن للإمام معرفة

---

(١) نفس المصدر ، الخطبة ٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، الخطبة ١٦١ .

(٣) نفس المصدر ، الخطبة ١٦٨ .

(٤) نفس المصدر ، الخطبة ١٨٢ .

(٥) نفس المصدر ، الخطبة ١٨٧ (القاصعة) .

(٦) نفس المصدر ، الرسالة ٦ .

(٧) نفس المصدر ، الرسالة ٩ .

(٨) « نهج البلاغة » ، الرسالة ٥٤ .

تـامـة بحقيقـة الإسـلام وحـدود الحـلال والحـرام ، أم أن النُّهَّـاب النجـديـون ، هجمـوا على قبـائـل المسلمين العـزّل كـراراً ، بتهمـة الشرك ، ونهبوا أموالهم وقاموا بوضع حمامات من الدماء ؟

لم تكن الحفنة الوهابية تعتدي على القبائل المحيطة فقط ، بل أنها قامت بالهجوم على كربلاء ، مرة في عام ١٢١٦ الهجري ، وتارة أخرى في عام ١٢٥٩ ، ولم ترحم لا على الصغير ولا على الكبيـر ، وضربت خلال ثـلاثة أيـام أعناق سـتـة آلاف شخص ، ونهبت كقوات يزيد ، جميـع نفائس الحـرم الشريـف . لماذا ؟ لأن هـذه المجموعـة تحلف بأبناء النبي الأكرم (ص) ، وتبدي حنانها تجاههم[1] .

يتمثـل « الإمـام أميـر المؤمنين » ـ عليه السـلام ـ في إحـدى خطبه ، بشعر الشاعر الذي حلف بعمره ، ويقول ما يلي :

« لَـعَـمـرِ أبـيـكَ الخَـيرِ يـا عَـمـرُو وإنَّـني
عَـلَى وَضَرٍ مِـن ذا الإنـاءِ قَـليـلُ »[2]

ليس هذا الإمام لوحده حلف بغيـر الله تعالى ، بـل أن الخليفة الأول يحلف في حديثة ؛ بأب مخاطبه ، قائلاً :

« إنَّ رَجُلاً من أهلِ اليَمنِ أقطَعَ اليَد والرِّجلُ قَدِمَ فَنزَلَ عَلى أبي بَكرِ الصِّديقِ ، فَشَكا إليهِ أنَّ عـامِلَ اليَمَنِ قَـد ظَلَمهُ فكـانَ يُصَلّي من

(١) لقد تم مقارنة الأسانيد المذكورة مع « نهج البلاغة » ، محمد عبده ، طبع « مـطبعة الإستقامة » .

(٢) « نهج البلاغة » ، الخطبة ٢٥ .

اللَّيلِ ، فَيقُولُ أبو بكرٍ وأبيكَ ما لَيلُكَ بلَيلٍ سارِقٍ . . . »[1] .

يتضح من خلال مراجعة الأشعار التي بقيت منذ صدر الإسلام ، أن الحلف ببيت الله كان تماماً شائعاً في أوساط العرب .

يقول أبو طالب في قصيدته « اللامية » :

كَـذَبْـتُـمْ وَبـيـتِ الله، نـبـزي مُحـمَّـداً
وَلَمَّـا نُـطاعِـن دُونَـه ونـنـاضِـل[2]

لقد نقل عن الإبن الأكبر لـ « الحسين بن علي » ـ عليه السلام ـ يعني عن علي الأكبر ، أنه رَجَزَ في يوم عاشوراء رجزاً ، هذا مفاده :

أنـا عـليُّ بـنُ الحُـسَـين بـن عـليّ
نَـحـنُ وبَـيـتِ الله أولى بـالـنَّـبِـيّ[3]

ينقل « أحمد بن حنبل » في كتابه « المسند » عن « عـائشة » ، أن المسروق قال لها :

« سألتُكِ بِحَقِّ هذا القَبرِ ، ما الّذي سَمعتِ مِن رَسُولِ الله في

(1) « الموطأ في الحديث أو مَوَطأ الإمام مالك » مع شرح الزرقاني ، المجلد ٤ ، الصفحة ١٥٩ .

(2) لقد نقلت في « سيرة ابن هشام » ، المجلد الثاني ، الصفحة ٢٧٥ ، طبعة مصر ، مصطفى الحلبي ، وفي المجلد الأول ، الصفحة ٢٤٧ ، طبعة مكتبة الكليات ـ مصر ، وفي « المسند » لأحمد حنبل ، المجلد الثاني ، الصفحة ٢٠٢ ، والمجلد السادس ، الصفحة ٢١١ ، نقلت أحاديث عن الصحابة ، والتي تدل على شيوع هذا النوع من الأحلاف .

(3) « النفس المهموم » ، الصفحة ١٦٤ .

حَقِّ الخَـوارِجِ ؟ قالَت سَمِعتُـهُ يَقُـولُ : إنَّهُم شَـرُّ الخَلقِ والخَليقـة ، ويَقتُلُهُم خَيرُ الخَلقِ والخَليقَةِ وأقربُهُم عِند الله وَسيلة »[1] .

أن جملة « سألتكِ . . . » هي بـدلاً عن جملة « أقسمت عليك بصاحب هذا القبر » . يستنتج من هذه الروايات والروايات الأخرى ، حيث أننا نتجنب نقلها بغيـة الإختصار ، يستنتـج أن الحلف بغير الله كـان شائعـاً على ألسِنـة النبي الأكـرم (ص) ، والإمـام والشخصيـات الجليلة في صدر الإسلام ، ولـم يعتبره السَلف الصالح منافياً للتوحيد أبداً .

أدِلة الوهابيون في تحريم الحلف بغير الله تعالى :

أن محصلة أدلـة هؤلاء تتلخص في حديثين اثنين . وسنـوضح بدورنا ، بعون الله سبحانـه وتعالى ، الهـدف من هذين الحـديثين ، وسوف تلاحظون أن هذين الحديثين ليسا دليلاً على وجهة نظر هؤلاء ، حتى ولو افترضنـا صحتهما وصـدورهما عن النبي الأكـرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ . بيد أنه يستوجب علينا ، قبل أن نقوم بتحليل هذين الحـديثين ، أن نطلعكم على أقـوال ووجهـات نـظر أئمـة المـذاهب الأربعة ، لأن ما يجمع عليه أصحاب هذه المذاهب الأربعة أو أغلب هؤلاء ، هو أن جواز الحلف بغيـر الله سبحانـه ، دليل على أن لهـذه الأحـاديث أهداف أخـرى ، لم تكن خـافيـة وسِـراً على أئمـة هـذه المذاهب ، وإلّا فلا دليل لأن ينتخب جميع هؤلاء أو أغلبهم ، جـواز الحلف ، آخذين بنظر الإعتبار الأحاديث موضع البحث .

---

(١) « المسند » لأحمد بن حنبل ، المجلد الخامس ، الصفحة ٣١ .

وسوف تلاحظون في هذا التحليل ، أن كتّاب أراء المذاهب الأربعة ، بما فيهم أبو حنيفة والشافعي ، قد نقلوا الكراهية .

لقد نقل مؤلف « الفقه على المذاهب الأربعة » عن مالك بن أنَس ، قولين اثنين ، ورجَّح أن المعروف هو أن مالك بن أنَس ، كان يعتبرها حراماً ، في حين أن القسطلاني نقل عن الإمام مالك ، الكراهية فقط .

لقد نقل في أغلب الكتب الفقهية ، التحريم عن أحمد بن حنبل ، في حين أن ابن قدامة نقل عن أحمد بن حنبل في « المغني » ، أن الحلف ينعقد بحق النبي الأكرم (ص) ، ونقضه يؤدي إلى الكفارة .

إن انعقاد اليمين وتعلق الكفارة ، رغم أنهما ليسا مرهونان بالحلال ، بيد أنه يُظهر غالباً ، كونه اعتبر هذا اليمين حلالاً ومحترماً .

وهاكم الفتاوى :

« لا يَنعَقِدُ اليَمينُ بغَيرِ الله تَعالى كالحَلفِ بالنَّبيّ والكعبَةِ وجبريلَ والوَليّ وإذا قَصَدَ الحالِفُ بِذَلِكَ إشراكَ غَيرِ الله مَعَهُ في التَّعظيم ، كانَ ذلِكَ شِركاً ، وإذا قَصَدَ الإستهانَةَ بالحَلفِ بالنَّبيّ كُفرٌ ، أمّا إذا لَم يقصِد شيئاً من ذلِك ؛ بل قَصَدَ اليمينَ ففي حُكمِهِ تفصيلُ المذاهِبِ » :

الحَنَفيَّةُ قالُوا : يَكرَهُ الحَلفُ بِنَحوِ أبيكَ ولَعَمرُكَ وَنَحوُ ذَلِكَ .

الشّافعيَّةُ قالُوا : يَكرَهُ الحَلفُ بِغَيرِ الله تَعالى ، إذا لَم يَقصد شيئاً مِمّا ذُكِرَ .

المالكيَّةُ قالُوا : الحَلفُ بِمعَظَّم كالنَّبيِّ والكعبةِ ونَحوِهِما فيهِ قولانِ : الحُرمَةُ والكِراهَةُ ، والمشهُورُ الحُرمَةُ » .

وكما تلاحظون ، فإن حلفاً كهذا مكروه في المذهبين الحنفي والشافعي ، أما في المذهب المالكي فهناك وجهتي نظر مختلفتين اشهرهما هو التحريم . ولم يعرف في هذا الصدد غير الحنابلة فقط ، الحلف بغير الله تعالى حرام وبشكل قاطع ، وهنا حيث يقول :

« يَحرُمُ الحَلفُ بغَيرِ الله تعالى وَصِفاتِهِ وَلَو بِنَبيٍّ أو ولّي »[1] .

لنغض النظر عن ان جُلّ هذه الفتاوي ، هو نوع من الاجتهاد ازاء نصوص القرآن وسنن نبي الاولياء الآلهيين ، ولم يبق ، على اثر انسداد باب الاجتهاد لدى اهل السّنة ، لعلمائهم المعاصرين بديلاً سوى الاقتداء بآراء هؤلاء .

لنغض النظر عن القسطلاني نقل في « ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري » قولٌ بالكرامة عن مالك بن أنس ، يقول فيه :

« اَلمَشهُور عِندَ المالِكيَّةِ الكِراهَةُ وَعِندَ الحنابَلةِ التحريمُ وَجُمهُور الشّافعيَّةِ اَنَّهُ للتَنزيهِ ، وَقالَ إمامُ الحَرمينِ : المـذهَبُ القَطعُ بِالكِراهَةِ وقالَ غَيرُهُ بالتفصيلِ ، فَاِنِ اعتَقَدَ فيه مِنَ التعظيمِ مايعتقدُهُ في الله ، حَرُمَ وكَفَرَ بِذلِكَ الاعتِقادِ ، وَاِن حَلَفَ لاعتِقادِ تعظيمِ المحلُوفِ بِهِ على مايَليقُ بِهِ مِنَ التَّعظيمِ فلا يكفُرُ »[2] .

---

(١) « الفقه على المذاهب الأربعة ، كتاب اليمين ، المجلد ١ ، الصفحة ٧٥ ، طبعة مصر .

(٢) « إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري » ، المجلد التاسع ، الصفحة ٣٥٨ .

لنغض النظر عن إنساب حَلفٍ كهذا الى الحنابلة امرٌ مسلمٌ به ،لان ابى قدامة يكتب في « المغني » ، انه قد كتبه على اساس احياء الفقه ، قائلاً :

«وقال أصحابنا الحَلفُ برسولِ الله (ص) يَمينٌ مُوجَبةٌ للكَفَّارةِ . رُوِيَ عَن أحمَدَ إذا حَلَفَ بِحَقِّ رسُولِ الله فَحَنَثَ فَعليهِ الكفّارَةُ ، قالَ أصحابُنا لإنَّهُ أحَدُ شَرطَي الشَّهادةِ فالحَلَفُ به مُوجِبٌ للكفّارةِ كالحَلفِ بإسم الله »[1] .

يتضح من خلال هذا النقل ، أنه لا يمكن القول ، إنّ إماماً من المذاهب الأربعة قدَّم فتوى للتحريم ، وبشكل جازم .

ونشير في الختام ، إلى هذه النقطة :

أن علماء أهل السُّنة ، رغم اختلافهم على الحَلف بغير الله تعالى ، ومَعَ هذا فإنهم كُلُّهم يجمعون على أن الحَلف بالطلاق والعتاق وكون الثروة صدقة ، شيء جائز ، ويعتقدون أنه إذا حَلفَ شخص بطلاق المرأة وبتحرير العبد ، وبصدقة أمواله ، فسوف تُطّلق إمرأته وبتحرر عبده وأمواله صدقة ، دون الحاجة لإجراء الصيغة ، في حين أن جميع علماء الشيعة اقتداءاً بأئمتهم الأسبقين ، يعتبرون حكماً كهذا باطلاً ودون أساس ، ويقولون أنه من أجل تحقيق الطلاق والعتاق وصدقة الأموال ، لا مناص ، كالأمور الأخرى ، من أن تجري صيغة خاصة بذلك .

وبعد الإطلاع على آراء الوهابيين ووجهات نظرهم ، سندرس

---

(١) « المغني » ، المجلد ٩ ، الصفحة ٥١٧ .

الآن حديثان اتخذهما الوهابيون ذريعة لأنفسهم ، وأريقت نتيجة هذان الحديثان الدماء وتم تكفير الملايين من المسلمين .

الـحديث الأول :

إنَّ رسُـولَ الله سَمِعَ عُمَـرَ رَضِيَ الله عَنهُ ، وهُـوَ يقـولُ : وأبي « فقالَ إنَّ الله يَنهاكُم أن تَحلِفُوا بِآبائِكُم ، وَمَن كانَ حالِفاً فليَحلِف بالله أو يسكُت »[1] .

توضيح فحوى الرواية :

إننا نضطر ، إذا أخذنا الآيات والروايات المتواترة والتي ذكر فيها

---

(١) أن المؤلف ينقل هذا الحديث من المجتمعات الحديثية ، أيضاً :

أ ـ « السنن لمحمد ابن ماجه » ، كتاب الكفارات ، المجلد ١ ، الصفحة ٢٧٧ ، طبعة عيسى البابي الحلبي .

ب ـ « السنن لعيسى بن محمـد عيسى التـرمـذي » (٢٠٩ ـ ٢٩٧) المجلد ٤ ، الصفحة ١٠٩ ، الباب ٨ ، طبعة مصطفى البابي الحلبي .

ج ـ « السنن للنسائي » المجلد ٧ ، الصفحة ٤ ـ ٥ طبعة مصطفى البابي الحلبي .

د ـ « السنن الكبرى » للبيهقي ، المجلد ١٠ ، الصفحة ٢٩ .

إن ما يثير الإهتمام في هذا الحديث ، هو أن النبي الأكـرم (ص) قال جملة واحـدة فقط لنهي عمر عن الحَلفـ بأبيه ، وهي عبارة عن الجملة التالية :

« إنَّ الله ينهاكم أن تَحلِفوا بآبائِكم » .

وبالأحرى ، فإنه بيَّن نَهيَهُ بهذه الجملة فقط . نتمنى أن يضع القراء الأعـزاء ، هذا الموضوع عالقاً في أذهانهم ، لأن هذا الموضوع يستطيع أن يكون عونـاً لإستيعاب الحديث الثاني .

الحَلف بغير الله ، إلى أن نبرر فحوى هذه الرواية بشكلٍ من الأشكال .

التبرير الأول :

إن النهي عن الحلف بالأباء ، تأتي بسبب أن آبائهم كانوا في الغالب من المشركين وعباد الأوثان ، ولم يكن أشخاص كهؤلاء يتمتعون بقيمة وإحترام وقداسة ، لأن يحلف الإنسان بهم . ففي هذه الحالة يمكن لهذا الحديث أن يكون شاهداً على حالة واحدة فقط ، وذلك هو تحريم الحلف بالمشركين ، وإن استطعنا من توسيع فحوى ذلك ، فسوف نستطيع أن نقول ، كون هذا الحديث برهان على تحريم الحلف بأي كافر كان ، سواء كان مشركاً أم كافراً غير مشرك ، ولا يمكن الإستدلال منها على تحريم الحلف بالأولياء وجميع الأنبياء والأناس الشرفاء ، أبداً .

إن الدليل الواضح على هذا الموضوع ، هو أنه وردت في العديد من الأحاديث ، ألفاظ « الطواغيت » و« الأنداد » ملازمة للأباء ، كالتالي :

« لا تَحلِفوا بآبائِكُم ولا بالطَّواغيتِ »[1] .

« لا تَحلِفُوا بآبائِكُم ولا بِأُمَّهاتِكُم ولا بِالأنداد »[2] .

---

(١) « السنن الكبرى » ، المجلد ١٠ ، الصفحة ٢٩ ـ نقلاً عن صحيح المسلم ، والسنن للنسائي ، المجلد ٧ ، الصفحة ٧٧ ، و« السنن لإبن ماجه » المجلد الأول ، الصفحة ٣٧٨ .

(٢) « السنن الكبرى » ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٩ ـ نقلاً عن السنن لأبي داود ، والسنن للنسائي ، المجلد ٧ ، الصفحة ٧ .

ولأن لفظة « الطواغيت » و« الأنداد » هي كناية عن أوثان العرب ، ووردت ملازمة لـ « الآباء » ، يمكن فهم الهدف من نهي كهذا .

لقد التفت ابن رُشد القرطبي في كتاب « بداية المجتهد » إلى هذا المفهوم ، وينقل ما ورد أدناه ، عن الذين يعتبرون الحَلف بغير الله تعالى ، أمراً جائزاً :

« المقصُودُ بالحَديثِ ، هُوَ أن لا يُعَظَّمَ مَن لَم يعظَمهُ الشّارعُ ، بدليلِ قَولِهِ : إنَّ الله ينهاكُم أن تَحلِفوا بآبائكُم وإنَّ هذا مِن بابِ الخاصِ أُريدَ به العامُّ ، أجازَ الحَلفَ بِكُلٍّ مُعَظَّمٍ في الشَّرع »[1] .

فكيف يمكن ، استناداً إلى هذه القرائن الواضحة ، القول أن النبي الأكرم (ص) قد نهى عن الحَلف بمقدسات كالأولياء ، والرسُل الإلهيون ، في حين أن نهيه كان عن مورد خاص ؟

التبرير الثاني :

يمكن أن يقال ، أن نهي النبي الأكرم (ص) عن حَلف كهذا ، كان « نهياً تنزيهياً » ، لأنه يجب وبأدلة الأحاديث السابقة في أن النبي كان يحلف بآباء المشركين ، يجب جعل النهي حملاً على الكراهة ، وتفسيره بذلك .

---

(١) « بداية المجتهد » ، المجلد الأول ، الصفحة ٣٩٤ .

التبرير الثالث :

إن المقصود بالنهي عن الحلف بالأب ، هو الحلف بمقام الحكمية وفض النزاع ، لأنه وحسب إجماع علماء الإسلام ، فإنه لا يكفي أي حلف كان لفض النزاع ، إلّا الحلف بالله تعالى وصفاته ، حيث له الإشارة على الذات .

إذن : سيكون نهي النبي الأكرم (ص) ، « نهياً إرشادياً » ، وليس مولوياً ، ولا هدفه توعية المسلمون في أن حلفاً كهذا لا ينعقد وليس لنقضه كفارة ولا يتم من خلاله فض النزاع .

لقد ورد هذا الموضوع بصراحة في أحاديث الشيعة . يقول « أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » ـ عليه السلام ـ :

« إذا قالَ الرّجُلُ : أقسَمتُ أو أحلَفتُ فَلَيسَ بشيء حتّى يَقُولَ أقسَمتُ بالله أو حَلَفتُ بالله »[1] .

وعلى هذا فإن هذه التبريرات الثلاث ، يمكن أن تزيل منافاة هذا الحديث بالأحاديث السابقة .

الحديث الثاني :

« جاء ابنَ عمر رجلٌ فقالَ : أُحلِف بالكعبةِ قال لا ولكِن أحلِف بربِّ الكعبة ، فإن عمرَ كانَ يَحلِفُ بأبيهِ فقالَ رسول الله (ص) لا تَحلِف بأبيكَ فإنّ من حَلَفَ بغير الله فَقد أشركَ »[2] .

---

(١) « وسائل الشيعة » ، كتاب الإيمان ، المجلد ١٦ ، الصفحة ١٤٢ .

(٢) « السنن الكبرى » ، المجلد العاشر ، الصفحة ٢٩ . و« المسند لأحمد بن حنبل »=

الإجابـة :

إستناداً إلى الأدلة السابقة التي تعتبـر الحلف بغير الله تعـالى ، جائزاً ، فلا مناص من تبرير هذا الحديث بشكلٍ ما ، وكالتالي :

لقد تألف هذا الحديث من ثلاثة أقسام :

١ ـ جاء ابن عمر رجلٌ فقال أحلِف بالكعبةِ ، بيـد أن الشخص المقابل منعه عن حلف كهذا .

٢ ـ كان عمر يحلف بأبيه (الخطّاب) ، عند رسول الله (ص) ، فمنعه النبي الأكرم (ص) عن حلف كهذا ، وقال لـه ، فإنّ من حَلَفَ بغير الله فَقد أشركَ .

٣ ـ أن اجتهاد ابن عمر قام بتوسيع كلام النبي الأكـرم (ص) : (من حلف بغير الله فقد أشـرك) الذي جـاء بصدد الحلف بـالمشرك (الخطّاب) وحتى أنه اعتبر الحلف بالمقدسات كالكعبة أيضاً دخيلة في كلام الرسول الأكرم (ص) .

وفي هـذا المضمار ، فـإن القاسم المشتـرك بين هذه الـروايـة والروايات السابقة حيث كان الرسول الأكرم (ص) والآخرون يحلفون بغير الله تعالى ، بلا تحفظ ، هو أن كلام الرسول « من حَلَفَ بغير الله فقد أشرك » وقف على حالة يكون فيها « المقسم به » مشركاً ، وليس مُسلمـاً أو مقدسـاً كالقـرآن الكريم ، والكعبـة الشـريفـة ، والـرسـول الأكرم (ص) ، وإن اجتهاد ابن عمر الذي فهم عن كلام النبي مفهوماً

= المجلد ١ ، الصفحـة ٤٧ ، والمجـلد ٢ ، الصـفحـة ٣٤ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ١٢٥ . والسنن للبيهقي ، المجلد ١٠ ، الصفحة ٢٩ .

شاملاً ، فهو يشكّل بالنسبة له البرهان ، وليس للآخرين .

وأن سبب كون الحلف بـ « الأب المشرك » هو نوع من الشرك ، هو أن حلفاً كهذا ، هو في الظاهر مصداق لسبيل هؤلاء ونهجهم .

إن هذا أحد تفاسير الحديث ، وأساسه هو تخطئة اجتهاد ابن عمر ، الذي فهم من الحديث موضع البحث الذي جاء بصدد الحلف بالمشرك ، معنى شاملاً ، حتى أنه قام بتطبيق ذلك على المقدسات أيضاً .

وهنا يتبادر تفسير آخر ، حيث هو أكثر تجلياً ووضوحاً من التفسير الأول ، وإليكم تبيان ذلك :

التفسير الثاني :

يتعلق حديث الرسول الأكرم (ص) عندما يقول : « مَن حَلَفَ بغير الله فقد أشرك »بالحلف بطواغيت أمثال«اللات والعزى»، وليس الحلَف بأب المشرك ، فكيف الحال وصولاً إلى الحلف بالمقدسات كالكعبة الشريفة ، وإن هذا هو (اجتهاد ابن عمر) الذي قام بتطبيق هذا القانون المتعلق بالأوثان . في حالتين (الحلف بالمشرك والحلف بالكعبة) ، وإلاّ فلم يكن لحديث الرسول الأكرم (ص) شمولية كهذه ، بدليل أن النبي يقول في حديث آخر :

« من حَلَف فقالَ في حلفِه باللاّتِ والعُزى ، فَليَقُل : لا إلـهَ إلاّ الله »[1] .

---

(١) « السنن » للنسائي ، المجلد ٧ ، الصفحة ٨ .

يستنتج من خلال هذا الحديث ، أنه كانت لم تزل رواسب فترة الجاهلية عالقة في أذهان المسلمين ، وإنهم كانوا وبدافع العادة القديمة ، يحلفون حتى بالطواغيت ، ومن أجل اجتثاث هذا العمل القبيح ، جاء الرسول الأكرم (ص) بتلك الجملة الكلية . بيد أن إبن عمر قام بتطبيقها على الحلف بالمقدسات ، وكذلك على الحلف بأب المشرك .

وإن الدليل على أن حديث الرسول الأكرم (ص) لم يكن مقروناً على الحلف بالمقدسات ، ولا على الحلف بالأب المشرك ، وأن هذا هو ابن عمر الذي قام بضم كلام رسول الله (ص) في موضعين ، حتى يحلف عمر بأبيه ، وأن هذا الدليل هو :

١ ـ ينقل إمام الحنابلة في المسند[1] ،ينقل الحديث الثاني بشكل يستنتج منه ، إن التطبيق كان من طرق أبن عمر . وهاكم نص الحديث :

« كانَ يحلِف ابي ، فنهاه النبي ، قال مَن حَلَفَ بشيءٍ دون الله فقد اشركَ . »

وكما تلاحظون ، فإن جملة « قال من حلف . . . . » قد وردت بدون واو العطف (او الفاء) ، واذا كان قد قال النبي هذا القانون في نهاية الحلف بالأب ، لاستوجب أن يكون حرف العطف متواجداً في الوسط .

---

(١) « المسند » لأحمد بن حنبل ، المجلد ٢ ، الصفحة ٣٤ .

٢ ـ ويعود مؤلف « المسند »[١] لينقل في حديث « من حلف . . . » بدون رواية حلف عمر ، ويقول مايلي :

« مَن حَلَفَ بِغَيرِ الله قالَ فيه قولاً شديداً . »

واستناداً الى هذه المراحل ، يمكن القول ، أن اساس السهو يكمن في شيئين :

١ ـ لقد قام اجتهاد ابن عمر ، بتعميم القانون الكلي على الحلف بالمقدسات كالكعبة ، أيضاً . (التفسير الاول) .

٢ ـ لقد جمع حديثان إثنان في مكان واحد ، وجعل الحديث الذي هو اساساً متعلق بالحلف بالطواغيت ، مع حديث النهي عن الحلف بالأب ، جمعهما في مكان واحد ، وأضحى ذلك اساساً للالتباس . (التفسير الثاني) .

وبعبارة أخرى ، فقد قام بتطبيق حديث « مَن حَلَفَ بغير الله » على الكعبة (وهذا إجتهاد) ، وقام بجمع حديثين مستقلين ، معاً .

آراء أئمة الشيعة حول المسألة :

لا ريب في أن المسلمين منذ البداية وإلى يومنا هذا ، حَلفوا بالأمور المقدسة وبالذين هم أعزاء مقربين إليهم ، ويجتلبون عبر طريق الحلف بالنبي والإمام وبالقرآن والكعبة ، دوماً قناعة المقابل على صدق كلامهم ، وإن عملاً بين المسلمين كهذا يدل على صحته ، وإن كان شيئاً كهذا حراماً ، لاستلزم النهي عنه .

---

(١) « المسند » لأحمد بن حنبل ، المجلد الثاني ، الصفحة ٦٧ .

لقد وردت هذه الأنواع من الأحلاف وبكثرة في مباحثات أئمتنا مع أناس ذلك الوقت ، ننقل لكم منها بعض النماذج :

« ثامن الأئمة » ـ عليه السلام ـ يحلف لدى مباحثاته ، برسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وبقرابته برسول الله (ص) ، وببيت الله ، وبالمقابل[1] .

« الإمام الجواد » ـ عليه السلام ـ يحلف بحياة المقابل[2] .

وفي مقابل ذلك ، هناك سلسلة من الروايات ، يجب تفسيرها قرينة للروايات السابقة .

مثلاً :

« كُلُّ يَمينٍ بغَيرِ الله فَهِيَ مِن خُطُواتِ الشَّيطانِ »[3] .

بيد أن المقصود من هذه الأحلاف ، هو ذلك القِسم من الأحلاف الذي كان شائعاً في أوساط الناس في تلك الحقبة ، مثلاً إنهم كانوا يحلفون بالطلاق ، كما جرى تفسير ذلك في حديث هذه الجملة . يقول رجل لـ « الإمام الصادق » ـ عليه السلام ـ :

« إنّي أحلَفتُ بالطَّلاقِ والعِتاقِ وَالنُّذُورِ »

فيقول الإمام ـ عليه السلام ـ في جوابه :

(١ ، ٢) « وسائل الشيعة » المجلد ١٦ ، كتاب الإيمان ، الباب ٣٠ ، الأحاديث ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٤ ، .

(٣) الرجوع إلى « وسائل الشيعة » ، المجلد ١٦ ، كتاب الإيمان ، الباب ١٥ ، الأحاديث ٤ ، ٥ ، ٦ ، وإلى المصدر السابق ، الباب ١٤ ، الحديث ٥ .

« إنَّ هذا من خُطُواتِ الشَّياطينِ » .

كلّنا يعرف ، أن أحلافاً كهذه جائزة في مذهب أهل السّنة ، وليست مشروعة في مذهب الشيعة ، ولا يمكن لأمرأة بحلفها بالطلاق ، أن تكون مطلّقة ، بل يجب أن يتم ذلك ضمن شروط صيغة الطلاق .

لقد نُهي في العديد من الروايات ، عن الحلف بغير الله تعالى ، بيد أنه نهيٌ مُحَمَلٌ بالكراهية ، لأنه يعلل هكذا ، إنه إذا حلف بغير الله تعالى ، فسوف يتخلى عن الحلف بالله سبحانه[1] ، وتحكي هذه التعابير عن الكراهة .

المقصود من النهي في العديد من الروايات ، هي الأحلاف التي تضع الإنسان في صورة الشرك ، كالحلف بالليل والنهار[2] .

نعم ، إن هناك حديثين فقط ، تعتبر أن يشكل مرسل ، الحلف بالإنسان وبحياة الإنسان شركاً . وليس هذان الحديثان من باب إرسال الحجة ، أو محمولة على الكراهة .[3] .

وفي ختام هذه الدراسة ، ننقل نص الفتوى لأحد فقهاء الشيعة المعاصرين ، وهو فقيه الشيعة الفذ ، المغفور له « آية الله العظمى الأصفهاني » ـ قدس سره ـ ، وذلك من كتاب « وسيلة النجاة » ، حيث يقول :

---

(١) المصدر السابق ، الباب ٣٠ ، الأحاديث ٤ ، ٥ .

(٢) المصدر السابق ، الأحاديث ١ ، ٣ ، ١٥ .

(٣) المصدر السابق ، كتاب الإيمان ، المجلد ١٦ ، الباب ٣٠ ، الأحاديث ١١ ، ١٢ .

« الأقوى إنَّهُ يَجُوزُ الحَلفُ بِغيرِ الله وإن لَم يَترتَّبَ على مخالفتِها إثمٌ ولا كفّارةٌ كما إنَّهُ لَيسَ فاصِلاً في الدَّعاوى والمرافعاتِ »[1] .

قم المقدسة ـ الحوزة العلمية

جعفر السبحاني

٣٠ شوال ١٣٩٧

تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٧ م .

---

(١) « وسيلة النجاة » ، كتاب الإيمان والنذور والتدويم ، الطبعة الثامنة ، الصفحة ٢٠٥ ، طبعة النجف الأشرف . للإستزادة يرجى الرجوع إلى كتاب « الجواهر » المجلد ٤٠ ، وكتاب القضاء ، الصفحة ٢٢٨ ، وكتاب « القضاء » للعلّامة الأشتياني ، الصفحة ١٦٩ .



المحتويات



